
جيرمندر ك. بامبرا
إعادة التفكير في الحداثة
نزعة ما بعد الاستعمار والخيال السوسيولوجي
ترجمة:
ابتسام سيد علام
حنان محمد حافظ
مراجعة: أحمد زايد
2660



تكشف مؤلفة هذا الكتاب، من داخل الفهم السوسيولوجي للحداثة، الادعاءات عن "الآخرين" غير الأوروبيين أو غير المنظرين للسرد والأطر التحليلية المهيمنة على علم الاجتماع.

كما تقدم فهمًا للتواريخ المترابطة لإعادة تشكيل علم الاجتماع التاريخي عالميًا، وتوجه اهتمامها إلى لحظات التأسيس للحداثة، التي تمثلت في عصر النهضة - الثورة الفرنسية - الثورة الصناعية؛ لتحديد هوية أساطير النشأة سواء للحداثة أو الحداثات المتعددة.

وتعرض الباحثة لخفايا التصورات الغربية وما تضمنه النموذج النظري من محافظة على الأوضاع القائمة، وتقديم التبريرات بما يدعم الاستغلال لتظل العلاقات غير المتكافئة، والتي تدعم النظرية والعكس صحيح؛ مما نلمح منه بعض التماس مع موقف الغرب مما يحدث في الشرق الأوسط اليوم، والذي يصل إلى حد التطابق مع الموقف الاستعماري بصورته الفجة.



تصميم الغلاف: خالد محمود

إعادة التفكير في الحداثة

نزعة ما بعد الاستعمار والخيال السوسيولوجي

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2660
- إعادة التفكير فى الحداثة: نزعة ما بعد الاستعمار والخيال السوسيولوجى
- جيرمندر ك. بامبرا
- ابتسام سيد علام، وحنان محمد حافظ
- أحمد زايد
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:
Rethinking Modernity
By: Gurminder K. Bhambra

شارع:الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

إعادة التفكير في الحداثة

نزعة ما بعد الاستعمار والخيال السوسيولوجي

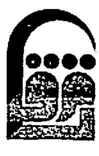
تأليف : جيرمندر ك. بامبرا

ترجمة

ابتسام سيد علام   حنان محمد حافظ

مراجعة

أحمد زايد



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بلمبرا ، جيرمندرك
إعادة التفكير في الحداثة، نزعة ما بعد الاستعمار والخيال السوسيولوجي / تأليف/ جير مندرك بلمبرا، ترجمة: إبتسام سيد علام، حنان محمد حافظ مراجعة: أحمد زايد.
ط ١ – القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٢٨٤ ص ، ٢٤سم
١- التغير الاجتماعي
٢- الحداثة
(أ) علام ، ابتسام سيد (مترجم)
(ب) حافظ ، حنان محمد (مترجم مشارك)
(جـ) زايد ، أحمد (مراجع)
(ب) العنوان ٣٠١,٢٤

رقم الإيداع : ٢١٠٥٢ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى : I.S.B.N 978- 977-718 -925-5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

كلمة الترجمة العربية

يمثل هذا الكتاب أحد أهم المشروعات التى تفرغت لها المؤلفة لتأكيد فكرة التمركز حول النزعة الأوروبية وبلورتها فى نشأة الحداثة وتطورها. وموقف غير الأوروبيين أو من لا أصوات لهم غير المنظورين. وتتناول رموز الحداثة بالمناقشة، والتفنيد تلك التى تمثل لحظات التأسيس (عصر النهضة – الثورة الفرنسية – الثورة الصناعية) التى ارتبطت بأساطير النشأة والتطور، مع الإشارة إلى نزعة ما بعد الاستعمار والاستشراق.

إنها إعادة قراءة لباحثة تصف ما يحدث فى الفكر الغربى وتحلل من داخله، ومن ثم فهى تعرض خفايا التصورات الغربية، وما يتضمنه النموذج النظرى للحداثة والحداثات المتعددة من محافظة على الأوضاع القائمة وتقديم التبريرات بما يدعم الاستغلال لتظل العلاقات غير المتكافئة والتى تدعم النظرية، والعكس صحيح.

ويدعم هذا أيضا الانتقادات التى وجهت للحداثة (كنظرية)، كما يؤكد ما ذهب إليه ماركس من جوانب سلبية للحداثة تتجلى فى المجتمعات التقليدية؛ لأن الجوانب الإيجابية تتحقق فى الغرب بما يحافظ باستمرار على العلاقة غير المتكافئة، ويبرر الاستناد لنظرية الحداثة التى تجعل من الغرب مركزا للتقدم يجب محاكاته، وأن النسخ المقلدة له لا يمكن أن تصل إلى درجة نقاء الأصل بما يحقق مزيدا من العنصرية والتمركز حول النزعة الأوروبية.

ويُحْدث هذا تماسًا مع موقف الغرب مما يحدث فى الشرق الأوسط اليوم، والذى يصل فى معظم الأحيان إلى حد التطابق مع الموقف الاستعمارى بصورته الفجة، والتى يحاول إخفاءها بالتجمل؛ ولكن تكشفه أطماعه لدعم مصالحه.

وتمثل هذه الترجمة أول مشاركة للمترجمتين بالمركز القومى للترجمة. وبقدر سعادتهما بهذا الوليد بقدر شعورهما بالامتنان للأستاذ الدكتور/ أحمد زايد الداعم والراعى العلمى الذى لولا دعمه وإنسانيته لما كان لهذا العمل أن يرى النور. وقد قامت الدكتورة ابتسام بترجمة (المقدمة، والفصل الأول، والثالث، والخامس، والخاتمة، والهوامش). أما الدكتورة حنان فقد قامت بترجمة (الفصل الثاني، والرابع، والسادس)، وتتمنى المترجمتان أن تحظى هذه الترجمة بالقبول.

والله الموفق،

المترجمتان

د. ابتسام سيد علام

أستاذ علم الاجتماع المساعد بآداب القاهرة

د. حنان محمد حافظ

مدرس علم الاجتماع بآداب القاهرة

شكر وعرفان

أشعر بدين فكرى فى إنجاز هذا الكتاب للكثيرين وتمثل جامعة سوسكس المكان المناسب لذلك حيث كانت بدايتى طالبة LSE بها، وأدين لجامعة سوسكس مرة ثانية. فقد تابع جون هولموود John Holmwood هذا المشروع من بدايته وأسهمت قراءته وتعليقاته الشاملة فى تنقيح المخطوط.

وقد أسهمت تدخلاته بدور كبير، فى تطوير تفكيرى خلال هذه السنوات القليلة الماضية وأنا قدر حقيقة الكرم الروحى الذى جعله ينشغل بعملى. أنا أدين بالشكر أيضا لميا رودريجوز - سالجادو Mia Rodriguez-Salgado، الملهمة حينما كنت فى LSE، التى منحتنى بسخاء من وقتها وخبرتها فى مناقشة القضايا التى تناولتها هنا - وأنا شاكرة لهذا. وأقدر أيضا الدعم الفكرى من ويليام أوثويت William outhwaite وانتقاداته وتعليقات بيتر واجنر Peter Wagner القيمة على النسخة المبكرة، وأحب أن أشكر كلاً من: ليبى أساسى Libby Assassi، وأندرو تشيتى Andrew Chitty، وجوان كوكس Joan Cocks، وباربارا إين هورن Barbara Einhorn، ونشا جونز Nisha Jones، وزدينيك كافان Zdenek Kavan، وسام كنافو Sam Knafo، وفيكى مارجرى Vicky Margree، وجريجور مكلينان Gregor Mclennan، وميهانيا بانو Mihnea Panu، ورالوكا بارفو Raluca Parvu، روبى شيليام Robbie Shilliam، نيل ستامرز Neil Stammers، وجيب ستراند سبيجرج Jeppe Strandsbjerg، وبول ياتس Paul Yates الذين انشغلوا جميعا بالقضايا التى تناولتها هنا فى مراحل مختلفة من تطويرها. كان لدى دعم مالى أثناء فترة إنجاز هذا الكتاب، تمثل فى منحة بحثية لما بعد الدكتوراه من مركز البحوث الاقتصادية والاجتماعية ومدرسة العلوم الاجتماعية والدراسات الثقافية، ولذلك أحب أن أسجل شكرى وتقديرى لجامعة سوسكس. وقد قضيت أيضًا فصلاً دراسيًا أثناء هذا الوقت فى مركز بحث دراسات النساء فى الكلية الخامسة كلية ماونت هوليوك، كما أحب أن أشكر زملائى هناك لحسن ضيافتهم .

مقدمة

نزعة ما بعد الاستعمار وعلم الاجتماع، وسياسة إنتاج المعرفة

تُعد "الحداثة" الإطار المهيمن على الفكر الاجتماعى والسياسي، ليس فقط فى الغرب؛ لكن فى الجانب الآخر من العالم. لقد أثارت **النتائج المترتبة** على الثورة الفرنسية وعمليات التصنيع صورًا من الجدل حول نشأة عالم حديث يتطلب شكلا حديثًا متميزًا للتفسير. وسوف أفترض هنا بأن هذا الوضع يستند على فرضيتين جوهريتين: *القطيعة والاختلاف* – قطيعة زمنية تميز ماضيًا تقليديًا زراعيًا، عن حاضر عصري، صناعي؛ واختلاف جوهرى يميز أوروبا عن بقية العالم. وتؤطر هذه الأشكال للافتراضات التحليلية المتعلقة بمشكلات القياس المنهجى التى طرحها البحث الاجتماعى والتفسيرات المصوغة فى حلها. وأحاول فى هذا الكتاب أن أستدعى التساؤل عن البرهان الاجتماعى – التاريخى لأفكار القطيعة والاختلاف. وأبحث كيف أن بناء هذا البرهان فى حد ذاته أدى إلى تطوير أشكال خاصة للمفاهيم النظرية. وأهم من ذلك، أن ربط الحداثة بأوروبا يشكل الافتراض الجوهرى لأغلب الفكر العقلانى اليوم؛ تلك الأبنية الخاصة، نشأت فى البداية فى الغرب، ثم أصبحت عالمية.

وسوف يؤكد البعض أن هذه الادعاءات ليست حديثة منذ فترة طويلة. واستناد الأفكار المسيطرة للحداثة على الأفكار المرتبطة بالانفصال الزمانى والمكانى فيما يبدو أن عددًا من منظرى ما بعد الحداثة وما بعد الاستعمار ناهضوها ولا يزالون؛ بينما توجد حيرة متزايدة فى مساواة التغريب بالتقدم،

ومناقشتي هنا أن الغرب ما يزال يُرَى بوصفه قائدًا أو"رائدًا" للتغير. على سبيل المثال: يرى عدد من المنظرين أن تشكل ما بعد الحداثة فى حد ذاته يقع فى الدول الرأسمالية المتقدمة للغرب، ويستمر بالمثل عديد من علماء ما بعد الاستعمار فى استخدام أوروبا كنقطة مرجعية؛ ولو كانت نقطة سلبية. وأحسب أننا بحاجة لإعادة الاعتبار للإطار التصورى للحداثة من سياق مكانى وتاريخى أوسع، وسياق يعالج *المفهوم المجرد للحداثة فى حد ذاته بوصفه إشكالية*.

وبالتوجه للعلاقة بين الحداثة ونظرية ما بعد الاستعمار، والتمركز حول النزعة الأوروبية، أناقش التمييز المستمر للغرب (**"كونه صانعًا"** لتاريخ عالمي) وأنشد تطوير بدائل نبدأ منها للتعامل مع التساؤلات التى تنشأ حالما نرفض هذا التصنيف. وأُنجِز هذا اعتقادًا أن الأساليب التى بها نفهم الماضى حاسمة فى تصوراتنا لذواتنا والعالم الذى نعيش به اليوم؛ فإذا كانت تصوراتنا للماضى غير كافية؛ فإن إدراكنا للحاضر سوف يكون أيضا غير كاف. ورغم أننى عالجت المفاهيم المسيطرة للحداثة من منظور نظرية ما بعد الاستعمار؛ فإننى سوف أنتقد نظرية ما بعد الاستعمار فى حد ذاتها، مناقشًا أنها كثيرًا ما تعكس ببساطة الازدواجية المتأصلة فى المفاهيم المسيطرة، وبتلك الطريقة تحافظ على البناء الفكرى نفسه الذى نوقش.

(١)

وتشير الحداثة – فى التصور الواسع– إلى التغيرات الاجتماعية والثقافية، والسياسية، والاقتصادية التى ترسخت فى أوروبا الغربية من منتصف القرن السادس عشر فصاعدًا. ورغم التفسيرات المختلفة التى قدمها *منظرو* الحداثة modernity – فيما يتعلق بطبيعتها وتوقيت نشأتها، وأسلوبها المستمر لليوم –

فإن أفكار القطيعة والاختلاف تدعم كل *نظريات* الحداثة. وقد تركز هذا في عمل الكتاب الفرنسيين والأسكتلنديين في القرن ١٨- مثل: مونتسكيو، وفيرجسون، وسميث - الذين عُدُّوا على نطاق واسع أسلاف الاتجاه السوسيولوجي، كما تركز إضافة لذلك في عمل المنظرين الأوائل لعلم الاجتماع الكلاسيكي - دوركايم، وفيبر، وماركس - ويعبر جميعهم بأساليب مختلفة عن التحديات التي واجهها المجتمع الأوروبي الحديث؛ فهم يرون أنه مجتمع تميز عن المجتمعات الفلاحية المبكرة، كما أنه تفرد داخل النظام العالمي المعاصر.

ويرى منظرون اجتماعيون ظهروا مؤخرًا: إن الحداثة- من وجهات نظر مختلفة- مميزة وأوروبية في أصولها. فنجد واجنر- على سبيل المثال- يذهب إلى أنها تتسم "بالقطيعة التي تؤدي إلى بعض التخصيص للغرب في المقارنة العالمية" (2001b: 6). ويجد هذا صداه لدى منظرين متنوعين كالوظيفي المحدث ألكسندر، الذي يفترض أن الانتقال للحداثة داخل المجتمع الغربي زُوِّد "بقدرة غير مسبوقة على التحول في الحضارات الأخرى بالعالم" (1995: 1)، ويقرر المنظر البنيوي جيدنز- بصراحة تامة- أن الحداثة تستمد "جذورها من الخصائص المميزة للتاريخ الأوروبي ... مع قليل من التوازي في فترات سابقة أو في سياقات ثقافية أخرى" (1990: 174)، ويرى الماركسي كالينيكوس (1999) الحداثة حالة خاصة للفكر مصحوبة بنمط خاص للمجتمع- الذي يمثله الغرب الحديث، وعلماء ما بعد الحداثة، مثل: سمارت (1992)، الذي يربط حالة العصرية بتطور المجتمعات الرأسمالية الصناعية الغربية، ويذهب سيدمان (1997, 1998)، إلى أن إدراكنا للحداثة في سياق تميز الثقافة يضرب بجذوره في عمق الغرب الحديث.

ويمكن رؤية الحداثة خلال عدد من المواقف النظرية، على أنها تستند إلى تمييز أساسي بين تشكلات اجتماعية "للغرب"، ومجتمعات "**تقليدية**" أو ما

قبل حداثية. وكما يجادل فاجنر (1994)؛ فمهما تكن هذه الاختلافات الدقيقة شاقة فى التحديد؛ فإن من المفترض أن تؤسس مقاييس لتحديد الحداثة مكانيًا وزمانيا. وتعد هذه المقاييس المعروضة – إضافة لذلك– مهمة أساسية لعلم الاجتماع المعاصر كما تعد – تاريخيًا – خطًا أساسيًا موضوعيًا يُنَظَّر منهُ للحداثة. وتؤكد تحليلات فاجنر الأكثر دقة عن الحداثة أيضًا، أهمية التمييز "بين الخطاب عن المشروع الحديث... والممارسات والمؤسسات فى المجتمع المعاصر" (4 :1994) أو محاولة أوزويت Outhwaite "لتمييز خيالات أوروبا عن عمليات اجتماعية حقيقية" (92 :2001) واستمرارًا فى اكتشاف كل من أشكال الخطاب ومؤسسات وعمليات الحداثة فى مجتمعات القرن ١٨، ١٩ فى الغرب. ويفترض واجنر – إلى هذا الحد– أنه بينما ندرت أى صور من القطيعة "فى سياق ممارسات اقتصادية، واجتماعية، وسياسية خلال المجتمع" ظهرت قطيعة خطابية "شكلت أنواعًا جديدة للمسائل والصراعات الاجتماعية والسياسية" (1994:4). تموضعت هذه القطيعة الخطابية فى حد ذاتها فى الغرب، فى أوروبا على وجه الخصوص، ويعتقد أنها حدثت فى نهاية القرن ١٨، وبداية القرن ١٩، والمؤكد أنها صاحبت ازدياد عمليات التحديث فى أوروبا فى بداية القرن ١٩ ولاحقًا.

ورغم محاولات التمييز بين الفهم التاريخى والتصوري، أو المعيارى للحداثة؛ فإن ذلك ليس ممكنًا. وكما يناقش بلومنبرج، فالعصر الحديث "ليس حاضرًا فيما قدمه فى تفسيره الذاتي؛ ولم يكن تفسيره دافعًا لنشأة العصر الحديث، إنه شيء ما احتاجه ذلك العصر باستمرار ليمنح ذاته شكلا"(1983:468). ويستند تحديدنا لهوية مجتمع "حديث" على تصور ما معنى حديث –سواء كان إدراك الحديث فى سياق الأبنية الاجتماعية أو الخطابية – وإدراك أن هذه التحديدات مستوحاة من الخبرة الغربية. وسوف نناقش

– فى الواقع – هذا التمييز بين البناء والخطاب ليكون واحدًا من الأساليب الأساسية للمحافظة على الإطار المسيطر للحداثة؛ بينما يبدو أنه يتحدى جانبها الأقل استساغة ذلك المتمركز حول الأوروبية. ومثل ما سأوضح: فإن الخبرة الغربية عولجت كأساس لتشكل مفهوم الحداثة، وفى الوقت نفسه، أصبح ذلك المفهوم – موضع الجدل– لديه شرعية تتجاوز الخبرة الغربية. ويذهب موهانتي، إلى أنه رغب فى جذب الانتباه للأساليب التى يصنف بها المؤلفون الآخرون أنهم غير غربيين؛ ومن ثم يصنفون أنفسهم كغربيين ضمنًا دون أن يقرروا حقيقة ما الذى يستلزمه الوجود الغربى (1991:51)، أو بالنسبة لهذه المسألة، ما الذى يستلزمه الوجود الأوروبي[1].

ويعد مصطلح التمركز حول السلالة الأوروبية Eurocentrism مفهومًا خلافيا وإشكاليا؛ ولا يوجد اتفاق واضح على تعريفه، وعلى المنوال نفسه فإن "الوجود المضاد للتمركز حول السلالة الأوروبية anti–Eurocentric" يتضمن معانى متعددة أيضًا (Amin 1989, Joseph et al 1990, Wallerstein 1997, Mclennan 2003, 2006). ويصف فالرستين (1997) خمسة أساليب تُنَاقش بها تعبيرات العلم الاجتماعى عن تمركزه حول السلالة الأوروبية. وهى تأريخيته، ومحدوديته، وعالميته، وافتراضاته خول الحضارة (الغربية)، واستشراقه، ومحاولاته فرض نظرية للتقدم (Wallerstein 1997:94). وعلى النقيض؛ فإن نقاد التمركز حول السلالة الأوروبية يندرجون فى ثلاث فئات أساسية: **الأولى**– من يناقشون الحضارات الأخرى فى عملية فعل ما تفعله أوروبا وربما نجحوا إذا لم تعترضهم أوروبا. و**الثانية– من يذهبون إلى أن** أوروبا لم تفعل شيئا جديدًا تاريخيا؛ لكنها كانت ببساطة "زمنيا" فى طليعة التيارات والتطورات الموقفية ذات الاستمرارية. و**الثالثة**– التحليل غير الدقيق والتفسير غير الملائم لما فعلته أوروبا (Wallerstein 1997:101).

بينما يعتقد فالرستين: أن النقدين الأول والثاني يندرجان في "الاتجاه المضاد للتمركز حول النزعة الأوروبية Eurocentric- التمركز حول السلالة الأوروبية Eurocentrism" -وبذلك تقبل دلالة أو قيمة الإنجاز الأوربي بمصطلحاته، "ويؤكد - فحسب- أن الآخرين استطاعوا فعل ذلك أيضا، أو كانوا يفعلونه أيضا" (1997:103) - أما النقد الثالث- فقد اعتنقه عديد من النقاد للإمداد بأساس أكثر واقعية للوجود في مواجهة التمركز حول السلالة الأوروبية، كما تبدأ "بسؤال افتراضي: هل ما فعلته أوروبا كان إنجازًا إيجابيًا" (1997:104). ومن ناحية ثانية؛ فإن قبول ذلك يعني أن "هناك شيئا ما خاصًا فعلته أوروبا في الواقع في القرن ١٦ وحتى القرن ١٨ أدى لتحول العالم"(Wallerstein 1997:106-7)، ويحاول والرشتاين إعادة التوجه في تفسير ما حدث؛ فيعرض لفكرة التمركز حول السلالة الأوروبية كما ظهرت في الاتجاهات السابقة (Washbrook 1990) ولقد كان الإخفاق في التفنيد للملاءمة التاريخية لمفهوم "أوروبي" وما هو مفترض أنه يُفعَل. فقد اقتصر تحليل فالرستين ببساطة على التساؤل حول الدلالة. ويؤكد مع هذا التلميح الذي قدمه عديد من المنظرين الاجتماعيين الذين اقترحوا: أن "خصوصية الغرب... أصبحت ببساطة مسألة حقيقية... ومن الصعب رؤية عدم الاتفاق بين عديد من المعارضين للتمركز حول السلالة الأوروبية "(Mclennan 2000:281). وحينما يحدد فالرستين المعارضة للتمركز حول السلالة في سياق مختصر واحد فقط يتفق معه، وأراد من ناحية ثانية تقديم تعريف بديل.

التمركز حول السلالة الأوروبية يعني: الاعتقاد ضمنيا أو بطريقة أخرى، في الدلالة التاريخية العالمية على الأحداث التي يعتقد أن لديها نموًا ذاتيًا داخل المجال الثقافي - الجغرافي لأوروبا. ومشاركة في النقاش الفكري حول

التمركز حول السلالة الأوروبية؛ فإننى أناقش "فكرة" "**خصوصية أوروبا**" – فى سياق ثقافتها وأحداثها: "**حقيقة**" التطور المستقل للأحداث، والمفاهيم، والنماذج النظرية، وأخيرًا: "**حقيقة**" أوروبا ذاتها بوصفها وجودًا متماسكًا، يربط شكل الوجود المفترض بما سبق ذكره.

(٢)

اُحتُوِى مضمون "التمركز حول السلالة الأوروبية" داخل النظريات الكلاسيكية للحداثة الذى ناقشته كثيرًا لاستنساخه فى أكثر منحة حديثة عن الموضوع. ويشير ديلانتى Delanty (2004) –على سبيل المثال – إلى تكاثر نظريات أشكال الحداثة البديلة، وأشكال الحداثة العالمية، وأشكال الحداثة المهجنة hybrid والمتشابكة entangled؛ لافتراض أن الجدل حول هذه المسائل تحرك وراء نطاق إدراكاتيم المتمركزة حول النزعة الأوروبية، تلك الإدراكات الأولية المحدودة للعالم. ونستنتج من عمل ماكلينان Mclennan، أنه يقرر: أن التطورات الحديثة فى النظرية الاجتماعية "يبدو أنها تفترض فى الحقيقة أن الحداثة استطاعت أن تكون مُرضية للنظرية الاجتماعية النقدية وتلك النظريات غير المتمركزة حول النزعة الأوروبية وتصدت بذلك للاتهامات بالاستشراق Orientalism التى لا أساس لها من الصحة، والتى غالبا ما تكون مرتبكة" (Delanty 2004: 164)). ويبدو أنه يُشَارُ لهذا بالحركة بعيدًا عن فكرة خصوصية الحداثة، المستندة على الإدراكات الأكثر تقليدية، والأحادية الخط، والتاريخية؛ للمناقشات *حول* الحداثات *المتعددة* .

لقد أصبح خطاب تعددية أشكال الحداثة جليًا بصفة خاصة فى ميادين الأنثروبولوجيا والدراسات الثقافية مع أعمال علماء، مثل: كوماروفس

comaroffs، الذى يجادل ضد فكرة الحداثة كحدود تجاه ما يميل إليه الناس غير الغربيين باستمرار و – بدلا من ذلك- يضع ما يعزز الجدل لإدراك الحداثة كمقوم أساسى للأنساق العالمية المتعددة تلك التى تكون "متنوعة وديناميه، وتعددية، ومتعددة التوجهات" (1993:11,12) ويذهب أكاديميون آخرون، مثل: بيترفان دير فير Peter van der veer، إلى أنه بدلا من الحديث عن أشكال حداثة متعددة من الأفضل الحديث عن "**تعددية تواريخ**". يحتفظ بذلك "بإحساس بتفرد وقوة الحداثة الأوروبية إضافة إلى إحساس بالتعقد والاختلاف لتصادمها مع العمليات التاريخية فى عديد من أجزاء العالم" (1998: 285).

بينما يكرر الفهم الأخير -بصراحة أكثر – فكرة الحداثة كما ارتبطت بأفكار أوروبا المعاصرة، حيث قَدَّمَ كوماروفس comaroffs فهمًا يمكن أيضا رؤيته على أنه استند على فرضيات لم تُختبر للقطيعة والاختلاف، ومناقشًا لبعض التحولات التى حدثت فى البداية فى أوروبا؛ حتى إذا لم يكن هذا التحول مفترضا؛ فإن الدلالة المقدرة مفترضة فى تفسيرات أخرى. ويعالجها ديلانتى Delanty (2004) – من جانبه- كقراءة فى تحليله الذى ذهب فيه إلى أن الحداثة نشأت فى أوروبا، ويعتبر البعض أن التاريخ اللاحق للحداثة يحمل تأثير أصولها الأوروبية؛ إلا أنه قد حرر ذاته بطريقة أو بأخرى من هذه الأصول ويمكن إدراكه الآن ببساطة كظاهرة عالمية انعطفت فى طرق متنوعة وفقا لأشكال التراث المحلي. وسواء تجرد مفهوم الحداثة من انعطافاته أم لا، يظل رغم ذلك مرتبطًا بما أُدرِكَ عمومًا بوصفه خبرة أوروبية.

ولا يعد ديلانتى Delanty وحده هو الذى يدمج قراءة الحداثة مع أوروبا، أو الذى ينقل فكرة التمركز حول السلالة الأوروبية عبر انعكاسه الذاتى، فأغلب المنظرين الاجتماعيين يفعلون الشيء نفسه. فهذا هو جاونكار

Gaonkar (2001b) يفترض فى مجموعة من المقالات عن أشـــكال حداثـــة بديلة: أن نشأة الجدل حول أشكال حداثة بديلة يعزز حقيقة أن شيئا ما بصفة خاصة حديثٌ أُعْتُبِرَ شيئًا مقدرًا لا مفر منه. وإدراك الغرب كمأوى أساســى واضح للحداثة، وبعولمتها globalization ارتحلت من الغرب لبقية العـــالم. ويعنى هذا أن الناس غير الغربيين يجب أن يبدءوا الآن فى دمـــج أشـــكال تراثهم مع الحداثة بأشكال مختلفة مهجنة "**لأشكال الحداثـــة**". وتـــستند هـــذه التأكيدات على عدد من الافتراضات؛ ليس أقلها وجود ميلاد حداثة أصيلة فى الغرب، ويختلف ذلك الغرب بشكل له دلالة عن باقى العالم رغم أنه يستطيع التمتع بالحداثة الأصيلة؛ فإن كل شخص آخر يفعل هذا مع النسخة المهجنة. وفى ضوء ذلك يستخلص جاونكار رأيه مؤكدًا على أن الحد الأدنى يـــستلزم التفكيـــر فـــى ســـياق أشـــكال الحداثـــة البديلـــة للاختيـــار "الثقـــافي" a 'cultural'، الذى يختلف عن التثـــاقف 'acultural' بـــالمعنى الـــذى قدمـــه تايلور (1999) taylor، ومن ناحية ثانية، سوف أفترض أن ذلك يظل مرتبطا داخل مجموعة المشكلات مثل التى ينتقدها جاونكار بقوة إلى هذا الحد.

ويعتقد تايلور أنه لا يمكن تقديم فهم أفضل للحداثة فى ســـياق كونهـــا "**موجة أحادية**"؛ لكن بالأحرى، كثقافات "تضطلع بممارسات جديدة" "تتحـــول للاختلاف فى أساليب مهمة عن بعضها الآخر"، بافتراض أنه من الأفـــضل الحديث عن أشكال حداثة بديلة، أكثر من مجرد "**حداثة**" (233 :1999). وثمة مشكلة، تتعلق برأى تايلور مفادها: أن أكثر إدراك شائع للحداثة فـــى ســـياق نظرية "**التثاقف**" التى تميز التحولات للغرب الحديث فـــى ســـياق" رشـــد أو عملية اجتماعية التى تكون ثقافة – حياد" (172 :2001). وأُدركت الحداثة هنا كمجموعة من تحولات استطاعت الظهور فى أى مكان؛ وليست مميزة لأى ثقافة خاصة. ويعتقد أنه ما لم يتم بحث تساؤلات عن الهوية الغربية فى هذه

العمليات " سنفشل الآن في رؤية ثقافات أخرى مختلفة، وكيف يمثل هذا الاختلاف ظروفًا حاسمةً للأسلوب الذى تتكامل به السمات *العالمية* للحداثة *بدقة*" (التشديد من عندي، 180 :2001). ويفترض أن هذا أمكن معالجته من خلال "**الثقافي**"، وتؤكد نظرية الحداثة *الخصوصية* للثقافات والأهمية لوضع نشأة الحداثة داخل "**تعقيدات ثقافية**" معينة، ولقد كتب يقول:

يريدون فعل ما حدث في الغرب؛ لكنهم يرون، أو يشعرون: أن ذلك لا يمكن أن يكمن في مجرد النسخ لأشكال التكيف مع الغرب.. إن مجرد سيادة الحداثة الغربية لا يمكن أن تكون الاستجابة. (233 :1999).

ما يلمح له تايلور taylor –من ثم – وجود "ملامح عالمية في الواقع" للحداثة، وظهرت هذه الملامح من الغرب، ويوجد احتياج لفصل هذه الملامح بعيدًا عن تلك؛ حيث يمكن أن نرى بوضوح أكثر: كيف تمتلك ثقافات غير غربية توطين، أو تدجين، هذه الملامح؟

وسأسعى خلال هذا الكتاب إلى الوقوف في مواجهة فكرة العمليات المنفصلة التي يمكن أن تكون محددة جغرافيا. وتشكل الأفكار عن الاختلاف والقطيعة أشكالا للجدل حول الحداثة التي يمكن أن ننظر لها "**كمقولات تأويلية**"، ويتم وفقًا لها تشكيل "**انسجام**" و "**تكامل**" لخبرات معينة بالتجريد من ترابطات أوسع. ويجذب برونو لاتور Bruno latour الانتباه في كتابه إلى شيء ما متضمنًا هنا، مفاده *أننا لم نكن مطلقًا معاصرين*. ويقدم لاتور –هنا – علم الأنثروبولوجيا ليناقش فكرة استمرت –عمومًا – تقول: إنه مع نشأة العلم، كان العالم الحديث لا يستطيع التراجع في مواكبة وجوده. ويناقش لاتور الفكرة عن القطيعة المؤقتة المفترض أنها مكملة لأغلبية إدراكات الحداثة، ويجدد إدراكاتنا لنشأة العلم ليطور حججه. ويشير إلى عمل شابين وشافر عن بويل

وهويز Boyle and Hobbes ليوضح كيف أنتجت اختلافاتهم الخاصة إبداع "علم، وسياق، وتعيين حدود بين الاثنين" (1993:16) وبذلك فقد مثلت الحداثة ذلك الشعار "**الانقسام العظيم**". ويفترض هنا أن المحاولات التي شكلتها تصورات بويل وهوبز لعالمية "**القوانين**" والسياسات يمكن رؤيتها بوصفها ظواهر متميزة، فشلت في إدراك أن لا العلم ولا السياسات كانا منفصلين عن شبكات ممارساتهم (1993:24). ونأخذ النزاع بين بويل وهوبز مثالا توضيحيًا لكيف يحدث الانقسام العظيم بين "**الحداثيين**" و"**الآخرين**" وكيف يبدأ في تفسير كل شيء بمقتضى تجاهل، أو حتى تجنب فعّال لما كان في المنتصف.

ويذهب لاتور إلى أن الحداثة "مثل لوازمها المضادة للحداثة، وما بعد الحداثة – كانت نتيجة شرطية لاختيار شكل عدد صغير من الممثلين باسم "الكل" (1993:76). ونصل بتغيير التصنيف إلى مبدأ "اختلاف مؤقت على أساس الأحداث نفسها" (1993:75)، ومن ثم – في الواقع – لم نتحرك مطلقا للأمام أو إلى الخلف؛ لكن وقعنا ببساطة في فخ عملية للتصنيف وإعادة التصنيف – و"نحن ما زلنا نستطيع التصنيف...– بالعودة إلى كينونات متعددة اجتازت دائما طريقا مختلفا" (76 :1993). ووفقًا للاتور لسنا مختلفين راديكاليا مع كل "**الآخرين**" ولا هم مختلفون معنا، ويتساءل: لماذا "نحب تحويل الاختلافات الصغيرة بالقياس لما يجمعنا إلى أحداث لحالات درامية ضخمة؟" (1993:114). ويناقش –بدلا من ذلك – ما يتعلق بوجود" أساليب متواصلة من المحلي للكوني، ومن التفصيلي إلى العمومي، ومن المحتمل إلى الضروري" (1993:117)، وتتألف تلك الأساليب من "شبكات إشعاعية من الممارسات والوسائل، ومن الوثائق والترجمات" (1993:121).

يكتب لاتور –خلال سياق مناقشته – "قد يعتقد الغرب أن النزعة العامة عالمية حتى في غياب أي منفعة، وأي حسابات، وأي رموز، وأي تحليل،

تماما، مثل: بيمين كوسكومين Bimin-Kuskumin من غينيا الجديدة التى قد يعتقد أنها تشكل الإنسانية جميعها؛ لكنها تمثل معتقدات جديرة بالاحترام؛ حيث أجبرت الأنثروبولوجيا المقارنة بالمشاركة فيها منذ وقت قريب" (120 :1993). وتكمن المشكلة –من ناحية ثانية – فى أنه بينما لا يعتقد أحد آخر أن بيمين كوسكومين يشمل الإنسانية كلها، وتعتقد أغلب البشرية أن الحداثيين حداثيون، ولا يفسر لاتور هذا فى أى مكان من كتابه. وندرك بالمناقشة أننا حيث كنا دائما؛ لكن فشلنا فى رؤية تكويننا غير الحداثى أيضًا، ويتحدث لاتور أساسًا للغرب عن ذاته. وبقدر ما يكون نقدًا لذات الغرب – بقدر ما ينفصل مفهوم الذات، ويعتقد أنه تكامل دائمًا داخل شبكات وارتباطات، ويظهر أنه يفترض –رغم ذلك – أن معرفة الغرب بذاته تطورت فى عزلة عن تلك المجتمعات المحلية الأخرى. وإذا كان كل شىء علائقيًا وارتباطيًا –كما يؤيد ذلك – فهل كان ممكنا للأوروبيين حقيقة امتلاك فكرة علم مختلف إلى حد بعيد؟

(٣)

ارتبطت "**سياسة إنتاج المعرفة**" –المتضمنة فى مناقشاتى – بشكل متكرر مع أزمة فى الإنسانيات والعلوم الاجتماعية كانت أكبر من معايير هذه العلوم الراسخة، أو أكبر من عالمية مقولاتها. ومن ناحية ثانية، لا تكون نقطة بداية "**الأزمة**" للعلوم المختلفة أو لمفاهيمها – مدلولاتها؛ لكن أزمة فى "**تواريخ العالم**": أزمة فى العالم المستعارة منه هذه الفروع للمعرفة والمفاهيم (trouillot 1991:38). ويمثل الصمت عن المواجهات الاستعمارية جانبا واحدًا للسرد الأوسع حول السيطرة العالمية، وهو سرد سيستمر –وفقا لترويلوت– "ما دام تاريخ الغرب لا يخبرنا من جديد عن الوسائل التى تقدم برّهانا عن

رؤية للعالم" (1995:107) وتشكلت النظرية النقدية إلى حد بعيد - كما سأناقش - حول أفكار التحول الاجتماعى Social transformation - مثل نزعة ما بعد الاستعمار وبصفة خاصة العمل النظرى عن الجماعات المهمشة أو الهامشية Subaltern - مفترضا تأسيس وجهة نظر موقفية تتصدر التحول الاجتماعي. ومن ناحية ثانية؛ فإننى أفترض أن من الأفضل إدراك وجهة النظر الموقفية النقدية إلى حد بعيد كإنقاذ بعد التحول بدلا من كونها تأخذ الصدارة[٢]. بكلمات أخرى، تُشتق من مواقف شكلتها حلول للمشكلات، بدلا من مواقف تشكل المشكلات (Holmwood and stewart 1991). سأعود لهذا فى فصول لاحقة.

ويصل الأمر إلى مداه فى العلاقة بين الأحداث التى تخضع للدراسة وإقرارها العام داخل سياقات تاريخية معينة (trouillot 1995:147). وبينما قُبِلَتْ عمومًا بأى معنى؛ فمن المعروف أنه يجب أن يتضمن تسليمًا بالحاضر، وإنه قبول أقل عمومية مما يثبت بالدقة التاريخية، وكما يذهب ترويلوت: "ليس على الإخلاص للماضى المزعوم؛ لكن على الأمانة فى مواجهة الحاضر كما يتم إعادة التمثيل لذلك الماضي" (1995:148). وعلى المنوال نفسه رأى سعيد Said أيضًا: إن الاحتكام إلى الماضى - على سبيل المثال - والخلافات حول ما حدث، والمناقشات ما إذا كان الماضى يستمر فى الحاضر وإن يكن فى أشكال مختلفة - "يشكل جوهر الاستراتيجيات الأكثر شيوعًا فى تفسيرات الحاضر" (1993:1). إن التركيز على "**الماضي**" كحقيقة ثابتة معروفة، ومفهوم المعرفة المرتبط كمحتوى ثابت، "يحولنا من مظالم الحاضر لما وضعت أساسه الأجيال السابقة" (trouillot 1995: 150). ويكون فقط فى علاقة حاضرنا بالماضى الذى يمكن أن يكون حقيقيا أو زائفًا لأحداث الماضى التى نسلم بها، ويكون المعنى بالنسبة للتاريخ أيضا فى غايته. ويرى سعيد -إلى هذا الحد -

"أننا يجب أن نحافظ على ما هو أمامنا من امتيازات الحاضر كمعالم ونماذج لدراسة الماضي.. ليس لمستوى أو خفض الاختلافات؛ لكن بالأحرى لتوصيل إحساس أكثر إلحاحًا للتساند بين الأشياء" (1993:72).

ورغم أن الإمكانات للافتراضات التى نتبناها فى هذه المحاولة البحثية لا حدود لها؛ فإنها لا تكون جميعها فى متناول اليد. فتاريخية الحالة الإنسانية، التى وُلِدنَا وفقًا لها فى محادثات سابقة على الوجود بالنظر لأحداثنا الماضية وأحداثنا الحاضرة، تشكل بالضرورة الأوضاع التى منها نفكر ونجادل. ولا يعنى هذا أن أى موقف مسموح به، ولا تحتاج المواقف أن تكون خالدة لكى نبرر دفاعًا شرعيًا؛ لكن بالأحرى يتطلب صدق التمثيلات التاريخية والتأسيس *لعلاقة* ما بتلك المعرفة. ومن الأهمية بمكان أن ننظر أبعد من إدراكاتنا للتاريخ لنميز، عما إذا كان التاريخ قد **"حدث"** ولذلك **"يبقى حقيقة"**، ويترتب على ذلك أن تفسيراتنا لما حدث تملك المكانة نفسها. ويرى هيدن وايت Hayden White (1978:3): أن الخطاب التاريخى ذاته هو الذى يشكل ما نعده حقيقة وما يحدد نمط فهمها، من ثم يمكننا من إدراك هذه الحقائق. كما يقول وايت: "لا أحد يفترض أن مجموعة من الأحداث التاريخية العرضية المسجلة تستطيع فى حد ذاتها تشكيل قصة" أو تاريخ؛ فأكثر ما يقدمه المؤرخ *يشكل عناصر* قصة عن طريق كتمان أو التقليل من أهمية عناصر معينة منها وإلقاء الضوء على أخرى" (1978: 84). وحتى علوم التأريخ Chronologies "أكبر من كونها تسجيلا للماضى بتأثير المؤرخ فهى أكبر من كونها سردًا يشيده (أو تشيده) على أساسها" (White , 1978: 56). وهكذا فإن التاريخ ليس ببساطة تسجيلا "لما حدث"؛ وإنما هو تسجيل لما اعتقدنا أنه حدث – مشروط بمعايير للمجتمعات المحلية التى تشكلت فيها هذه الادعاءات – وبما يستلزم بالضرورة أشكالا لعدم الدقة وصورًا للصمت.

يجب ألا يؤدى بنا قبول الماضى كبنيـــة، ووجـــود تفـــسيرات جمعيـــة للأحداث، إلى استنتاج أن أى سرد تاريخى ببساطة هو محض خيال. وإذا مـــا أخضعنا ذلك لمعيار علمى فسوف تُعْتَبَر هذه التفـــسيرات غيـــر موضـــوعية تاريخية، أو اكتشاف "المعرفة التاريخية الحقيقية"؛ لكننى ســـوف أفتـــرض أن *المعقول* وعلاقته بظروف إنتاج التاريخ تجعل -كما يقترح ترويلوت - بعض أشكال السرد أكثر قوة من أخرى إذا ما وضعت فى ضوء معايير التاريخيـــة فى حد ذاتها (6 :1995). ونلاحظ أن ما لم نقله هنا: إن هـــذا يجعـــل بعـــض أشكال السرد أكثر "صدقًا" من أخرى، وبالأحرى أكثر قوة. ولا يكمن الأساس لقوتها -أبعد من ذلك - فى صدقها أو كونها "**أفـــضل**" تمثيلا؛ لكن فى القبـــول العام *للادعاء* بأنها كذلك. وبينما يسلم عديد من المنظرين أن التاريخ يتـــضمن كلاً من العمليات الاجتماعية وأشكال السرد لتلك العمليـــة، يبحـــث الـــبعض بالتفصيل فى الإنتاج الواقعى لأشكال سرد معينة (Trouillot 1995: 22).

(٤)

يستند التأكيد الرئيسى لهذا الكتاب على الفهم التالي: إن الأسلوب الـــذى نفهم به الماضى يشتمل على مضامين للنظريات الاجتماعية؛ التى نطورهـــا لمعالجة المواقف التى نعيش بها اليوم. وعبر فهم تشكل "**الآخر**" فى علاقتـــه الوجودية بالحاضر فى التاريخ والذى يشارك فى إنتاجه وتدوينه، نستطيع أن نبدأ فى إعادة تصور أشكال الخطاب النظرى والممارسة السياسية اليوم. فإذا تنبأت النظرية بدرجة كبيرة بفكرة التميز الأوروبى فسوف يكون ذلك مثيـــرًا للجدل وعلى قمة غايات النظرية تقريبًا. ويؤدى بنا ذلك إلى أن نطور رؤية النظر للعالم مرة ثانية ولنبدأ فى تشكيل صور جديدة للمستقبل.

يَنْصَبُ القسم الأول من هذا الكتاب على كل من التحولات العامة في أشكال التراث الفكرى الأوروبى أثناء القرنين ١٨، و١٩ إضافة إلى الانتقادات المعاصرة. ويركز على ظهور النزعة الفكرية لما بعد الاستعمار ويناقش هذا في سياق التحدى الذى يضعه لقياس النظرية الاجتماعية. وينصب الفصل الأول إلى حد بعيد على غياب المواجهات الاستعمارية من العلوم الاجتماعية، ومضامين بنية "**النظرة الاستعمارية**" بصفة خاصة. ويتجه هذا الفصل من ثَمَّ إلى عرض تفاصيل تأريخ التهميش والتساؤل عن منهجيته. وينتهى بمناقشة "**التواريخ المترابطة**" (Subrahmanyam 1997) ويقترح هذا الاتجاه كأسلوب للتعامل مع الاختلاف في السياق محاولة للتوفيق بين المقولات العامة والخبرات الخاصة. ويركز الفصل الثانى على تاريخ علم الاجتماع وتطوره اللاحق كعلم. ويَنْصَبُ على مفكرى التنوير الفرنسي والأسكتلندى الذين نُظِرَ إليهم بصفتهم مبشرين بتطور علم الاجتماع، ومن ثَمَّ ناقش تأسيس العلم ما بعد الفترة الثورية "**الفرنسية**". ويشير هذا الفصل -بصفة خاصة - إلى الأساليب التى يشكل بها علم الاجتماع فهمه لظروف نشأته ومضامين تشكل الأساليب التى نعرف بها العالم اليوم. ويهتم الفصل الثالث في هذا القسم بشكل أكثر تفصيلا بالتشكل السوسيولوجى للحداثة ويتتبع التطور من نظرية التحديث إلى حداثات متعددة. ويركز على امتداد التحدى الذى طرحته حداثات متعددة للنموذج المبكر للتحديث إضافةً إلى تحديد هوية أشكال التواصل بينهم. وينتهى هذا الفصل بمناقشة للمنهج الذى يعزز الاتجاهات على حد سواء - علم الاجتماع المُقارن والنماذج المثالية - ويطور أسلوبًا بديلا لمعالجة التساؤلات عن الحداثة عن طريق فكرة "**التواريخ المترابطة**" التى قُدِّمَتْ في الفصل الأول.

يبحث القسم الثانى للكتاب أشكال الخطابَ المهيمنة حول الأحداث التاريخية المفتاحية التى أُشيرَ إليها فى تشكيل "**الحداثة**" – النهضة الأوربية والثورة الفرنسية، والثورة الصناعية – ويناقش إلى أى مدى وصلت الادعاءات التى تشكلت من جانبها للاقتراب من التدقيق. ويعترض الفصل الرابع على أشكال الخطاب المهيمنة التى افترضت النهضة كونها بشيرًا لنشأة فكرة أوروبا المعاصرة واندماجها، والادعاءات المرتبطة بظهور أوروبا كونه وجودًا متماسكًا، مستقلا فى هذا الوقت. ويهتم الفصل الخامس بتصور دور الثورة الفرنسية فى نشأة الدولة – الأمة المعاصرة وإبداع المشروع السياسى للحداثة. ويبحث الفصل السابع التطور من مجتمع تجارى إلى مجتمع رأسمالى، ويناقش جانب القطيعة المزعوم للثورة الصناعية التى رُئيت بصفتها بشيرًا للتمييز بين ما قبل الحداثة Pre-modern والحداثة modern. وأكثر من ذلك؛ فإنه يوجه اهتمامه للادعاءات التى جعلت هذه الظواهر تُرَى فحسب كظواهر أوروبية داخلية ويناقش المضامين لنقد هذا من أجل التحليل التالي. وسوف يرجع الفصل الأخير من ثم ليركز على التساؤل عن الحداثة وعلم الاجتماع **فى ضوء** "نظرية نزعة ما بعد الاستعمار **والتواريخ المترابطة**".

الجزء الأول

علم الاجتماع وتاريخه

الفصل الأول

الحداثة والنزعة الاستعمارية ونقد نزعة ما بعد الاستعمار

سوف أناقش –فى هذا الفصل – نشأة نزعة ما بعد الاستعمار ما بعد النزعة الاستعمارية وطبيعة التحدى المطروح للاتجاهات المعيارية للنظرية الاجتماعية. وأبدأ بالتوجه للعلاقة بين الاستعمار وسياسات إنتاج المعرفة، بالنظر –بصفة خاصة – للعمليات التى عن طريقها أصبح هناك إقرار لأشكال خاصة للمعرفة العلمية فى ظل الاستعمار والتهميش المصاحب للأشكال "**الأخرى**" للمعرفة. وسوف يتبع هذا مناقشة لنشأة دراسات لاحقة كالظهور الخاص للتأريخ المنطلق من نزعة ما بعد الاستعمار. وغالبًا ما تكون منطلقات هذه الدراسات ذات أسلوب واحد؛ حيث ينشد الأكاديميون استخلاص الذاتية للتهميش السابق؛ لكن هذا لا يشكل مجازفة لا تثير الشك. وأفترض هنا أن رؤية النظرية التى نحن بصددها –من ثَمَّ – هى محاولة تميز خبرات خاصة ومقولات عامة أفادت بشكل أفضل من خلال اتجاه بديل؛ أحدها يبنى على فكرة "**التواريخ المترابطة**" (Subrahmanyam 1997)؛ فقد ناقش هذا الرائد المحاولات التأريخية المختلفة للاعتبارات السوسيولوجية المعيارية، التى سوف تُناقش فى الفصل التالي.

وينبغى عدم إدراك نزعة ما بعد الاستعمار ببساطة كنسخة متأخرة للانشغال النقدى فى الفكر الاجتماعي. ويناقش كوامى أنتونى أبيا Kwame Anthony Appiah: إن " مقطع *Post* فى كلمة **"Post-colonialism"** مثل مقطع *post*

فى جملة"post-of the space- clearing gesture على أنه يتعلق " بما بعد الإشارات الواضحة للمكان" (348 :1991). إنه ما بعد، الذى يجب أن يُدرَك ليس ببساطة بتعبيرات مؤقتة؛ لكن أيضًا كعلامة للحركة التصورية التى تتجاوز الإدراكات النظرية الموجودة للعالم. وتعمل اتجاهات نزعة ما بعد الاستعمار -من ثَمَّ – لتتحدى السرد المهيمن ولتعيد تشكيله للإمداد بمزيد من المقولات الملائمة للتحليل؛ حيث تُقاس الكفاية فى سياق تزايد المضامين، ويكون موجها "للخلف" إضافةً "للأمام". وتنشد نظرية نزعة ما بعد الاستعمار بوضع وتأسيس صوت للصامتين حتى اليوم داخل التاريخ والمجتمع، وتنشد نظرية ما بعد النزعة الاستعمارية حل التساؤلات المتضمنة والمستبعدة وتشكيل علاقة واضحة بين المعرفة والسياسات "فى سياق محدد؛ لدراسة قضية التهميش، وظروفها التاريخية" (Said 1978:15). ويقدم نقاد نزعة ما بعد الاستعمار فى مناقشة للسلطة السياسية والاجتماعية -من ثم – شهادة ليس فقط لتفاوتات الحداثة؛ لكن لظروفها التاريخية أيضا (Bhabha 1992).

لقد ذهب نيكولاس جاردين Nicholas jardine ([1991]2000) إلى أننا نحتاج فهم العلوم بوصفها أسئلة موجهة ومشكلات تنشأ فيما يطلق عليه "**مشاهد بحثية**" أى مشاهدة السياقات الخاصة والمحيطات التى تعمل فيها العلوم التى منها تشتق معانيها. ومن ثم فسوف أعالج – فى هذا الفصل- علاقات المستعمرات بوصفها مكملة لمشاهد بحث العلوم الاجتماعية. ليس كل شيء -من ناحية ثانية – وثيق الصلة بفهم الإنتاج المعرفى الذى يأخذ مكانًا واضحًا كجزء من *إخراج المشهد*. كما سوف أفترض طوال هذا الكتاب، أن النزعة الاستعمارية colonialism هى اتجاه حاسم لمشاهد البحث حيث العلوم الاجتماعية المعاصرة ولا تزال -مقارنة بالجزء الأعظم – بدرجة كبيرة خارج مجال بصيرتهم.

(١)

وعن مشهد اللقاء الاستعماري؛ فإنه لم يكن لقاءً بقدر ما كـان غـزوا وهيمنة ودهس للناس وأساليب حياتهم، هذا المشهد يؤسس لفروع المعرفة إلى حد بعيد التى تعبر لإدراك الحداثة أو تسعى إليها. إن خبرة المستعمرات -فى السياق العالمى - هى خبرة ازداد فيها الاتصال ووسـائل الاتـصال بـين المجتمعات الإنسانية والثقافات. وقد نتجت التفاعلات الاجتماعية مـن هـذه العملية التى حولت راديكاليا تشكيلات (ملامح) ما هو معلوم وكيـف كانـت معرفته. ولم يكشف الفتح البريطانى للهند -على سبيل المثـال - جغرافيـة المنطقة من أجل الاستكشاف والاحتلال فقط؛ لكن أيضًا مكّن التحـول مـن الحيز المعرفى عن طريق -كما يناقش ناندى Nandy - "إحداث الاسـتعمار لقبول أشكال اجتماعية وإدراك مقـولات جديـدة"(1983:3,Cohn1996). ولا يستطيع أى نقد للاستعمار -من ثم - الاستناد فقط على تسجيله للاسـتغلال الاقتصادى والمعاناة الإنسانية؛ لكن يجب أيضا توجيـه الاهتمـام لأنمـاط الإدراك التى أصبحت جزءًا لا يتجزأ فى الأفعال والتمثـيلات الاجتماعيـة خلال عملية الاستعمار (Mignolo 1995).

ويكون هذا الفهم فى أعماق الأعمال العلميـة عـن طريـق هـؤلاء المندمجين فى حركات مضادة للاستعمار، مثل: فرانزفـانون frantz fanon، وإيمى سيزيرى Aimé Césaire، وألبرت ميمى Albert Memmi والتى تبناها المنظرون اللاحقون من أنصار نزعة ما بعد الاستعمار. ويخاطـب مؤلـف فانون *الجلد الزنجي، والأقنعة البيضاء*، على سبيل المثال "مـستودع العقـد المركبة الذى تطور عن طريق بيئة المستعمرات" ويذهب إلـى أن مـشكلة

النزعة الاستعمارية لا تستند فقط على علاقات متبادلة للظروف التاريخية الاستثنائية؛ لكن أيضا على سيكولوجيات (اجتماعية) ناتجة عن طريق هذه الظروف (84 ,30 :(1952) 1967). ويناقش Nandy (1983) بشكل مماثل - رُغم قبول أهمية الاقتصاد السياسي للاستعمار- من أجل إدراكه في سياق إخضاع العقول إضافة للأجساد. ويفترض ناندي: إن في عهد الاستعمار، أصبحت تلك الفكرة عن الغرب المعاصر معممة "من وجود جغرافي ومؤقت لمقولة سيكولوجية" (Nandy 1983:11). ويذهب إلى أنه نظرًا لأن النزعة الاستعمارية -أيضا - مسألة وعي؛ فإنه يحتاج للهزيمة في عقول الناس. وتبدأ المقاومة للنزعة الاستعمارية -من ثم - بدقة فقط حينما يصبح الناس "مشاركين في مغامرة أخلاقية وإدراكية في مواجهة الاضطهاد" (1983:14). ويبدأ هذا التحرر بالضرورة مع المستعمَرين رغم ذلك؛ فإن التحرر يجب أن يتضمن المستعمِرين. ويضيف ناندي: أنه ينبغي إدراك الحرية في حد ذاتها بوصفها لا تتجزأ؛ "ليس فقط بالحس الشعبي بأن المقموعين في العالم هم شخص واحد؛ لكن أيضا بالحس غير الشعبي بأن القامع -أيضًا - يُدرَك في ثقافة الاضطهاد" (1983: 63).

وتمفصل هذا الفهم في مهمة غاندي Gandhi لتحرير البريطانيين- بقدر ما يريد الهنود -من عبودية الاستعمار، وعبر عن ذلك نشطاء وعلماء بارزون مقاومون للاستعمار عبر العالم. فقد لاحظ سيزيري Ce'saire ([1955]1972) -على سبيل المثال - أن تأثيرات تجرد النزعة الاستعمارية من الإنسانية قد نالت كلا من المستعمَر والمستعمرين ونادى بالخلاص الأوروبي جنبًا إلى جنب التحرر للأمم الإفريقية. واهتم ميمي Memmi

(1965[1957]) بالمثل بتأثيرات الموقف الاستعمارى على كل من مرتكبيه وضحاياه واعتبر النزعة الاستعمارية كمرض أوروبى مميز فى احتياج يائس للعلاج؛ ورغم استخدام الإطار الفردى لعلم النفس؛ لم يعتقد كل من فانون وميمى أن الحل لهذا "**المرض**" كان- أو أمكن- أن يكون فرديًا؛ لكن بالأحرى الدفاع عن الحاجة إلى نضال اجتماعى؛ لتصحيح هذه العلاقات المشوهة. لقد كتب فانون -بصفة خاصة - مشيرًا إلى أن إنهاء العالم الاستعمارى لم يكن حول تأسيس *المنطقتين* - اللتين استعمرتا سابقًا والمستعمرين السابقين - لكن بالأحرى، إلغاء أحدهما العالم الاستعمارى وإعادة البناء اللاحق للعلاقات التى دعمته (1968 [1961]: 41, 1967 [1952]:82).

إن مناقشة فانون لصالح تفكيك الازدواجيات الإبستمولوجية المفترضة فى تشييد عالم المستعمرين يختلف راديكاليًا بالنسبة لهؤلاء الذين استعمروا والذى وجد تعبيرًا معاصرًا فى النقد الثقافى لهامى فابا Hami Bhabha (1994)، وفى نص إدوارد سعيد Edward W. Said (1978) المؤثر حول *الاستشراق*[1]. ويكون "**الاستشراق**" -بالنسبة لسعيد - "خطاب القوة الذى ينشأ فى عهد الاستعمار"، وهو خطاب فيه هؤلاء الذين كتبوا حول عدم "إدراك أنفسهم بصفتهم كائنات بشرية أو مراقبيهم باعتبارهم علماء ساذجين" (1995: 345). ويستند نقده اللاذع للمفهوم (وممارساته المرتبطة) على الحقيقة أن "اتجاهاته المتغايرة، والدينامية، والواقع البشرى المعقد من وجهه نظر ماهيويه غير نقدية"، وبمرور الأيام تشكّل "**الشرق**" و "**الغرب**" كاختلاف وتميز أنطولوجى وإبستمولوجى (1995: 333).

وتوجد أهمية لإدراك أشكال القوة والسيطرة الثقافية التى مكنت الشرق ليس فقط *لاكتشاف* كونه شرقيًا، لكن أيضا لتأكيد أنه *شكّل* شرقيته – أعنـــي، العلاقات بالاستعمار والهيمنة الإمبريالية التى امتدت فى الأغلبية الضخمة من العالم فى ذلك الوقت (Said 1978:6,7,41). ويخفى مفهوم الاستشراق –كما يناقش سعيد– الأحداث التاريخية والتغير التاريخى فى الوقت نفسه؛ كما يحجب *مصالح* هؤلاء المتضمنين فى استدامته. **"لنكون" "شرقيين"** فلن يكـــون مـــن السهل الإقامة فى منطقة جغرافية خاصة، لكن كان/يكون أيضا رأيا تقييميـــا فى أن الشخص كان/ يكون – من ثم أيضا – عضوًا فى ســـلالة خاضـــعة (1978:92). ولا يبتعد ذلك المفهوم للاستشراق مطلقًا– فى حد ذاتــــه– كمـــا يفترض سعيد، عن فكرة أوروبا ذاتها فى ذلك التحديد **"للآخر"** التـــى تكـــون أيضًا جانبًا لإدراك الذات (1978:7).

ومن ثم فقد أدى تصوير التمييز بـــين الـــشرق والغـــرب إلـــى دعـــم الادعاءات النظرية، والأعمال الأدبية، والتحليلات الاجتماعية، والمحـــاولات السياسية إلى حد أنها كانت من دون بحث الاستشراق خطابًا بأننا فى خطـــر من استدامة وظائفه العلمية واستمرارية إعادة إنتاج مقولـــة "الـــشرق" دون تفكير. ويمكن أن يكون "الاستشراق" –بهذه الطريقة – كما ســـوف أنـــاقش –بمعنى سعيد – سمة لمقولات علم الاجتماع حتى حينما لا يكون "الـــشرق" هدفًا واضحًا للاهتمام. ولنتخذ الأدب مثالا، نوقش هو التفسير العام للـــشرق والغرب باعتبارهما وجودًا منفصلا ومرتبطًا كما قُدِّمَ مثالا لذلك فى تعبيـــر روديارد كبلنج Rudyard Kipling: "عجبًا، الشرق هو الشرق والغرب هـــو الغرب، ولن يتقابل الاثنان مطلقًا" (الاقتباس من Narayan 1998: 89). وكتب كبلنج، كما أشار نارايان (1998): هذه السطور فى لحظة تاريخيـــة حيـــث الشرق والغرب كانا منشغلين في مواجهة جدية طويلة –أعنى – الاستعمار.

(٢)

دعونا نفترض أن العلاقة الاستعمارية شكلت واحدة من العلاقات الجوهرية بين أوروبا وافتراضاتها عن "**الآخرين**"، ولا يزال يوجد – كما يفترض هانسن Hansen – عمل نظامي قصير جدًا أُجْرِى على التساؤل عن الهوية الأوروبية فى السياق الاستعمارى (484 :2002)، وقد نُظِرَ إلى هذه العلاقة كالمعتاد فى سياق *تأثيرات* أوروبا على المستعمرات – أى الأفكار التى تدور حول "الانتشار الغربى والسلبية المحلية" (Arnold 2000:13)– أو افتراض الاستعمار كوجود موازٍ للأحداث فى أوروبا؛ ولكن دون علاقة واضحة بها. ويدرس باجدن pagden– على سبيل المثال –تشكل الدول الأوروبية ليضعها فى سياق الوجود *المصحوب* بـ "تشكل الإمبراطوريات الأوروبية المعاصرة عبر البحار (2002:10)" ؛ لكنه لم يلمس تأثير تلك المستعمرات على تنمية الدول الأوربية نفسها خاصة المعاصرة. ويعتبر كيرنان Kiernan بالمثل– باستثناء قليل من التسليم للاستعمار مقررًا فى نهاية المقال عن الهوية الأوروبية– أن "أيا كانت أوروبا؛ فإنها تدين *جزئيًا* لمحاولاتها الإمبريالية (التشديد من عندى 60 :1980). ومن وجهة نظرى فأيًا ما تكون أوروبا؛ لا يمكن إدراكها *خارج نطاق* علاقاتها الإمبريالية. وكما يشير سعيد (1986)، إلى أن المعاناة من "الخسارة"، تطلبت من المُستعمَر أن يأخذ فى اعتباره الفاتحين الأوروبيين وفترة الإخضاع؛ بينما تلقى "**الفوز**" يجعل أوروبا تستطيع اختيار التجاهل للمشروع الاستعمارى كحدث عرضى للتاريخ مُسلَّم به، وفقا لإرادتها. وإن اللاتماثل –هنا – يبدو لافتا للنظر:

> *"نحن نفترض من ناحية أن التاريخ بأكمله فى المناطق الاستعمارية كان دليلا على التدخل الإمبريالى، ومن ناحية أخرى: يوجد افتراض قوى بأن الشروع فى الاستعمار هو ظاهرة هامشية، وربما حتى لا مركزية للأنشطة المركزية للمراكز الميتروبوليتانية العظيمة (Said 1986:58-9)".*

بينما ترفض الفكرة المعاصرة للتاريخ "أن المستعمرين على الأقل قد تأثروا بأيديولوجية الاستعمار" على القدر نفسه للذين استعمروا؛ فالقبول الضمنى للتفوق الثقافى للقوى المستعمرة، على ما يذهب ناندى Nandy يعنى أن ما نحتاج التسليم به هو الأساليب التى يتحول بها القامع والمقموع إلى ضحايا مشاركين معًا عن طريق مواجهاتهم (99 ,30 :1983). وليست المسألة هنا أن جانبًا واحدًا يكون "مشاركًا الضحايا" **فقط**؛ بل إن "مجتمعات (ما بعد) الاستعمار اعتمدت على كلا الجانبين" أيضًا (31 :1998)(٢). ويكون هذا التعقيد مفقودًا فى أغلب الملاحظات حول الاستعمار، كما يستشهد كيبلنج فى الجزء السابق؛ حيث يسلم باتجاه التأثير أساسًا من المستعمرين إلى المُستَعْمَرين.

فى حين برر مفكرو القرنين ١٨، ١٩ الليبراليون والتقدميون الاستعمار فى الهند؛ لأنه يعمل على إنشاء تنوير ثقافى فى البلاد، أو بوصفه يعجل بتنمية الرأسمالية المعاصرة ونشرها فى الطريق للمراحل المرغوبة للحكم الذاتى الليبرالى (مثلما عند ماركس. والكتاب اللاحقين، والشيوعيين)؛ فقد رفض المفكر المحافظ إدموند بيرك Edmund Burke قبول هذه المبررات للإمبراطورية. وكان واحدًا من مجرد أصوات قليلة فى المركز العالمى الذى يرثى فى وقت واحد تأثير الاستعمار على حريات المستَعمَرين والتأثير المشوه للاستعمار على التراث السياسى البريطانى والحريات (انظر Mehta 1999)(٣). وليس من المدهش أنه كان صوت أقلية فى ذلك الوقت؛ لكنه يجب أن يمنحنا سببا ما للاهتمام بتلك المسائل التى انشغل بها -أعنى العلاقة بين المستعمرات والمركز الإمبريالى - التى قلما يُهتَم بها، وحين يُهتَم بسهولة أيضا يُصرَف النظر عنها. كما يناقش ميتا Mehta هذا: "التجاهل واضح فى كل من النظرية السياسية التاريخية والعلم المعيارى المعاصر" (5 :1999).

ولقد كان كل من: كولى Colley (1992, 2002)، وكانــادين cannadine (2001) من البارزين وسط المؤرخين البريطانيين فــى الانــشغال بأهميــة الإمبراطورية لتشكل الهوية البريطانية والعكس؛ إلا أن وجهة النظــر التــى عبّر عنها رونسيمان Runciman (1997) فى أطروحته ذات الثلاث مجلدات عن النظرية الاجتماعية مازالت أكثر نموذجية. ويناقش رونــسيمان - فــى دراسة الحالة التى أجراها للمجتمع البريطاني- أن أفول الإمبراطوريــة ذو دلالة قليلة لفهم بريطانيا فى القرن العــشرين. وفيمــا يخــصه، فــإن زوال الإمبراطورية كان دون شك زاخرًا بالأحداث "لهؤلاء الذين تأثرت حيــاتهم مباشرة به"، وينسحب الشيء نفسه على المجتمعات الإفريقية والهندية التــى اجتازت خبرة التحرر من الاستعمار decolonization ، وهو يذهب إلى أنــه لا يوجد تأثير ذو مغزى على المجتمع البريطاني، "ولم يحدث تغيرًا كيفيا فى نمط الإنتاج الإنجليزي، وكان الإقناع أو الإجبار متضمنا فى العملية" (1997: 122). ومن ثَمَّ فإن حالة التحرر من الاستعمار وحالة مــا بعــد الاســتعمار تؤسس مشكلات واضحة "للآخرين"[٤].

وها هو المؤرخ جيمس جول James Joll يــذهب إلــى أن "الأفكــار الأوروبية قد أصبحت منتشرة بواسطة الإمبريالية بشكل واسع عبــر العــالم غير الأوروبي" (15 :1980)، ولا تزال المفاهيم المركزيــة لعلــم الاجتمــاع تتحدث عن الإمبريالية الخفية، وتناقش الــشمولية المجــردة للمــصطلحات الأساسية التى استقرت خارج خبرات خاصة[٥]. وكما افترضت فى المقدمــة فسوف أقيم الدليل على ذلك فى الفصول اللاحقة؛ فالاستعمار لم يدخل إلــى المقولات العامة للحداثة ولا إلى التأريخ الواسع حيث نظرية التحديث؛ لكــن - كما اتضح هنا- فمن المفترض أيضًا أن يكون له دور هامشى فى التــواريخ السوسيولوجية لبلدان غربية معينة أعلنت عن أحداث استعمارية فى الماضي.

ولا يملك تصور رونسيمان لزوال الإمبراطورية كملمح ذى دلالة *للتـــاريخ* البريطانى - على سبيل المثـــال- أى اســـتمالة بواســـطة تحليلـــه للأبنيـــة الاجتماعية الحاسمة للمجتمع البريطانى أثناء القرن العشرين. وفيما تلى ذلك من أجزاء نفهم كيف نحتاج المعرفة التى نتجت لنوسع نقدنا للمعرفة العلمية والإجراءات المفوضة فى ظل تأجيل الممارسات الاستعمارية إضـــافة إلـــى إدراك مضمون ممارسات استعمارية معينة.

أيضا حيث نقلت عمليات التحرر من الاستعمار القوة *الـــسياسية* لهـــؤلاء الذين استعمروا فيما مضى، ولقد ظلت السياقات المؤســـسية، والاقتـــصادية، والثقافية للسيطرة الغربية بدرجة كبيرة فى الموضع الملائم (Grovogui1996). ويجب أن ندرك -كنتيجة لذلك - ومن أجل اكتشاف أنفـــسنا داخـــل المـــأزق المتناقض القائم على انتقاد المصالح المسيطرة؛ بينما نعمل داخـــل "علاقـــات محددة بواسطة السياق لحماية تلك... المصالح" (Fabian 1991: 257). وعلـــى سبيل المثال؛ فإن الانشغال العام لعلماء ما بعد الاستعمار بالتفكير "**الأوروبـــي**" يستند على حقيقة أن هذا التراث الفكرى "يكون الـــشيء الوحيـــد الـــذى أُدرِكَ فى أقسام علم الاجتماع فى أكثر الجامعات المعاصرة؛ إن لـــم يكـــن جميعهـــا اليوم (Chakrabarty 2000:5-6). وإلى حد بعيد بالطريقة نفسها، أنتج دخـــول النزعة النسوية feminism للأكاديمية تناقضًا واضحًا لبعض النسويين اللائـــى يَكُنَّ فى وضع يكشف عن أن تحليلهم يفهم بوصفه ذكوريًا.

لا يعد الوجود النقدى - منَ ثَّم- كافيا لتحويل التـــصورات المعرفيـــة الكامنة بعمق والممارسة العلمية الاجتماعية. كما يناقش ترويلوت Trouillot؛ فإن إحداث تغيرات سطحية فى المعايير النقدية لما يُهْتَم به لا يترتب عليـــه حتمًا تغيير أهمية الميادين التى بداخلها تعمل العلوم أو الممارسة الـــسياسية

(18 :1981). وما نحتاجه كثيرًا من التحليل الكامل للتشكل المجرد للمعرفة وإعادة التقييم للافتراضات الأساسية التى نشأت عنها خطابات وممارسات لتصبح مقدمة منطقية. وعلماء النزعة النسوية، مثل: هوكسورث Hawkesworth فإنهم ناقشوا استخدام التصور المعرفى كشيء ما يُكتَسبُ عن طريق الممارسة الإنسانية التى تمكّن الناس من فحص "عمليات معينة تشكلت بواسطتها المعرفة داخل تراث محدد واستكشاف تأثيرات الإقصاء للنساء [وآخرين] من المشاركة فى ذلك التراث" (551 :1989). ومن ناحية ثانية؛ فإن تحديد سياسات المعرفة لا يتم بواسطة تلك العلامة لتحرير المرء نفسه من نتائج تلك السياسات. وهنا أفترض – فى بقية هذا الفصل – أنه بقدر ما تكون قوة نقد ما بعد الاستعمار؛ فإن ذلك يجسد فى الغالب بعض المقولات أو سمات المعرفة التى نزعم انتقادها.

(٣)

كانت النزعة الاستعمارية – كما سوف أناقش فى هذا الكتاب– جوهرية للمشهد المعاصر الذى تشكلت فيه الأشكال المهيمنة على البحث والتى تؤدى إلى إخفاء ما هو استعماري. ولقد طورت هذه الأشكال للبحث عن المعايير العامة وافترضت ذاتها على أنها عمومية. ولقد كانت – كما سوف نبرهن– تشكل على أساس تهميش وصمت الخبرات والأصوات الأخرى وما زالت. ولقد كشف البحث النسوى بدقة عن النزعة الذكورية للفكر الذى قدم ذاته على أنه عالمى (انظر على سبيل المثال Hartsock 1984, Bordo 1986)، وهكذا يتحدى علم ما بعد الاستعمار غالمية الحداثة والتحديث كما يتم تمثلهما.

نعتبر التاريخ المكتوب من فيكو لهيجل، مرتبطًا بالذاكرة الثقافية، وبهذه الطريقة؛ فإنه يمدنا "**بدليل**" على وجود "القدرة على" التفكير (Gates 1985). ونعتقد في الغالب: أنه دون تاريخ مكتوب، لا يمكن تصور وجود إنـــسانية. ويشرع هذا الانضباط لما نعده تاريخًا؛ إضافة إلى الإمداد بمبررات من أجل تفسيرات معينة للماضى تلك التى تعقلن التدخل الاستعماري. ومن المقبـــول عمومًا أن أوروبا أُديِرت لتتجاوز ماضيها باكتساب وعى تاريخى استند على أشكال وتقاليد خاصة اعتقدنا أنها تنقص فى مكان آخر رغم دلالتها العالمية. ولقد أفاد الرفض لإدراك الوعى التاريخى فى ثقافـــات ومجتمعـــات خـــارج أوروبا هدفًا مزدوجًا، وأشكالا "**أخرى**" للمعرفة هُمِّشت ومجتمعات مرتبطـــة صُنِّفَتْ بوصفها أدنى.

لقد اتسم خطاب المستشرق البريطانى فى القرن التاسع عشرعن الهنـــد بافتراض أن الهند ليس لديها أنماط من الأدوات، على سبيل المثال: وثـــائق، أو تسجيلات صالحة لوقت محدد، أو تأريخات – التى بها شكّل الغرب تاريخه الخاص، ومن هنا "كانت مناشدتهم لإمداد الهند بالتـــاريخ" (Cohn 1996:93). وعلى سبيل المثال؛ فإن وصف القومية على أنها كتبت من خـــلال علمـــاء بريطانيين، وهى عمل قدم بدرجة كبيرة رسالة مفادها أنها: "لم تكن من أجل التوسط البريطاني، ولم يكن لدى الهنود مطلقًا معرفة بثقافتهم الخاصة أو كونهم أدركوا الإمكانات للنمو القومى على أسس ذاتية" (Viswanathan 1989:15). ويذهب المؤرخون –حتى فى العصور الحديثـــة – مثـــل جـــول joll إلـــى أنه حينما تفاعل العالم غير الأوروبى ضـــد الإمبرياليـــة الأوروبيـــة كـــان بمصطلحات أوروبية – مثل: القومية، وثورة البروليتاريا...إلـــخ – وهـــى مصطلحات عبروا بها عن سخطهم (1980: 15). ومن ناحية ثانية؛ فإن ادعاء

هذه المفاهيم أساسًا هو ادعاء أوروبى يتمركز حول النزعة الأوروبية، ويتضمن ذلك التطور الداخلى القول: إن هذه المصطلحات التى استخدمت داخل رحم ثقافى جغرافى خاص قد انتشرت ببساطة فى "أسلوب تبادلى معتدل" (Viswanathan1989: 16) إلى عقول الذين استعمروا.

وإضافةً إلى ذلك؛ فإن النقص المفترض للمواد التاريخية، قدَ عزز من الافتراضات غير المفندة كالقول بأن السكان الوطنيين "لم يكن لديهم إحساس بالتاريخ القومى ولا وعيًا تاريخيًا الذى تشكلت منه الهوية المتميزة التشكل" (Viswanathan1989: 15)[٦].

ولقد فُنِّدتْ هذه الافتراضات، منذ عهد بعيد عن طريق العلماء مثل روميلاثابار Romila thapar (1992, 1996) الذى أكد وجود كل من المادة التاريخية والوعى التاريخى فى المجتمعاتِ الهندية؛ ولكن بمزاج مختلف، وعلى المنوال نفسه فى المقدمة، يتساءل نانـدى Nandy عن المشروع التاريخى الحقيقى الذى يؤسس التاريخ الكلى "باستخدام حرف H الكبير"، ويذهب فى هذا الصدد إلى أنه رغم أن العلماء المعاصرين لا يميزون بين "**التاريخ History**" و"**الماضي**"؛ إلا فى النزر اليسير؛ فإنهم لا يزالون "يعترفون بإمكانية: أن التاريخ" الكلى يجب أن يكون فقط طريقًا واحدًا لتشكيل الماضى ويجب على الثقافات الأخرى استكشاف طرقٍ أخرى" (1995: 52).

لقد كان استخدام فكرة النكوص التاريخى استخدامًا سياسيًا فى الهند لإقرار كل من التدخل والتأسيس لفترة وصاية استعمارية (أو بكلمات ميل Mill (1861[1865])، النقاء واستبداد التنوير) مفترضًا فى ذلك الوقت أن هؤلاء السكان اُجتُذِبوا للحكم الذاتى نهائيا. ويفترض نانـدى هنا أن ذلك المفهوم الجديد للطفولة الذى نشأ فى أوروبا فى القرن ١٧ كان متوازيًا مع

أفكار البدائية و "نظرية التقدم الاجتماعي التي تداخلت في منطقة الاختلافات الثقافية في المستعمرات" (15 :1983) [٧]. ويفترض لوك Locke: أن تلك الفترة للوصاية كانت مرحلة ضرورية للأطفال ليعبروا على الطريق لاكتساب الرشد، ومن ثم البلوغ، وكانت مرسومة على علاقات استعمارية وأصبحت فكرة تميز الهند بكونها في طفولة التقدم الحضاري فكرة مفتاحية في كثير من الخطاب الليبرالي، وهي فكرة تؤسس برسوخ التناظر للطفولة وحالة الوجود الاستعماري (انظر Nandy 1987, Mehta 1999).

لقد وصف الليبراليون الاستعباد السياسي ورفض الحقوق والتمثيل للسكان المستعمَرين – بوصفهم أطفالا – وهكذا رؤيتها بوصفها إجراءات ملائمة في المصطلحات الليبرالية؛ وليس بوصفها إجراءات إشكالية.

إن تشكل الهند بوصفها "طفلا" أيضًا كان له تأثيره على وضع الهند المعاصرة في علاقة مباشرة بماضي أوروبا. وسوف أوجه اهتمامي لنشأة اتجاه "القياس البعدي stadial" للتاريخ في الفكر الأوروبي بتفاصيل أكثر في الفصل التالي؛ لكن من الواضح بسهولة أنه إذا كانت الهند طفلا، وأوروبا شخصًا راشدًا ، لكانت الهند الآن ما كان لأوروبا وما استطاعت أن تقدم للأوروبيين نظرة خاطفة لماضيهم الخاص. إن تطور الفكر و اتجاهه إلى أسرة اللغة هندو – أوروبية، إضافة إلى تزايد الاقتراب إلى نصوص الهند القديمة، وقد أدى بالعديد من العلماء الأوروبيين للاعتقاد أن جذور الحضارة الأوروبية موجودة في **"العصر الذهبي"** للتاريخ الهندي (انظر Kaiwar 2003). ولكي نحل التناقض الواضح بين افتراض الإرث الحضاري العظيم إضافة إلى التأكيد على الطفولة السياسية المعاصرة كان ضروريًا تأسيس فترة أفول في قرون التدخل. وكما يذهب كايوار Kaiwar؛ فقد أدى هذا إلى

تقسيم التاريخ الهندى إلى ثلاث فترات: العصر الذهبى الهندوسي، وأفول الفترة الإسلامية، والتحرير البريطانى للهند من السيطرة الإسلامية (المغايرة) (2003: 37). ويستمر فى حديثه -مع هذا التقسيم - فإن الحدود الإقليمية للهند قدمت وحدة متناغمة تخلفت خلال الوقت، لقد قدمت الهند هوية **"هندوسية"** فى أوقات كان لا يوجد فى القارة شخص قادر على إدراك ذاته هكذا، وَوُصِفَ المسلمون بأنهم متطفلين؛ رغم كون الأغلبية الضخمة للهنود المسلمين تحولوا محليًا للإسلام، ومحيت ارتباطات بثقافات عبر المحيطات من تاريخ الهند، وأعقبت فترةٌ بريطانية الفترات الهندوسية والإسلامية وليست فترةٌ مسيحية (9-37 :2003).

ومن خلال قوة الاحتلال العسكرى والملائمة لعمليات هيمنة التمثيل، كان البريطانيون قادرين على تصنيف التنوع لأحداث الماضى الهندى فى ظل "سرد تجانس التحول من فترة القرون الوسطى للحداثة" :chakrabarty 2000) (32 . وكانت المصطلحات ربما قابلة للتبادل والإقطاع من أجل العصور الوسطى، والرأسمالية للحداثة – التشكل للتاريخ الخطى، والعالمى والتأكيد الديكتاتورى أين يوجد مكان الهند داخل هذا المخطط، الذى خول للبريطانيين تأكيد السيطرة على ماضى الهند. وادعاء السلطة على مستقبلها، وشرعية وجودهم داخل المجتمع (انظر، Cohn, 1996). ولقد وضع الافتراض لنموذج اجتماعى – ثورى الهند داخل مسار معروف للتاريخ؛ حيث حدث التغير من خلال فترات التحول – بمعنى آخر، سواء من القرون الوسطى للحداثة، ومن الزراعية للصناعية، أو من الإقطاعية للرأسمالية. المستقبل للهند، تحولها "للحداثة"، كان تاريخًا معروفا، شيئا ما حدث *فى مكان آخر* وكان الآن ببساطة، بكلمات موريس Morris، "يعاذ إنتاجه، ميكانيكيًا أو بطريقة أخرى، من خلال مضمون محلي" (10 :1990).

(٤)

لقد بدأت هذا الفصل بمناقشة موجزة لسياسات إنتاج المعرفة والاعتراف بالاستعمار كجزء من مشهد البحث العلمى الاجتماعي. وأوضحت هذا بالتفصيل مع أمثلة مستخلصة من الهند. وحاولت -فى باقى الفصل - العودة إلى مسائل أكثر عمومية لإنتاج المعرفة والتماثلات بين التطورات كما ظهرت فى انتقادات نزعة ما بعد الاستعمار والاتجاه النسوى؛ لكى يمكن تحديد المشكلات الجوهرية لنظرية نزعة ما بعد الاستعمار. وسوف أفترض أن هذا مستمد من تناوله فى التأمل البسيط للأشكال المهيمنة للمعرفة.

وأحد الطرق التى أمكن خلالها تأسيس واقع سردى كلى لفترات التحولات هى أن تصنيف التواريخ "**المحلية**" آنذاك للمعالم والحقب الأيديولوجية كإطار عام، ويكون استعماريًا أوقوميًا، أو ماركسيًا. وأدى هذا لنتيجة هى طمس الخصوصية للتواريخ فى ظل البحث والصمت عن الموضوعات التى شكلتها. وكما يذهب جوها Guha (1983)؛ فإن "**الفلاح**" -على سبيل المثال - يُرَى دائما بوصفه يؤسس سردًا آخر لشخص ما للتاريخ، ويكون كفاعل غير عقلانى ساذج أو أنه يدخل فى عصيان عن طريق مثيرى المشكلات المحليين (التأريخ الاستعمارى البريطاني)، بوصفه بشيرًا للنضال القومى المستقل (التأريخ القومى الهندي)، أو بوصفه يشكل جزءًا من متصل ثورى أدى إلى الاشتراكية (التأريخ الماركسي). وينظر إلى الفلاح هنا على أنه ممثل؛ لكنه ممثل فى قصة أخرى لشخص ما تكون تلك القصة، أو السرد، للحداثة المتحضرة (قصة حياة الإمبراطورية)، والتحديث القومي، أو التحديث الاشتراكي. ليست القصة مطلقا عن الفلاح. وعلى سبيل المثال فقد سجلت وثائق إدارة الحكومة البريطانية، أحداث عصيان مسلح

كبيانات فى سرد الإمبراطورية؛ لكن كما يفترض جوها، "لـم تفعـل شـيئا لتوضيح أن ذلك الوعى نعده عصيانا" (27 :1983). وبينما تـسرد الأعمـال التاريخية التى كتبها هؤلاء داخل الحكومة البريطانية التـاريخ عـن "عمـل إنجلترا فى الهند"؛ فإن تلك كتبها قوميون هنود وراديكاليون اسـتوعبوا كـل المقاومة "عبر محور بديل خطط لحملة مـن أجـل الحريـة والاشـتراكية" (Guha 1983: 33) يفترض جوها: أن إرادة الناس أنفسهم مفقودة فى الـسرد العام الذى فرضه عليهم المؤرخون.

ولقد افترضت دراسات عن المهمشين جمعهـا جوهـا (1982)، فـى الثمانينيات، وفقا للاعتقاد، لفترة طويلة جدًا، وتركـزت الدراسـة للتـاريخ الهندى على ممثلى وصفوات الدولة وكان ذلك ضروريًا لإرجـاع الأفعـال والسياسات التى يقوم بها "**الناس**" إلى موضع مركزى داخل ذلـك التـاريخ. وكان الهدف الأساسى للمجموعة -كما أوجـزه جوهـا (1982) - دراسـة ومناقشة موضوعات المهمشين فى تاريخ ومجتمع جنـوب آسـيا، وبـصفة خاصة، لتوجيه الاهتمام لأشكال العصيان والتمـرد القـروى أثنـاء فتـرة الاستعمار. أما تفسيرات سكان المستعمرة فقد نوقشت لفترة طويلـة، ومـن المعتقد أن تلك التفسيرات القومية والماركسية البرجوازية الحديثة للماضـى فشلت بالمثل فى توجيه اهتمام التاريخ "**للناس**" كما تتم رؤيتهم مـن موقـع "**الناس**". ويجب أن يحث هذا على إثارة تساؤل: من يكون "**الناس**"؟.

لإحياء الصوت من وضع التابع للمركزى داخل التاريخ الهندي، مـن ناحية ثانية، الأعضاء فى مجموعة دراسات المهمشين تعاملوا مع مـشكلتين منهجيتين عاجلتين: إن هؤلاء الفلاحين فى الهند، مثلما هم فى أى مكان آخر، لم يتركوا وثائق مكتوبة لما يخصهم، وأن تلك الوثائق الموجودة، لـم تكـن

محايدة فى اتجاهاتها للأحداث التى شوهدت ووصفت. ومن ثم فقد بدأ جوها (1983 - 1982) فى توجيه الاهتمام لهذه المسائل، من الموقف التأريخى لبحث بناء العلوم التى ساهمت فى إقصاء قضايا مرتبطة وبحث مكونات للخطاب ارتبطت بإنتاج تواريخ "**متحيزة**".

تحول تأريخ القرن ١٩ من تأريخ سردى إلى تسجيل وثائقى مرسيا بذلك قواعد أرشيف ووثائق حولته مستودعًا للحقيقة. وكما يفترض فوكو Foucault؛ فإنه يمكن رؤية الوثيقة "كلغة لصوت انخفض فيما مضى حتى الصمت" وكان التاريخ "عملا استهلك توثيقًا ماديًا" ليجعل صوتا لذلك الصمت (7 :[1969] 2002) . ويفترض أن تكون مهمة المؤرخ ببساطة إضفاء بساطة الخطاب على آثار الماضي، ومن ناحية ثانية؛ فإنه يفشل فى إدراك أن الامتداد للتاريخ ليس مجرد أنه يحدث؛ لكن يُنْتج (Foucault 2002[1969],Spivak 1985a). وكما يناقش ترويلوت Trouillot(1995): لا توجد الأرشيفات ببساطة كحيز يمكن إدراك الحقيقة التاريخية من خلاله؛ ولكنها تكون جزءًا من تكوين مجرد للمعرفة يقرر كيف تُعْرف الحقيقة. الأرشيفات-" المؤسسات التى تنظم الحقائق والمصادر... [هذه من ثم] حالة الإمكان لوجود روايات تاريخية" - افترضت هى ذاتها مقدمة منطقية لإدراكات خاصة لما يستحق تنظيمه فى المقام الأول (Trouillot 1995: 52). وكما يناقش ترويلوت، يحدث هذا فى مواقع مختلفة:

"لحظة خلق الحقيقة (صناعة المصادر)، ولحظة تجميع الحقيقة (صناعة الأرشيفات)؛ ولحظة الاسترجاع (صناعة السرد)، وولحظة استعادة الدلالة (صناعة التاريخ فى المرحلة الأخيرة). (1995: 26-7)"

نتابع من هذا؛ أن جوها يفترض أن المشكلة الجوهرية مع الأرشيف تتمثل في الامتداد؛ حيث إن النصوص التي شكلته جُرِّدت من أشياء معاصرة، "واستعادتها بوصفها عنصرًا [عناصر] للماضي ومصنفة كتاريخ" (7 :1983)). ويُعد نقل هذه النصوص من سياقها، ومعالجتها بمعزل عن ظروف نشأتها؛ أن ننسب لها الحياد الذي لا تمتلكه. ولا يكمن وصف الانحياز في هذه النصوص - ببساطة - على أنه انحياز لمؤلفيها؛ لكن في رفض المؤرخين *لشرح* ما يبدو جليًا فيها، ويكون الانحياز في العجز عن الاعتراف بالقابلية لمناقشة الأرشيف واعتباره ببساطة مستودعًا محايدًا للحقائق التي يمكن أن تكون جزءًا متصلا لتشكيل تاريخ دون بحث يدعمها. وكما يذهب جوها؛ فإن الوثائق ليست محايدة، وبتقديم هذه الوثائق أمام محكمة التاريخ لا نستطيع توقع أنها تشهد بالنزاهة (14 :1983). ويناقش، - في هذا السياق - فكرة أن الطريق الوحيد لإعادة إنشاء حضورها التاريخي يتمثل في قراءة وثائق رسمية - وثائق أنتجت من أجل الاستخدام الإداري - والتي تكتب ضد *الميل الفطري*، للجماعات الهامشية.

تمت الدراسة داخل مشروعات دراسات المهمشين - من ثم- لأشياء هامشية والتنظير في السياق لجماعات هامشية متورطة في صراع مع القانون، مع البيروقراطية، والشرطة ..إلخ (Das 1989). ويُعد تقديم لحظات من التحدي والعصيان المسلح القروي رئيسيًا لفهم المهمشين بوصفهم موضوعات لتاريخهم الخاص؛ فلم يُرَوا لفترة طويلة ببساطة باعتبارهم أهدافًا لهذه الهيمنة؛ "لكنهم بالأحرى ظهروا في اللحظة التي حاولوا فيها التحدي لقوة الاغتراب هذه" (Das 1989:314)) ومع هذا ينظر جوها في الوقت نفسه إلى المهمشين كونهم موضوعًا سياسيًا وعنصرًا.. في العملية، يعيد لهم كينونتهم التاريخية، وذلك عن طريق تمثيلهم كفاعلين تاريخيين[٨]. وإضافة لذلك؛ فإن إعادة

المهمشين للتاريخ يعد هدفًا مرتبطا بمشروع دراسات المهمشين، وكما افترض سبيفاك spivak؛ فإن ذلك يعمل على تعطيل عملية السرد واسعة النطاق لأنماط الإنتاج فى عملية التحول من الإقطاع للرأسمالية؛ فهم يتجهون بدلا من ذلك، لجمع ورسم لحظات للتغير فى سياق المواجهة (والاتصال) (1985 b: 205).

(٥)

استخدم جوها "**العامة**" و"**الطبقات المهمشة**" كمترادفات؛ ليمثل *الاختلاف الديموجرافى بين إجمالى السكان الهنود وكل هؤلاء الموصوفين* "كصفوة"؛ حيث تشير "**الصفوة**" لكل من الجماعات الأجنبية والمحلية- المهيمنة (Guha 1982: 8)(٩). إن مصطلح "**المهمشين**" مأخوذ من كتابات جرامشى Gramsci، وكما يناقش براكاش prakash (1994)؛ فإنه اتسع ليشير إلى الخضوع فى سياق الطائفة- النوع أو الجندر، والسلالة، واللغة، والثقافة، إضافة إلى الطبقة. فهو يشير إلى استخدام إضافى إلى مركزية علاقات السيطرة، والمهيمن داخل التاريخ. وهذا فى حد ذاته، يبنى على أفكار "وجهة نظر البروليتاريا" التى نمت فى البداية عن طريق ماركس، كما فسرها لوكاش (222-149:[1968]1999)، وبناءً عليه استخدمها النسويون، فى تطويرهم لموقف نظري.

إن بحث داس Das (1989) بعنوان "**منظور المهمشين**" وبحث براكاش (1994) "**المهمشون كموضوع مفضل للنقد**" كلاهما يندرج تحت أنماط الأعمال التى تنسب الأفضلية المعرفية لموضوعات مهمشة اجتماعيًا. الأشكال المبكرة المنشغلة بالنسوية بمجرد أن نُقِدَت بوصفها "**تجريبية نسوية**"، مع مناقشات من أجل علم يتجاوز "**استعادة**" أصوات النساء لتطوير

ستمولوجيا نسوية على وجه التخصيص (انظر Harding 1986)، وهكذا- تحولت دراسات المهمشين" من هدفها الأصلي إلى استعارة استقلال المهمش. ليظهر كوضع يستطيع علم التاريخ إعادة التفكير منه"(التشديد إضافي Prakash1994:1489). ويأتي هذا التحول -جزئيا - نتيجة لنقد سبيفاك Spivak اللاذع للمشروع الأصلي بوصفه.مشروعًا وضعيًا يفترض- إذا نفذ، أن يؤدى إلى أساس راسخ لشيء ما يمكن كشفه (1985b:211). وفي كل حالة؛ فإن الموقف المبكر، مع تأكيده على الانحياز والتجاهل للخبرات الخاصة - سواء كانت تتعلق بالنساء أو القرويين- نوقش لدعم الإبستمولوجيات المهيمنة بأسلوب يتضمن إبعاد التحيزات وإنجاز الموضوعية.

ولقد أثارت ترجمة هارتسوك Hartsock (1984) لوجهة النظر "**الماركسية**" حول البروليتاريا إلى مصطلحات نسوية -جدلا مبكرًا حول تكوين موقف إبستمولوجي حول "**المهمش**"؛ وإن يكن قد كُوِّن من النظرية النسوية؛ وليس من منظور نزعة ما بعد الاستعمار(١٠). وهي تذهب إلى أن الهيمنة والخضوع يمدانا بمنظورات مختلفة تمكننا من فهم العلاقات الاجتماعية، كما يمدنا الخضوع بوضع متميز ذي أفضلية بصفة خاصة؛ لأنه يحمل بالضرورة مصلحة تتجاوز علاقات الهيمنة والخضوع. وعند هذا الحد تجادل هارتسوك (1984) بالقول: إن الوضع المعوق والمضطهد بصفة خاصة للنساء داخل المجتمع، أو بدقة أكبر داخل التقسيم الجنسي للعمل، يسهل قدرتهن على رؤية الحقيقة حول المجتمع الذي يَعِشْن فيه. وهي تؤكد أن هذه الرؤى ليست واضحة أو فورية؛ لأنها لا تنشأ ببساطة خارج خبرة الوجود كامرأة؛ لكن حدثت بالأحرى من خلال انشغال فعال بالأبنية الواقعية لخضوع النساء؛ إضافة إلى أنها تتحول بمد هذا الانشغال.

إن العلوم التى تأسست لديها "**تجــاوز**" افتراضــى نمــوذجى بمعنــى الموضوعية أو الشمولية؛ ولذلك فإن ادعاءات وجهة النظر الإبستمولوجية أن هذا المعنى "**وجهة نظر من لا مكان**" تكون –فى الواقع– وجهة نظــر مــن "**مكان ما**"، ذا امتياز وهيمنة. وتبني وجهة النظر النسوية –بهذا المعنــى– بوصفها موقفًا مع المقايضة على "**الحقيقة النقدية**" ويُمكن من بحث الأبنيــة (الأبوية) للحياة الاجتماعية والعلوم المرتبطة بها. ولا تنطبق وجهة النظــر المعرفية على وضع النساء فقط؛ لكن على أى وضع للخضوع. ومــن ثــم، يمكن رؤية وضع "المهمشين" بوصفه شكلا معممًا لوجهة النظــر المعرفيــة ووجهة النظر الملائمة للبحث النقدى فى أى ميدان للعلاقات الاجتماعية التى تشكلت حول اللامساواة (انظر Holmwood 1995).

ومن ناحية ثانية أشار عدد من المعلقين إلى المشكلات المتأصلة داخــل اتجاه وجهة النظر هذه. وتمد فكرة الخــضوع بإشــارة ذات أفــضلية تميــز الخضوع عن الظلم وتفترض أن إشارة التميز تتكــون مــن الخبــرة الذاتيــة للاضطهاد. ولا يزال هولمود (1995) يناقش – برغم ذلك – أن فكرة الخضوع تكون على حد سواء معممة ومختلفة؛ حيث تفترض وجود ميكانيزمات وأنواع مختلفة من الخضوع مرتبطة بالنوع، والسلالة، والجنس، ..إلخ. أمــا ذاتيــة الاضطهاد؛ فإنها تصبح متنوعــة واحتماليــة ومتقاطعــة – cross cutting: والتساؤل عن التمثيل –فى هذه الظروف– لوجهة نظر الاضــطهاد (كمــا تتضح من ذلك الملاحظ المنشغل نقديًا) يصبح معقدًا ويصبح بالنسبة للبعض، عقدة مستحيلة. وهناك من المنظرين لنزعة ما بعــد الاســتعمار، ســبيفاك Spivak (1988) الذى كان ضمن من عبروا بقوة أكبر عن هذه الأحجيــة بالتساؤل: هل يستطيع التابع أن يتكلم؟

وكما يفترض هولمود (1995)؛ فإن إبستمولوجيا الموقف تستلزم تمثيل وجهة نظر المضطهدين/ بشكل مستقل عن خصوصية الخبرات؛ ولذلك فإنها تعيد إنتاج الادعاء ببدائية الشمولية؛ فهى إذن ليست مختلفة جدًا عما ينسب للإبستمولوجيا التقليدية. فهى تدّعى فهمًا لميكانيزمات الخضوع وراء نطاق ما يكون متاحًا لهؤلاء الخاضعين، وهكذا لا يكون هذا الوضع لهؤلاء الذين ظلموا ذا أفضلية؛ ولكن الاعتقاد فى طبيعة الظلم وأسبابه الحقيقية كما يتشبث بها وجهة نظر المنظرين. ويكون هذا جليًا فى الصياغة الأولية لماركس التى تذهب إلى أن وجهة نظر البروليتاريا ليست ما يعتقد أى فرد بروليتاري؛ لكن *ما يجب أن تصبح* عليه البروليتاريا – الذى يكون تأكيدًا؛ ليس أكثر من تقاربهم مع الموقف الخاص لماركس.

إن تكرار هذا الفهم فى تفسير سبيفاك Spivak لماركس وإصراره على الحاجة إلى التمييز بين شكلين للتمثيل – *vertreten and darstellen* – (ترجمة هذين المفهومين عن الألمانية) وهما يدمجان فى الاستخدام الإنجليزى فى كلمة واحدة: *التمثيل*" (1988: 276-7). وقد استخدم هذا التمييز بين التمثيل "**كتفويض**" والتمثيل كـ"**صورة**" لتوضيح الخلاف بينهما؛ فبينما يعيش الناس فى ظل ظروف اجتماعية – اقتصادية خاصة ربما يمتد أعضاء الطبقة؛ حيث "فشلت مصالحهم فى إنتاج إحساس بهوية المجتمع المحلي... إنهم لذلك *لا يشكلون طبقة*" (اقتباس من ماركس Spivak 1988:277). إن إدراك الذات –من ثم – بوصفها تشكل طبقة، بالنسبة لـ Spivak، "ليس تحولا أيديولوجيا للوعى على مستوى الأساس". وليس ببساطة خبرة ذاتية للظلم؛ لكن بالأحرى، يحدث نتيجة للتخصيص وإحلال الظروف الاقتصادية للوجود (1988:277-8). وتفترض سبيفاك Spivak، فى غياب الأخير: إنه

"يكون إنزلاقًا من أداء ميكانيزم منظور إلى أداء صوتى فردى ثابت بشكل مزعج" (285 :1988).

وتفسح الأهمية المفترضة للخبرة الذاتية للظلم -فى هذا الشكل للتحليل- مجالا لإدراك اختلاف ميكانيزمات *وأبنية* الهيمنة. وتبعًا لعلاقات السيطرة والخضوع لا تقتصر على أى ميدان، ومن ناحية ثانية: تكون الظروف العملية خاضعة لعمليات متعارضة وادعاءات هوية إلى حد أنه لا توجد ضرورة لنزعها من أجل تقارب شكلى التمثيل. ويمكن تصور أن أى ادعاء متوحد مع الظالمين يمثل احتمالا لموقف ماهيوي. ولا تزال إبستمولوجيا الموقف محددة ليس فقط عن طريق اهتمامها بالوثائق أو تفسير علاقات الظلم؛ لكن أيضا لتجاوزها. وتفترض Moya مويا (2000) أنه عندما تتشابك أبنية اللامساواة مع مقولات الهوية، تستند السياسات على تلك الهويات لكل من التحرير والضرورة، وتكون المشكلة التى تواجه وجهة نظر الاتجاهات الضرورة الظاهرة لاعتبار السياسات وسائل *لخلق* هذا التشابك بين أبنية اللامساواة والهوية. وقد انزلق بهذه الطريقة علماء موضوعات المهمشين فى فخ بين بديلين كلاهما خطر لاختلاف الأفضليات، وتثبيت الهويات المختلفة، والحذر Charybdis من الاحتياج إلى تقديم وصف للعلاقات النسقية للهيمنة الشرعية على المشروعات السياسية التى سعت لتحسين المعوقات.

وبينما تم تحاشى الماهيوية essentialism فى النظرية؛ فإن إحياءها يعد ظرفًا ضروريًا من أجل الممارسة السياسية ورغم نقد سبيفاك Spivak الخاص للماهيوية؛ فإنها فى النهاية أيدت "الاستخدام *الاستراتيجى* للماهيوية الوضعية بوسواس واضح للمصلحة السياسية" (1985b:214). ومن ناحية ثانية يكون واضحًا أيضا دور "صفوة" الباحثين الذين ينبغى الآن تمثيلهم"

لموضوعات المهمشين، وفى الوقت نفسه بوصفهم "**يسيئون تمثيلهم**"، وهى تناقش قائلة: "ينبغى أن يكون الميدان متاحًا باستمرار لموضوعات المهمشين للسيطرة عليها، وأن تظل متغايرة لإثارة جهود المؤرخ المنضبط" (1985 b:217). وسوف نناقش ما إذا كان هذا الحل ملائمًا للمشكلة الضرورية فى الجزء التالى والأخير من هذا الفصل.

(٦)

وهنا سوف أناقش تصور "فجوة" بين المقولات العامة والخبرات الخاصة، والتى يمكن التغلب عليها عن طريق توجه مختلف فى سياق ما يطلق عليه المؤرخ Sanjay Subrahmanyam سانجاى سوبراهمانيام (1997, 2005a,b) "***التواريخ المترابطة***". وتكون "**التواريخ المترابطة**" غير مشتقة من وجهة نظر فردية – إنها وجهة نظر عالمية – حيث ظهر منظرو نزعة ما بعد الاستعمار كونها وجودًا لوجهة نظر خاصة ارتبطت بنزعة ما بعد الاستعمار، أو وجهة نظر لتعميم موضوعات المهمشين. ولا يعد الاستسلام لهذه المواقف – من ناحية ثانية – ارتدادًا للنسبية، ولا للمأزق السياسي. والأحرى، إدراك أن تلك السياسات والانشغالات الفكرية – دائمًا – تمثل ظاهرة "أزمة"، وأن تلك الأزمات مباحة للانعكاس النسقى الصارم فى سياق الروابط التى تكشفها. وهى تمثل أيضًا – كأزمات – فرصا ملائمة؛ حيث توجد أصوات وحوارات مختلفة؛ لا يحتاج أى منها الأفضلية بوصفه شرطا مسبقًا لفهم أو لممارسات سياسية "**تقدمية**" (انظر Holmwood 2000a)؛ وسوف أعود لهذا فى مواضع مختلفة فى هذا الكتاب. وأنا أرغب فى التوجه – للحظة– بمزيد من العمق لمسألة، "**التواريخ المترابطة**".

ويتساءل سعيد Said: "ما معنى "**الاختلاف**" حين انزلق حرف الجر "من" عن المشهد كله (1978:106). إنها "من" التى تشير إلى العلاقة وتحافظ على الاعتراف بالتعقيد والروابط بالعالم الذى نعيش فيه. ويمكننا إسقاط "من" بعدئذ من التفكير بتخيل انفصال ثقافات، ومجتمعات، وشعوب وتميزهم. ويناقش سعيد: إن "هدفه الأساسى ليس للانفصال؛ لكن للارتباط" وأن مصلحته فى هذا "من أجل سبب فلسفى ومنهجى أساسى: أن الأشكال الثقافية تمثل هجينا، مختلطا وممزوجًا، وأن الوقت جاء للتحليل الثقافى لإعادة تحليل ارتباطهما بواقعها" (15 :1993). ويستمر فى مناقشة – ما نحتاجه – "النظر إلى هذه الأمور كشبكة تواريخ غير دقيقة ولا معنى لها ذات اعتماد متبادل بالقمع، وأن الإفاذة والتشويق للفهم" (1993:20). يفترض سعيد: إننا نحتاج الالتفات للماضى للأرشيف التاريخى *الطباقي*، و"فى وقت واحد مع الوعى بكل من التاريخ الميتروبوليتانى سُدِدَ وتلك التواريخ الأخرى التى يعمل ضدها إضافة إلى الخطاب المهيمن" (1993:59).

واستند *استشراق* سعيد على إعادة التفكير فى تقسيم مقبول على نطاق واسع بين الشرق والغرب والبدء فى إعادة صياغة التصورات لـ"الخبرات التاريخية التى استندت إلى الانفصال الجغرافى للشعوب والثقافات" (1995:351)، وقد واصل هذا علماء مثل بول غيلروى Paul Gilroy (1993)، الذى استخدم فكرة "**الأطلنطى الأسود**" ليشير إلى شبكة بين المحلى والعالمى تمد بسياق أكثر ملاءمة نفهم داخله حركة مرور الكائنات البشرية وليس مجرد محاولة بسيطة لفهم الظاهرة من مكان واحد خاص، أمريكا أو بعدئذ إفريقيا. ويؤكد غيلروى أيضًا – باستخدام استعارة كلمة "السفينة"– أن أى حراك بين أماكن كان يمثل مظهرًا متكاملا لظروف العبودية (1993:16). وإننا نحتاج مجرد الوعى بالتواريخ المتعارضة التى سُرِدَت من

منظورات مختلفة، ومن ثم، نحتاج الوعى بالمشاكل المرتبطة بـــ "وحـــدات التحليل الجغرافية التقليدية"، إذا كانت "الدولة – الأمة" أو الأقاليم المرتبطـــة جغرافيا تظهر فى "دراسات **المنطقة**"، (Subrahmanyam 1997).

يفترض سوبراهمانيام Subrahmanyam –من جانبه – تركيـــز كليـــة وجود القومية، والتواريخ الناتجة على القومية وداخل حدود الدولـــة، وأنهـــا حولت الاهتمام بعيدًا عن إمكانات الارتباطات عبر هذه الحدود (1997:761). وقد اقتبس تعبير دوارا Duara فى تشكيل ذريعة من أجل "إنقاذ التاريخ مـــن الأمة" وطور افتراضًا عن احتياج المؤرخين للتركيز؛ ليس فقط على المحلى والإقليمي؛ لكن أيضًا على الانتقال وراء نطاق الحدود القومية؛ لكى يفهمـــوا العمليات التاريخية إضـــافة إلـــى مـــسألة تلـــك الحـــدود (subrahmanyam 2005b:11) [١١]. وقد ركزت الإثنوجرافيات التاريخية فـــى الفتـــرة الحديثـــة المبكرة على تشكل الهويات والثقافات لأماكن خاصـــة كنتيجـــة للتغيـــرات الاجتماعية والسياسية المهمة فى البلدان والتى بـــسببها باشـــر المـــسافرون رحلاتهم إضافة إلى تكثيف حقيقى للسفر والرغبة فى تـــصنيف الاختلافـــات التى واجهتهم داخل مخطـــط متماســـك (Subrahmanyam 1997: 761). إن تأسيس قاعدة نظرية للتاريخ برزت من التنوير الأسكتلندى الذى كان مثـــالا لهذا، وسوف نناقشه أيضًا فى الفصل التالي. كمـــا حـــرص ســـوبراهمانيام Subrahmanyam –من ناحية ثانية – على توضيح أنه رغم أهميـــة الـــدليل الإمبريقى؛ "فإن الإصرار على التعريف، والوصف والتـــصنيف"لـــم يكـــن أوروبيًا على نحو مميز (1997:761). وهو يفتـــرض أن "أى عمليـــة لبنـــاء الإمبراطورية الحديثة المبكرة كانت أيـــضًا عمليـــة للتـــصنيف"، وتحديـــد الاختلاف لكى يحفظها، كما فى النسق الآلى العثماني، ومن ثم دمجه بفضل قضية التحضر (1997:761).

وتستلزم بالضرورة عمليات التصنيف التأكيد على الاختلاف والانفصال أكثر من التأكيد على الروابط. وحتى اليوم؛ من المفترض أن وصولنا للاعتراف يمكن أن يكون فى أى وقت متحيزًا ومشروطًا، وينبغى أن نقيم محاولاتنا الفكرية داخل حدود خاصة. ولا تحتاج حدودنا والشعوب، والممارسات، والثقافات المستقرة داخلها التشيؤ. ومن الأهمية إدراك أن الرؤية العامة للعالم -كما شكلت أشكال الوجود المتميز والمنفصل- مستقلة عن مشروعاتنا للتمييز بينها" (Narayan 1998: 92)، ومن المتعذر الدفاع عنه بشكل متزايد. وأيضا من المتعذر الدفاع عن فكرة وجود شعوب وثقافات مقتصرة على الأماكن التى تقيم فيها، ومتجهمة من الاتصال مع العالم وراء نطاق حدودها (Appadurai 1988: 39). وكما يفترض سوبراهمانيام Subrahmanyam؛ إن أهميتها "ليس إنكارًا لصوت هؤلاء الذين "ترسخوا" بطريقة ما بتنسيق فيزيقي، واجتماعى وثقافي"؛ بل أهميتها لإدراك أننا إذا عرفنا "هم" "تكون المخاطرة أنهم منعوا فى ذلك الحين شبكة ما، وعملية ما للدوران" (1997:762).

نفترض لأغراض التحليل التاريخى أن الحدود الفضائية مشروطة وليست علامة على الاستقرار أو الجذور المحلية[١٢]. ويظهر بحث مجالات دوران السلع والتشكلات الأيديولوجية هذه التدفقات التي" تجاوزت الحدود محددة لنا استعادة الأحداث الماضية عن طريق الدول أو دراسات المنطقة" (Subrahmanyam 1997: 759). ويقول سوبراهمانيام: هناك ضرورة ليست مقارنة فقط من داخل صناديقنا؛ لكن أيضًا إنفاق بعض الوقت والجهد لتجاوزها، ليس بالمقارنة وحدها لكن عن طريق البحث بعيدًا عن أوقات الضعف التى شكلت خيوطًا ارتبطت بالكرة الأرضية، حتى الكرة الأرضية

وصلت لهذا التحديد "(2-761 :1997). وبتشكيل مناقشة من أجل "**تواريخ مترابطة**"، يمدنا سوبراهمانيام Subrahmanyam بابتكار وإنتاج طريق بعيدًا عن فخ: أن كثيرًا من التاريخ العالمى عالق من ناحية بين مخطط تطورى عالمي، يضع الاختلافات داخل تسلسل هرمى خاص يعتمد على استخدام نموذج، أو من ناحية أخري، بين ثقافة دخيلة نسبيا، وحيث التشيؤ ومنح الامتياز للاختلاف. ونحن نستطيع عن طريق إعادة التفكير حول الحدود، سواء الفضائية أو الزمانية؛ أن نجيز لأنفسنا "إعادة رسم الخرائط التى تظهر إشكاليات نرغب فى دراستها بدلا من تلفيق إشكاليات حتى تلائم الوجود القبلي لخرائطنا" (Subrahmanyam 2005 b:4)

وإذا كانت الخرائط المهيمنة على التأريخ الغربى قد نقدت بفعالية عن طريق منظرى نزعة ما بعد الاستعمار، كما افترضت فى هذا الفصل أن لديهم تأريخ نزعة ما بعد الاستعمار الذى يعيد إنتاج بعض أشكال التسلسل الهرمى المساوية فى تمثيلها الخاص للتاريخ من منظور موضوعات المهمشين. وتجيز "**التواريخ المترابطة**" تفكيك أشكال السرد المسيطرة كما تكون مباحة للمنظورات المختلفة وتنشد استمالتها نسقيًا فى سياق إعادة تشكل المقولات النظرية وفى دمج بيانات وبراهين جديدة. وسوف أناقش- فى الفصلين التاليين- تشكلات الحداثة المهيمنة فى علم الاجتماع الغربي، وعلم الاجتماع بصفة خاصة، قبل التحول لإعادة النظر فى الدليل الذى يتحدى فكرة الحداثة بوصفها جنينًا من رحم المشروع "**الأوروبي**".

الفصل الثاني

الحداثة الأوروبية والخيال السوسيولوجي

شهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر - كما سأفصل فى هذا الفصل- شكلا خاصًا من الفكر الذى من شأنه أن يوفر الأساس النظرى لرؤية الحضارة الغربية لعلاقاتها بالمجتمعات والشعوب الأخرى. وقد تمثلت الخصائص الأساسية للنموذج النظرى الناشئ فى شقين: الأول- فرضية وقف القطيعة مع الماضى وجعل العالم الحديث يختلف عن العالم الذى سبقه وما بعده. والثاني- فرضية تفرد "الغرب" فى تكريس الشكل المميز لمجتمعه. فكما يجادل هايدن وايت Hayden White؛ فقد أدخلت هذه الطريقة من التفكير علاقة الغرب ليس بالثقافات والحضارات التى سبقته فحسب؛ بل أيضًا تلك المعاصرة معه فى الوقت، والمتجاورة معه فى المكان (1980:2). ويحدد هذا الفصل التحولات فى الفكر الاجتماعى التى كانت أساسية للتحول فى هذه الطريقة من التفكير؛ ولتحقيق هذه المهمة سنناقش كيف أصبحت هذه التحولات جزءًا لا يتجزأ من علم الاجتماع كتخصص.

وبغض النظر عن اختلافاتهم الأخرى؛ فإن كل من: دوركايم، وفيبر، والمنظرين الأوائل، أمثال: سان سيمون وكونت قد أقنعوا أنفسهم أنهم يعيشون عبر تحول كبير فى التاريخ، وكانوا مهتمين بفهم كيف بدأ، وكيف أن تأثيره صاحب إتمام اكتماله. فرغم أن لديهم تأويلات مختلفة "للحداثة"؛

فإن هذه التأويلات - كما علق وانجر Wanger- كانت ملحوظة من خــلال التميز التصورى الواضح قبل وبعد (2001b: 84). لقد كان التــاريخ يُفهــم كأحداث عبر مراحل؛ حيث تكون كل مرحلة متقدمة عن سابقتها. حتـــى إن محاولة فيبر لتجاوز التفسير الأحادى المباشر للتطور التاريخي- لم تتجنــب التقييم المتحيز للغرب الذى فُهم على أنه فى أعلى درجة من التطور. وهو ما سيناقش لاحقًا فى هذا الفصل.

لقد أصبح تفسير علم الاجتماع للحداثة (وعمليات التحديث، وهــو مــا سأناقشه تفصيليًا فى الفصول التالية) يقع فى سياق المطابقة لمجال اجتماعى متميز والفهم التاريخى لأشكاله؛ حيث يُعتقد أن كــل شــكل مــن التنظــيم الاجتماعى يحل الأعلى منه محله تدريجيًا. وبناءً على ذلك؛ فإن هدف علــم الاجتماع الرئيسى انصب على التمييز بين الأبنية الاجتماعية المهمــة فــى تنوعها التاريخي؛ مما أدى إلى ظهور "علم" مقارن للمجتمعات. لقد ارتــبط التحول المبدئى لما هو اجتماعى فى المقام الأول بعمــل منظــرى التنــوير الأسكتلندي، من أمثال: فرجسون، وسميث، ومنظــرين فرنــسيين، مثــل: مونتسكيو وتورجوت Turgot. ومع ظهــور هــذا الفهــم المؤيــد للنظــرة السوسيولوجية؛ فإن الاهتمام بالظهور التاريخى لخصائص الأنواع المختلفــة للمجتمع البشرى حل محل ما كان فى السابق موضوعًا فلسفيًا مع اكتــشاف الخصائص الدائمة الثابتة للحياة البشرية وقوانينها الطبيعية. وسأبدأ تناولهــا بمناقشة فكرة مراحل المجتمع فى عمل المفكرين الفرنسيين والأسكتلنديين.

(١)

إن تطور الفهم "**الاجتماعي**" على نحو مختلف كان اســتمرارًا لحركــة فكرية أوسع نطاقًا فى القرن الثامن عشر عُرفت بالتنوير وارتبطــت عــادة بكتابات: هوبز، ولوك، وبيكون. وفى حين أن العديد مــن العلمــاء رأوا أن التنوير يجب ألا ننظر إليه باعتباره ظاهرة أحادية متماسكة؛ فإن هناك اتفاقًا عامًا أن أهميته، فى جزء منه على الأقل، تستند إلى إنشاء إطار عمل يتم فى داخله تحديد موقع المحاولات الفكرية (انظر Hawthorn 1976, Gay 1969). لقد أدت نجاحات وفشل شخصيات. مثل: نيوتن وبويل Boyle فــى العلــوم الطبيعية فى القرن السابع عشر إلــى دعــم فكــرة أن المجــال الــسياسى والاجتماعى يجب أن يُفسر أيضًا من خلال مناهج عقلية وعلمية. وعلى وجه الخصوص؛ فإن إنجازات نيوتن فى شرح وجود مبادئ "**طبيعية**" و"**شــاملة**" اُعتبرت تحديًا وقدمت نموذجًا للبحوث الاجتماعية والسياسية يجب محاكاتها (Heilbron 1995, Berry 1997)[١] وبهذه الطريقة؛ فإن التركيز العلمى السابق على الدين سيبدل تدريجيًا بالتركيز على العقل والعلم، أو الفلسفة الطبيعية كما كان معروفًا فى ذلك العصر. وبذلك، فإن حركة التنوير تحدت ادعاء الكنيسة للمعرفة، وساهمت فى تقويض سلطة اللاهوت على أنه المــصدر الرئيــسى للتفسير.

لقد افترض العلم -الذى تطور فى هذه الفترة - أن الطبيعة شفافة، وأنها شيء يمكن "**قراءته**" وترجمته. وكما كتب باجدن Pagden؛ فإن مــآثر علــم الفلك والملاحة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر نتج عنها اختــزال جزء من الكون فى شكل خرائط، وعلوم طبيعية أصبح يُنظر إليها على أنها

تخطيط للعلاقة لمجموعة سياقات عالمية ينتمي إليها كل شيء حتى الإنسان (1993:45). وعلى سبيل المثال: فإن كتابات مونتسكيو فى أربعينيات القرن الثامن عشر قد لاحظت أن البوصلة فتحت الكون مع اكتشاف أمريكا، وهذا بدوره مكن آسيا وإفريقيا من الارتباط بأوروبا (369 : 366 [1748]1965). وهذا الفهم المتعلق بالقدرة على اكتشاف **"الكون فى حالة فوضى"** سهل توجه العلوم نحو التجريب المنهجى واستنباط قواعد ومبادئ عامة تحكم الطبيعة والسلوك البشرى (Berry1997:56). والاعتقاد أن الطبيعة –وبما فى ذلك الطبيعة البشرية – كانت هى نفسها على نحو متماثل مما أتاح للمفكرين فى عصر التنوير محاولة مقارنة أنواع السلوك البشرى عبر الزمان والمكان مع الاهتمام الخاص بالاختلافات فى السياق (68 : Berry 1997). وقدم الالتزام بالتماثل فى الطبيعة البشرية أساسًا لإنشاء إطار عمل شامل داخله يكون **"التنوع الشامل واضحًا فى روايات الرحالة وسجلات المؤرخين"** (Heilbron 1995:55) وهو ما يمكن تحديده وتفسيره.

ومع المعرفة التى تعتبر أنها اُكْتُسِبَتْ بمرور الوقت من خلال البحث الأمبريقى وتراكم المعلومات، توفر المزيد من البيانات المكتسبة التى تؤدى لمزيد من المعرفة. ولقد حولت حتمية الوصول للكمال جنبًا إلى جنب النزعة التنظيمية محور اهتمام الفلسفات نحو وضع تصنيف للمجتمعات البشرية المتنوعة المعروفة (Jacques1997). وركزت الأشكال الجديدة للتنظيم والتصنيف التى بدأت تتطور على الأفكار النظامية السببية، ووجود معايير عالمية قابلة للتطبيق عبر مختلف المجتمعات والأنماط الاجتماعية للتنظيم. وفى حين أن الطبيعة البشرية كانت تفهم عادة على أنها ذات كيان مستقل عن

العلاقات الاجتماعية وسابقة عليها. وفى هذه الفترة؛ فإن المجال الاجتماعى المتميز عن الدولة، أصبح ينظر إليه على أنه موقع مناسب للبحث، كما أن تركيز الفلسفة على التحرر الإنسانى من الخرافات كان مؤسسًا ضمن ما أصبح موضوعًا لعلم الاجتماع الذى يهتم بالمجتمع وتطوره.

يعد تطوير مفكرى عصر التنوير الأسكتلندى نظرية المراحل للتاريخ أحد الحلول لمشكلة استيعاب الاختلاف داخل إطار عمل شامل. وَرُغْمَ أن هؤلاء المفكرين لم يكونوا وحدهم من درسوا تنوع الممارسات الاجتماعية والمؤسسات الموجودة فى العالم؛ فإنهم أول من "**حاول وضع هذا التنوع فى نوع من الترتيب**" (Berry 1997 :88)، وتعد الفكرة الأساسية لنظرية المراحل للتاريخ هى الفكرة التى انتقيت وطورت بواسطة علم الاجتماع وتتمثل فى "**إن المجتمعات شهدت تطورًا من خلال مراحل متتالية قائمة على أنماط مختلفة من البقاء**" (Meek 1976 :6). ولقد فُهمت هذه المراحل بشكل عام على أنها تطور من مرحلة الصيد والجمع والالتقاط، إلى المرحلة الرعوية، إلى الزراعة والاستقرار، ثم إلى التجارة. وفى حين أن المراحل تُعد متدرجة، وفيها تمثل كل مرحلة تطورًا على ما سبقتها، وتعد المرحلة النهائية للمجتمع التجارى مرحلة متميزة ووجدت على نحو متزامن مع أنماط أخرى من البقاء. ولقد كان الهدف الأسمى لمفكرى عصر التنوير هو تحديد طبيعة محلية لآثار ترتيبات اجتماعية معينة ومحاولة فهم كيف يمكن تعديلها لإنتاج آثار "**أفضل**". ولقد سعى مونتيسكو –على سبيل المثال – ([1748] 1965) فى مؤلفه الكلاسيكى "**روح القوانين**"(*) إلى إثبات أن الأفراد كانوا نواتج

(*) تُرجم إلى العربية بعنوان "روح الشرائع" (المراجع)

لمجتمعهم، وهذه المجتمعات تباينت عبر الزمان والمكان. ولم يكـن معنيًـا بظروف الإنسانية فى صورتها المجردة؛ لكن بالأحرى ركز على خصوصية الأمم والثقافات التى تشكلت خلال جغرافيتها ومناخهـا وتقاليـدها وكـذلك ممارستها.

إن تعريف مونتيسكو للمجتمعات على أنها متكاملة ومكتفية ذاتيًا، وذات ممارسات اجتماعية مختلفة، ثم تفسيرها بواسطة عوامل، مثـل: المنـاخ أو الطبيعة أو التربة لم ترق لـ(هيوم) أو غيره من المفكرين فى عصر التنوير الأسكتلندي، مثل: فرجسون وسميث. ووفقًا لهم فإن الاختلافات بين الشعوب يمكن تفسيرها بواسطة دراسة الاختلافات بين الأنماط العديـدة مـن البقـاء والتصورات الخاصة للملكية الموجودة. وفى حين أنهم لم يعالجوا المواجهات الاستعمارية تحديدًا؛ فليس من الصعب أن نرى أن هذه المواجهات أمـدتهم بالبيانات فى العديد من الحالات(٢). وكما اقترح ميك؛ فإن التـوفر المتزايـد للدراسات حول طبيعة الهنود الحمر ومجتمعهم (نتيجة للغزو الأوروبي) الذى كان أساسًا لظهور فكرة المراحل التاريخية للتطور الاجتماعي. وبناءً علـى هذا؛ فإننى أفترض أن كتاب عصر التنوير الأسكتلنديين اتبعوا فرض لـوك القائل: "**كان العالم بأسره فى البداية هو أمريكا**" (236: [1689] 1764)؛ ثـم حاول تحديد المراحل اللاحقة التى من خلالها كان على الإنسانية أن تجتازها قبل الوصول للظروف الراهنة للمجتمع التجارى والمتمدن.

يرى فرجسون مثلا ([1767]1966): أنه – فقط – من خـلال دراسـة المجتمعات الوحشية والبربرية المعاصرة يمكن استخلاص استنتاجات علـى تأثير المواقف المختلفة حول "أسلافنا". كما كتـب فرجـسون: "**إن سـكان**

بريطانيا فى ذلك العصر من الغزو الرومانى الأول" يشبهون فى أشياء كثيرة، سكان أمريكا الشمالية الأصليين حاليًا. وفى ظروفهم الحالية إذن– كما لو كنا ننظر فى المرآة، فإن خصائص أسلافنا عليها أن تخرج باستنتاج عن تـأثير الأوضاع التى نظن أن الآباء كـانوا فيهـا (80: [1767] Ferguson 1966). وحتى عند رفض احتمالية معرفة ما هى بالضبط الأصول الدقيقـة لـسكان الأمريكتين، فيجب – كما يرى روبرتسون Robertson– أن تُدرس لإكمـال تاريخ العقل البشرى (49: [1777] 1818). ويقترح أن ذلـك كـان الممكـن الوحيد عن طريق دراسة الناس كما يوجدون فى المراحل المختلفة للمجتمع، ويجب اعتبار سكان الأمريكتين "أول شكل يمكننـا تـصوره فـى الوجـود (50 : [1777] 1818). وبذلك ساهم كل من: فرجسون وروبرتـسون فـى الاعتقاد المتنامى بأن "السفر فى الفضاء يعنى أيضًا السفر فى الزمان؛ حيـث إن الآخرين الذين واجهوهم كانوا نسخًا أقدم من أنفسهم (16: Fox 1995).

ويعزو فرجسون ([1767] 1966) فى مؤلفه حول تـاريخ المجتمـع المدنى تطور شعب معين إلى تقسيم فرعى للمهام الموزعة داخله، ومراحـل تاريخية اعتبرت متتالية وتطورية، وتبلغ ذروتها فى المجتمع "**الحديث**". وفى حين اعتقد فرجسون – شأنه شأن مونتيسكو– أن العوامل المادية لعبت دورًا فى تمكين وجود فروق بين المجتمعات، وكانت المتغيرات التـى اعتبرهـا جوهرية متغيرات اجتماعية، أى طبيعة الأنشطة الاقتصادية وسمة العلاقات الاجتماعية. وعلى وجه الخصوص، فقد اعتبر قضايا الدفاع الوطني، وتوزيع العدالة والحفاظ على الرخاء الداخلي، كمقاييس رئيسية تميز بين المجتمعات البشرية (135: [1767] 1966). حتى العوامل المادية محل المناقشة عولجت طبقًا لتلبية حاجات البشر واحتمالات التطور الاجتماعى الناتج. وعند مناقشة

المناخ أو توفر أرض خصبة – على سبيل المثـال- وجهـت ملاحظـات فرجسون نحو ما يمكن أن تمكن هذه الظروف للأفراد من القيام به وإنتاجه. فقد نظر إلى الأرض التى تحتاج استثمار عمالة ومهارات على أنها شـرط للأفراد كى يحتفظوا باقتصادياتهم، ويزيدوا من صناعتهم، ويحسنوا فنـونهم (Ferguson 1966 [1767]:142). وهذا بدوره سيكون له نتائج محتملة لتحويل نمط البقاء من الزراعة إلى التجارة من خلال تراكم الثروة الناتجة من خلال تزايد نشاط الصناعة ودمجه فى الملكية الخاصة.

يتضح ارتباط زيادة الثروة بتطور المجتمع للغاية فى أعمـال سـميث (1863 [1776])، وتورجوت Turgot (1973 [1776]) فقد أشار كل منهمـا إلى تقسيم العمل باعتباره أساسيًا فى **"تحويل الأرض إلى حـساب"** والنمـو الناتج لتبادل السلع وتراكم "الثروة المنقولة" – أى المال- وبالنسبة لتورجوت، كانت هذه السلعة هى العبيد (134,45 [1776] Turgot 1973) ومـا إن ينـتج فائض للثروة المنقولة، يتأسس احتياطى من **"رأس المال"**، ويقترح تورجوت أن هذا الاحتياطى يمكن حمايته كتأمين ضد مستقبل يسوده الشك، أو يمكـن استخدامه لتحسين الصناعات التحويليـة ومـشروعات صـناعية (150,151 [1766] 1973) ويختلف تورجوت عن سميث فى ضـوء تركيزهمـا علـى الأرض والعمال –على التوالى – ككيان منتج للثروة؛ لكن فى كلتا الحالتين؛ فإن التفسير الرئيسى هو التفسير الداخلي. والمعنى الضمنى هو أن الاستفادة من العمالة المستخدمة فى الأرض ينشأ مبدئيًا فى شكل رق الأرض (مبـرر فى حالة تورجوت بواسطة ملكية الأرض كأصول منتجة) والتى يمكن نقلها إلى عمالة ذات أجور. ونسب ظهور التجارة – حينئذ – بصفة عامـة إلـى طريقة تحقيق الفائض بعد إنشاء الزراعة وكذلك زيادة تقسيم العمل.

وعلى هذا النحو؛ فإن ظهور مجتمع قائم على التجارة لم يعد **"نتاج قوى خارجية، مثل: ضغط السكان على الموارد"** (Berry 1997 : 97) بل بالأحرى، اعتبر إعادة تنظيم داخلى للعلاقات الاجتماعية المنتجة وتراكم الثروة المنقولة. ومع تزايد ثروة بعض الأمم، بدأت بعض الدول فى التطور اقتصاديًا، واقترح أن ذلك حدث؛ لأنه فى داخل إطار هذه الأنماط المتغيرة للبقاء، وكانت هناك زيادة تدريجية فى تقسيم العمل، وتبادل السلع، وتراكم رأس المال (Meek 1967: 222). ولذلك فإن المجتمع التجاري، فى حين أنه يشير إلى صورة متميزة من المجتمع؛ فإنه لم يعد حقيقة متميزة فى الواقع بالطريقة التى اقترحها بعض الكتاب فى مرحلة لاحقة مع الحداثة والمجتمعات الحديثة. فقد جلب التوسع الذى أصبح متاحًا بواسطة الأنشطة التجارية، فى أعقابه المزيد من التحولات الجوهرية أكثر مما حدد بداية فى نظرية المراحل التى ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بمعالجة العلاقات الاستعمارية ضمن نظريات الحداثة. وفى حين أن العلاقات الاستعمارية لقت بعض الاعتراف فى المناقشات الأولية للمجتمع التجاري؛ فإنها أصبحت ضعيفة إلى حد الاختفاء كفكرة مجتمع تجارى يتصدى إلى **"رأسمالية صناعية"**.

(٢)

وفى حين أنه من المقبول أن تعريف **"الثروة المنقولة"** ورأس المال شمل كلا من المال والعبيد؛ فإن المناقشات حول موضوع العبيد محدودة فى كل من عمل منظرى ذلك العصر وما تلاهم من معلقين[٣]، ويشير تورجوت (1973 [1766]) باختصار إلى جانب امتلاك العبيد كونهم عنصرًا لامتلاك

الثروة، لكنه لا يتوسع فيه، ولا يستخلص آثارًا لتحليلات لاحقة منه. وفى الغالب، عندما يناقش الكتاب فى تلك الفترة العبودية؛ فإنهم يقومون بذلك كسمة للمجتمعات العسكرية القائمة على زراعة مستقرة ويستمدون أمثلتهم من الإغريق والعصور الكلاسيكية؛ وليس من الاستعباد القائم الذى ربما شاهدوه فى ظهور الأشكال الجديدة من المجتمع التجارى والذى اعتقدوا أنه سيحل محل ذلك القائم على الزراعة المستقرة. وفى حين أن العلماء اعترفوا بظروف العبودية حينئذ؛ فإنهم فعلوا ذلك أساسًا فى سياق وجودها باعتبارها ممارسة فى العالم القديم، أو بوصفها نظيرًا للأشكال المعاصرة للممارسات (مثلما فى المراجع الماركسية الأخيرة للعمالة المجانية على أنها من صور العبودية).

ولقد حدث فى منتصف القرن الثامن عشر أن أنتجت نسبة كبيرة من البرجوازيين الأوروبيين بقوتهم الاقتصادية الكبرى ثرواتهم وراكموها على أساس الأنشطة التجارية المرتبطة بتجارة العبيد وغيرها من أشكال التجارة مثل "تجارة الفراء"[٤]. وكان من الشائع للأفراد الاستثمار فى هذه الأنشطة التجارية حتى ولو كانوا من أنصار إلغاء الرق. ومن أمثالهم لوك الذى استثمر ماله فى مشروعات تجارية تعتمد على الرق لتوليد عائد من تلك الاستثمارات، وفى الوقت نفسه كان مناهضًا لتجارة العبيد.[٥] ويرى جلوسر Glausser (1990) أنه رغم معارضة تجارة العبيد؛ فإن لغة لوك أكثر رمزية منها حرفية، بمعنى أنه يشير إلى أن لوك عارض تجارة العبيد بصفة عامة، وليس ممارستها فى مجتمع معاصر بعينه. وقد تكرر هذا الاتجاه إلى حد كبير لدى مفكرين لاحقين سنناقشهم هنا.

ويعتبر مونتيسكو من بين أوائل من ناقشوا تجارة الــرق فــى عــصر التنوير، وهو بذلك يستخدم السخرية والتهكم عند عــرض قــضية إلغائهــا[٦] وكتب تورجوت صراحة عن "**عادة تجارة الرق البغيضة**" ولاحــظ أن هــذه اللصوصية وهذه التجارة لا تزال سائدة بكل ما يصاحبها مــن رعــب علــى سواحل غينيا بتحريض من الأوروبيين الذين ذهبوا إلى هناك لشراء الزنــوج لزراعة المستعمرات الأمريكية (130 [1766] 1973). وقد لوحظ هذا التعليــق إلى الحد الذى جعل تورجوت يعالج الممارسات المعاصرة للعبودية. وفى هذا الجانب؛ فإن مناقشة فرجسون عن تجارة الرقيق تتم أساسًا فى ســياق الفــساد والعبودية السياسية؛ حيث تحدث عن الحرية التى تغلبت على الهمجية لهــؤلاء البربر المناقضة للشعب المتحضر. وفى مكان آخر؛ فــإن العبوديــة كانــت تعتبر جانبًا من ثقافة الإغريق القديمة ثم فى ممارســات الاســتعباد المحليــة (8,115 -184 [1767] 1966). وفى نظرية العواطف الأخلاقية؛ يشير سميث إلــى العبودية مرة واحدة، فى سياق ممارستها داخل الثقافة الإغريقيــة فــى العــصور القديمة (2– 281 :[1759] 1982). وفى كتابه "**ثروة الأمــم**" فــى فــصل "**إعاقــة الزراعة**"، يدمج مناقشة الرق وعمالة الرقيق، ثم هناك مشاركة جوهريــة نــسبيًا فى أنشطة الرق والمستعمرات فى الأمــريكتين (89-170-6.249 : [1776] 1863): إلا أن كلتا الإشارتين وضعتا فى إطار دراسة العبودية فى العصور القديمة.

يهتم التنوير بالحرية – بالضرورة – النابعة من الاهتمام بنقائــضها أى العبودية. كان هو الحال فى ضوء مشكلة التوفيق بين ممارسات الــرق فــى المجتمع القديم؛ حيث المجتمعات القديمة وتفاهماتها الذاتية الفلــسفية كانــت موردًا مهمًا للتفكير حول المشكلات المعاصرة للتنظيم الاجتماعى والحكومة.

حل ذلك جزئيًا، من خلال تطوير نظرية مراحل للتاريخ ظهر فيها الرق على أنه يرتبط بالمجتمعات الزراعية المستقرة، ويجب إلغاؤه فى سـياق عمليـة التحضر التى نجمت عن ظهور المجتمع التجـارى (Berry 1997: 129)(٧). ويفيد هذا التركيز على الرق فى العالم القديم غرضين مرتبطين؛ فهو يصور الرق كممارسة للعالم القديم، مرتبطًا بنمط الإنتاج الزراعى المستقر للإنتـاج فى الأشكال الأسرية الممتدة (Oikos). وهذا – بدوره – يمكن من ينظر إلى الرق فى المجتمع المعاصر على أنه من رواسب مرتبطة بالنمو الزراعـي، وصور مرتبطة بالعمالة غير الحرة، مثل: الرق، والسخرة، وإلغاء الرق فى **"العالم القديم"** مع ظهوره فى العالم الجديد. ومع ذلك ليس مطلوبًا أن تُعـالج الصور المعاصرة للرق فى سياق ظهور المجتمع التجـاري؛ لكـن كونهـا ممارسة تختلف عن المجتمعات السابقة والتى ستتقلص مع اتساع التجـارة، وفهم المجتمع التجارى كمجتمع رأسمالى صناعي.

ولم يعالج أى من المفكرين المعنيين هنا الرق كنتاج للمجتمع التجاري، أو أنه مكمل لعمله؛ لذا يحتاج الأمر إلى التفـسير والـدمج فـى تفـسيرات المجتمع التجارى ذاته؛ رغم الأهمية الاقتصادية للأنشطة التجارية المرتبطة بالرق وسائر الأشكال الأخرى لنزع الملكية، وأى تناقض بين الفكر والسلوك أى تعايش الفكر المتحضر ذاته والموجود داخل المجتمعات التـى مارسـت الرق يمكن وضعه خارج الخطة التى وُضِعَت، ولم تتطلـب اتخـاذ قـرار بشأنها. وبقدر ما يعتبر نمط البقاء هذا أسلوبًا تجريبيًا استكشافيًا، فقد تمكـن هؤلاء المفكرون من الاعتراف بوجود اختلافات بين مخططـاتهم وظـاهرة الرق الملحوظة ونزع الملكية؛ لكن هذه الاختلافات لم تتطرق إلـى سـلامة إطار العمل لتصورهم الذاتى على أنها ظاهرة متحضرة ومهذبة.

(٣)

وفى الوقت الذى طور فيه المفكرون المختلفون للتنوير الأسكتلندى فهمهم بشأن الأفكار المختلفة لما كانت عليه المراحل؛ فقد صنف فرجسون على سبيل المثال: المجتمعات إلى وحشية، وبربرية، ومجتمعات مهذبة، ووصفها سميث بأنها مجتمعات صيد، ورعوية، وزراعية وتجارية. ورغم ذلك فقد صورها الجميع على أنها مراحل متتابعة فى تطور تاريخي. ومن المعتقد أن كل مرحلة أنتجت طرقًا خاصة للوجود، وللتصرف، وبناء شخصيات متميزة وسمات شخصية مختلفة. وكان يُعتقد أن تفوق المجتمع التجاري، على سبيل المثال: فقد بُرْهِن عليه عن طريق ارتباطه بمفاهيم المدنية، والأخلاق، وغرس الفنون ...الخ.

يستند تزكية المجتمع التجارى إذن، إلى تراكم وتوزيع الثروة عبر الطبقات الاجتماعية، حيث استطاع جميع أعضائه الاستمتاع بمستوى معيشة أفضل مما كانوا عليه (Smith 1863 [1776] 181: 7). وبجانب الثروة؛ كانت الحرية هى السمة الرئيسية الأخرى التى تعزى إلى المجتمعات التجارية. وقد رأى سميث أن أعضاء المجتمع التجارى تمتعوا بحرية حُرم منها رعايا يعيشون داخل المجتمعات التى تميزت بأنماط أخرى من البقاء كفائض ناتج عن التجارة التى تجلب حرية الأفراد داخلها. إذن؛ فالحرية تكونت بشكل جزئى من القدرة على الاختيار، ثم التغيير لمهنة الفرد والقدرة على تحسين ظروفه من خلال تراكم الثروة.

ولقد كان المجتمع المتحضر - طبقًا لـ هيوم ([1752] 1875)- مجتمعًا فيه الملكية آمنة، كما يتسم بتشجيع الصناعة وازدهار الفنون، وأن تبدد روابط القرابة وتلك الخاصة بالولاء قد فتحت مجالا لتطوير أشكال عواطف طبيعية، ومؤانسة، وصداقة (انظر Silver 1990). وكان المعتقد أن الحضارة تحتاج إلى التجارة، والتجارة تعتمد على مجموعة توقعات ومعتقدات كما أنها تحتاج للاستقرار والأمن، وكما لاحظ بيرى التبادل الذى ينتج عن التخصص ويحتم التخلى عن حياة الاكتفاء الذاتى لصالح حياة مشتركة فيها الاعتماد المتبادل (1777: 125). ومن ثم يستند الاعتماد المتبادل إلى أشكال من التنظيم وإنشاء قواعد ولوائح لحماية الأفراد من عدم إمكان التنبؤ نتيجة للعلاقات الاجتماعية الحرة. واُعتبر تطور المدن أساسًا لتفكيك الروابط الفردية للتبعية الاقتصادية والخضوع الاجتماعى رغم أن الأفراد كانوا لا يزالون خاضعين للنسق الاقتصادى بصفة عامة، وكان من المعتقد أن للصناعة درجات من الحرية الاجتماعية التى لم تكن ممكنة سابقًا، وكتب هيوم بشأن العلاقة بين صقل الفنون وقوة الدافع للمؤانسة:

"إنها تتجمع فى شكل مدن، وحب تلقى وتوصيل المعرفة، والرغبة فى الحديث أو المعيشة، فى ثياب أو أثاث. والفضول يغرى الحكماء، والغرور للحمقى، واللذة لكليهما. وحيث تكونت نواد وجمعيات فى كل مكان، فيها يلتقى الجنسان بطريقة سهلة واجتماعية، وحيث تتهذب انفعالات الرجال، فضلا عن سلوكهم؛ حيث يشعرون بالمزيد من النزعة الإنسانية من عادة المحادثة والمساهمة فى كل متعة وتسلية. وهكذا؛ فإن الصناعة والمعرفة والإنسانية، مترابطون معًا بسلسلة غير قابلة للتجزئة...وهى مكونة من الخبرة وكذلك العقل؛ لتكون خاصة بالعصور الأكثر ترفًا ([1752]1875) وصقلا للفنون: 2-301).

كانت هناك مخاوف حول سمات الشخصية السلبية الناجمة عن هذه الأنماط الجديدة من البقاء. والتحرك بعيدًا عن التعاملات والعلاقات الشخصية فى المعاملات التجارية إلى العلاقات غير الشخصية المنتظمة ليس بواسطة الإحسان والعطف فقط؛ بل الاهتمام بمزايا الفرد ومصلحته الشخصية، ويعتقد أنها تزيد المسافة بين الأفراد وتفكك روابط الاعتماد المتبادل. وفيما يخص بعضَ الناس، ولدى فرجسون خاصة؛ فقد رأى أن ظهور المجتمع التجارى يؤدى إلى خسارة فى الروح، والتضامن، والشجاعة، ودلالة على نهاية الفضيلة ذاتها "**كمواطنين يحملون الأسلحة بحرية وأصبحوا على قناعة بأن يدفعوا أجور المرتزقة للدفاع عنهم**" (Pocock 1977). وكان المعتقد أن الابتعاد عن تكوين ميليشيات خاصة لحماية الأفراد سيؤدى إلى الطغيان والاستبداد العسكري، وفقدان الحرية. وكان يُنظر إلى الحرية، وكذلك الفضيلة، على أنها تعتمد على الأسلحة والزراعة، وفى تحديد مداها؛ تمت المقارنة بالعالم القديم. وكان المعتقد أن الحرية فى العصور القديمة نتج عنها مشاركة أكبر للأفراد فى الشئون العامة والسياسة؛ لكنها فشلت فى تزويد أى حماية ضد الاستخدام المتعسف للسلطة فى المجال الخاص. وعلى النقيض؛ فإن الحرية الحديثة تعزز استقلال الأفراد؛ ولكن تُوصِّلَ إليها على حساب التحرر النسبى من الحياة العامة، فى حين سادت المصلحة الخاصة (Fontana 1985).

أسس الباحثون الذين ذكرناهم أعلاه، فى معظمهم نظرية المراحل التى اُستخدمت، على حد تعبير ميك ليس فقط باعتبارها إطارًا لنظرية التنمية السوسيواقتصادية؛ ولكن بوصفه أساسًا لتقييم كل من الدولة الهمجية والمجتمع التجارى الحديث (1976:154). وقد كان مفهوم التطور من مجتمع لآخر

معياريًا وكذلك وصفيًا. ومع ذلك فإنه لم يكن مفهومًا واضحًا. وهذا الغموض، كما سأوضح - ضارب بجذوره فى علم الاجتماع أيضًا. لكنه ليس الغموض الذى يرفض وصف المراحل أو تمركزه الأوروبي؛ لأنه فى إحدى صوره يعد التطور قد ثبت وفى صور أخرى ينظر للخلف فى حنين لعالم قيود الخصوصية والروابط الموروثة التى قد فقدت.

والصراع بين من عارضوا ظهور التجارة ومن اعتقدوا أنها كانت جديرة بفقدان "**فضيلة الإنسان التجارى والزراعى لم تكن كاملة أبدًا**" (Pocock 292 :1977). علاوة على ذلك؛ فإن جميع نظريات التطور البشرى يجب الآن أن تؤخذ فى الحسبان فكرة - كما قال بوكوك - وأن التطور كان فى الوقت نفسه انحلالا، وأن الثقافة نتج عنها بعض الفقدان للحرية والفضيلة، وما ضاعف القدرات البشرية المتعددة قد شق وحدة الشخصية البشرية (293 :1977). وقد حاول رد الفعل الرومانسى على نظرية المراحل للتاريخ إصلاح تميز المجتمعات والثقافات خارج أى إطار عالمي. ونظر هيردر Herder (1969) على وجه الخصوص إلى التوفيق بين التفاهمات العالمية للإنسانية مع آراء خاصة عن الأمم والثقافات وتفكيك هذه الاعتبارات من عملية تقييم الأمم طبقًا لنظام تراتيبى معين. وهذا الصراع بين ما هو عالمى وما هو خاص يمكن أن يوجد فى لب ما أصبح عليه المشروع الاجتماعى الناتج والذى يهتم بوضع قوانين عامة موجودة بجانب الاهتمام بما هو خاص. وشكلت انقسامًا واضحًا فى علم الاجتماع بين ما سماه جولدنر (1973) طرائق "**الكلاسيكية**" و"**الرومانسية**" التى تتضح أكثر على أنها توجهات الحداثة وما بعد الحداثة.

ركز رد الفعل الأسكتلندى للمفكرين الأوائل على عصر التنوير، وركز على معارضتهم للنماذج المتطورة للمجتمع البشرى بناءً على تصورات مفترضة عن البشر. وبدلا من ذلك، يمكن اعتبارهم مدافعين عن منهج البحث "السوسيولوجي" فيما يعد التطور الطبيعى للأشكال الاجتماعية للتنظيم، - كما ناقشنا أعلاه - والذى يمثل بصفة عامة مجتمعات الصيد والرعى والزراعة، ثم المجتمعات التجارية (Swingewood 1970). ووجود نظام رشيد يركز على المجال الاجتماعى والإنسانية المشتركة، وعلى افتراضين وفرا أساسًا للاعتقاد أن جميع الأمم كان **"مقدرًا عليها المرور عبر نفس المراحل المتتابعة للتطور"** (Carrithers 1995: 246).

ويحذر ميك من النظر إلى نظرية المراحل للتاريخ كبديل افتراضى للبحث التاريخى الذى يرى أن إنشاء إطار نظرى كان **"نوعًا"** من التجميع لهذه الحقائق التاريخية حول تطور المجتمع كما كان موجودًا آنذاك (239: 1976). ومع ذلك فهو يقبل فكرة أن التسلسل التاريخى (والتقييمي) للعلاقة الناشئة بين مختلف أنواع الثقافة انبعثت عن ترتيب هرمى لثقافات معاصرة ليس لها أساس واضح. ورغم هذا الضعف، يعتقد ميك: أن الخطة لها قيمتها على أنها أكبر و**"أول تجسيد نظري... لمجموعة تصورات أوسع نطاقًا... أى فكرة العلوم الاجتماعية"** (242 :1976). ومن ثم تصبح الروايات التاريخية التعميمية افتراضًا أساسيًا للعلوم الاجتماعية، وتقدم فى شكل مبادرات نظرية فلسفية لاحقة. وسوف نناقش فيما بعد أن ذلك يمثل المشكلة على وجه الدقة، والأساس الواضح لفكرة المراحل التاريخية يظل ضعيفًا؛ لأن الفكرة تصبح جزءًا لا يتجزأ من الإطار التاريخى للعلوم الاجتماعية، والمطلوب هو إبراز هذا الإطار التاريخى من أجل تقييم ملاءمته، وهذه مهمة الجزء الثانى من هذا الكتاب.

(٤)

ويميز هيلبرون Heilbron (1995) التحويل بين الفلسفات والكتاب الأسكتلنديين في القرن الثامن عشر، ومن جاء بعدهم في القرن التاسع عشر مثل: كتابات سان سيمون، وأوجست كونت (الذى يعتبر أول عالم اجتماع)، باعتباره تحولا من النظرية الاجتماعية إلى العلوم الاجتماعية. ومع ذلك، ومن خلال الارتباط بأفكار المراحل التاريخية فهم علماء الاجتماع في القرن التاسع عشر العلاقة بين التاريخ والعلوم الاجتماعية. وما أن عُرف النمط العام للتطور التاريخي، اُعتقد أن مسار التطور للمجتمعات الأخرى يمكن التأكيد عليه بدون بحث مباشر؛ لأنه نُظِرَ إلى كل المجتمعات البشرية باعتبارها تتبع النمط ذاته الذى وضعته أوروبا (Lggers 1982:48).

وكما أوضح بيكر Baker، في حين أن كوندرسيه Condorcet نظر للتطور على أنه عملية تزايد غير خطى بشكل أساسي، وقد رآه سانسيمون على أنه تتابع لأنظمة عضوية اجتماعية كل منها مبنى على مبادئه التنظيمية الخاصة به (333 :1989). وبعبارة أخرى؛ فإن مختلف "**المراحل**" مثلت أبنية اجتماعية متميزة ومتكاملة ذات خصائص متمايزة ومشتركة. وقد نُظِّمَ هذا البحث عن طريق أداء مهمة فهم الخصائص النوعية للحداثة التى لم تظهر حتى الآن. وتُعرِّض بإيجاز لوجود القوانين الأساسية الحاكمة للمجتمع التى توفر حافزًا لاكتشاف هذه القوانين، وهذا ما أصبح محور البحث الاجتماعى فيما بعد. وحيث تكون العودة للقرن التاسع عشر غالبًا بمثابة نهاية التواريخ الظنية للتنوير (Wokler 1987:326)، ويمكن القول: إنه بدلا من السير إلى النهاية؛ فإن التاريخ الظنى ورثه علم الاجتماع ودمجه في فهمه الذاتى لمشروعه الخاص به.

إن الملاءمة الواضحة بذاتها لمنهج البحث تعززت جزئيًا بواسطة اللاحقة في "**المجتمع التجاري**" والإيقاع السريع للتغير الاجتماعي داخل أوروبا جزئيًا. واتضح على نحو متزايد: أن المجتمع التجارى كان يتطور بوصفه مجتمعًا رأسماليًا صناعيًا مع ما صاحب ذلك من قلاقل اجتماعية. وفى الوقت نفسه؛ فإن عملية إعادة التقييم للقيم التى بدأت مع انهيار النظام القديم استمرت عقب الثورة الفرنسية مما يشير إلى وجود ضغوط نحو الشمولية السياسية المتزايدة. وفى حين كان الاعتقاد أن المجتمع الصناعى المتطور سيقدم حلا للمشكلات السياسية لفترة ما بعد الثورة فى فرنسا؛ فلقد اعتبرت فى الوقت نفسه موضع المشكلات الناشئة التى تحتاج لحل. وكما اقترح هيلبرون: "**لقد كتب أوجست كونت وزملاؤه أعمالهم على وعى تام أن الثورة انتهت، وأن عصرًا جديدًا بدأ، واستمر عصر التصنيع**" (8 :1995).

وقد عزز هذا التركيز على المجتمع الصناعي، ومشكلاته الاجتماعية، فى رأيى الميل الواضح ضمن أفكار المجتمع التجاري، ومؤداها: أن المجتمع الحديث يمكن فهمه على أنه تطور داخلى المنشأ لأوروبا. وكذلك؛ فإن فكرة المجتمع الصناعى حلت محل تجارة الرق وغيرها من صور العمالة غير الحرة كقضايا محورية للحداثة. ورغم دمج هذه الأشكال للعمالة فى العالم الجديد والهيمنة الاستعمارية للقوى الأوروبية فى ذلك العصر؛ فإن التفكير النظرى تحول صوب الداخل حول مشكلات النظام الاجتماعى الواضحة داخل أوروبا.

وكان من المأمول أنه عن طريق توجيه البحث عن التكوين العقلانى على أساس مبادئ العلوم الاجتماعية، قد يمكننا من ضمان تحقيق الإنجازات السياسية عام 1789، وجعل الثورة تحت التوجيه المحكم للصفوة المستنيرة

(Baker 1989: 325). ورأى جرين Greene أنه على غرار سان سيمون فإن كونت اعتقد: أنه "**لا يمكن القيام إلا بالقليل لاستعادة الانسجام الاجتماعي والاستقرار السياسى حتى يُبْنَى نظام جديد من المعتقدات الإيجابية على أسس علمية**" (62 :1981). وحيث اعتبر أن العلوم الطبيعية "**نجحت فى إنشاء تقنين للظواهر الطبيعية**"؛ فإنها الآن أسندت لها "مهمة مماثلة لدراسة المجتمع" (Coser 1971:3). وفى حين أن علوم القرن الثامن عشر كانت تعتبر طريقة أخرى لفهم حقائق العالم؛ رغم تفوقها المتزايد، وحسب ما رأى كونت: فإن العلاقة بين العلوم ذات تطور تاريخى تراكمى بلغ ذروته فى علم المجتمع- أى علم الاجتماع (Hawthorn 1976: 74) ومن ثم يعتبر علم الاجتماع الحديث اختراع للثورة الفرنسية كما كانت الدولة الحديثة (Wokler 2002:70). وانبثق عن ظروف المجتمع الحديث وكذلك كصورة حديثة على نحو متميز لتفسير ذلك المجتمع.

استند نقد علم الاجتماع للظروف الكائنة إلى فهم أن الترتيبات الاجتماعية الأفضل لم تكن مرغوبة فحسب؛ لكنها نشأت تاريخيًا. والمشكلات التى استمرت فى أعقاب الثورة الفرنسية أُعتبرت محصلة استمرار المبادئ الميتافيزيقية العتيقة، مثل: أفكار القانون الطبيعى وحقوق الإنسان. وما هو مطلوب، وطبقًا لكونت ([1844] 1903) كان إدخال نسق معتقدات قائم على "الإيجابية" وعلى معرفة علمية موضوعية من شأنها أن تحل أوجه الخلاف والجدل التى تدمر المجتمع وتعيد بناء التوافق الاجتماعي. وفى حين أن الإجماع والتوافق كانا قائمين على الدين والمؤسسات الدينية فهما الآن قائمان على العلم. واعتقد كونت: أن التاريخ يحكمه تحولات مطردة من نسق معرفى إلى آخر - من اللاهوتى إلى الميتافيزيقي، إلى العلمي- وحيث يعتمد

كل تطور فيها على ما سبقها. ويشير هيلبرون إلى أن منهج كونت "**فى تكوين المعرفة كظاهرة تاريخية**" يستند إلى التخلى عن "**فكرة أن صدق المعرفة يمكن توكيدها بمساعدة مبادئ صادقة تاريخيًا وعالميًا**" (1995: 201). ونتيجة لذلك؛ اعتقد أنه يمكن اعتبار كونت أول من طور "**نظرية تاريخية متمايزة للعلوم**" (1995: 200).

إن علم الاجتماع – حسب رأى كونت ([1844] 1903) – لابد أن يصبح علم المجتمع وبدراسة الحياة الاجتماعية البشرية، يتخذ العلوم الطبيعية نموذجًا مثاليًا ليستخدم المنهجية العلمية التى أُعتبرت ضرورة لاكتشاف أو الكشف عن أنماط (أو قوانين) التطور التاريخي. وحيث اعتقد كونت أن "**العلوم الطبيعية اختلفت فى موضوعاتها ومناهج بحثها**"؛ فقد اقترح أن "**العلوم الاجتماعية أيضًا يجب أن تكون مستندة إلى سمات معينة لأهدافها**"(Heilbron1995:225). وتعتمد المميزات الرئيسية التى تمايز بين البشر عن باقى العالم الطبيعى على "**ذكائنا وميلنا للاجتماع**"، والأهم عند كونت هو بناء أفكار علينا دائمًا أن نقترب من تحقيقها وإن استحال ذلك فعليًا(1903 [1844]: 95-6). كذلك؛ فإن قدرتنا على التعلم من الماضى تشير إلى أنه: "**إذا أردنا للعلوم الاجتماعية أن تكون علومًا حقيقية يجب أن تكون مستندة إلى القانون التاريخي**" (Heilbron 1995: 226). وقد نُظِرَ إلى هذا القانون على أنه يحكم تطور البشرية وقد مثلت الحقب التاريخية المختلفة "**التطور الأساسى نفسه، وكل مرحلة تنتج عما سبقتها، وتعتبر إعدادًا لما يليها**" (Comte1903[1844]:97). والمجتمعات المختلفة إذن، كانت تغيرات متباينة لنمط عام– وهذه الفكرة للتطور التاريخي– للحداثة أو النزعة العقلانية

المطردة- التى أحاطت أعمال العلماء الاجتماعيين فى القرن التاسع عشر (Lggers1997). وإذا كان علماء الاجتماع المعاصرون نسوا إلى حد كبير أعمال كونت، أو اعتبروها **"دين للإنسانية"** غُرس اجتماعيًا؛ فإن تراثه استمر يحدد حساسية محدثة للتراث الاجتماعي.

ألغى التنوير - بالفعل - الدور الشرعى للتراث والإدارة والتنظيم الاجتماعى التى اعتبرت على نحو متزايد عملية موجهة من أعلى عن طريق أناس معترف بهم. وفكرة التطور ارتبطت بدايةً بتطور العلوم، ثم بالتطبيق المطرد للعلوم فى الصناعة والمجتمع بصفة عامة. وتحولت صورة الثورة الصناعية، فى شكلها الأولى فى فرنسا، إلى نموذج عبر بحوث سان سيمون وكونت (Kumar 1978:46). ولم يكن ذلك مجرد وصف لواقع موجود بالفعل؛ لكنه كان **"دليلا للعمل السياسى والإصلاح الاجتماعي"** (Badham 1984: 7). وأنشأت هذه التحركات فهمًا للمجتمع ككيان منظم داخليًا يهمل العلاقات الخارجية فى تكوينه. وفُهم المجتمع الصناعى فى ضوء كونه داخلى المنشأ بالسوق الذى يميز الدولة، والعلاقات الإمبريالية والاستعمارية التى شكلته كجزء من السوق العالمى لصالح تحليلات محدودة.

وفى التحول من النظرية الفلسفية إلى الاجتماعية للمعرفة، يحل المجتمع الإنسانى باعتباره موضوعًا للمعرفة محل الفرد، ورُكِّزَ على العلاقة بين الفرد والمجتمع (Elias 1978:38). وقد شكل ذلك فى فترة لاحقة مشكلة تعريف المجتمع، وإنشاء معاييره التى تميزه عن المجتمعات الأخرى. ولم يرتبط - إلى حد ما - فهم العلماء الأوائل للنظرية الاجتماعية بفهمهم للدولة، ويشير هيلبرون إلى **"فكرة أن البشر يمكن أن يُفْهَمُوا من خلال الترتيبات**

الاجتماعية التى يصنعونها" يعنى أن المجتمعات الحديثة ليست "**من نفس نـــوع الوحدات "كالدول**" (1995:19). ومع ذلك؛ فإن المدى الذى يكون فيـــه ذلـــك الوضع فى حالة التطبيق يكون مثار شك؛ حيث واصل معظـــم المنظـــرين الاجتماعيين تحديد تصوراتهم عن المجتمع فى ضوء الحدود القومية. وبعد عام ١٧٨٩، بدأت النظرية الاجتماعية ككل فى اكتساب المزيد من التأكيـــد القومى بالمُثل العالمية لعصر التنوير وإتاحة الفرص للتعبير عن المزيد مـــن المشاعر "الوطنية" (Heilbron 1995: 111). ويمكن إدراك ذلك فى طريقـــة تناول الأسئلة داخل سياق العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني.[٨] وحددت هذه العملية ما هو اجتماعى على أنه ظاهرة متماسكة داخليًا يمكن فهمها دون أى إشارة للعلاقات الخارجية مثل النكبات الإمبريالية أو الاستعمارية التى كانت تتم فى ذلك الوقت. ومضمون هذه التفاهمات ستتطور أكثر فـــى الفـــصول اللاحقة[٩].

ومحور اهتمام علم الاجتماع الكلاسيكى حول مؤســـسات الدولـــة وخلـــط المجتمع مع حدود تلك الدولة لا يثير الدهشة عندما نتـــذكر أن فتـــرة ظهـــوره تزامنت مع تكوين الهياكل التنظيمية للدولة فى عملية توحيد الأراضـــي، كمـــا حدث فى إيطاليا، وألمانيا، أو يعيد تشكيلها بحلول جمهورية تمخضت عن أزمة سياسية عميقة فى فرنسا (Wagner 2001:18). وخلال أوائل القرن التاسع عشر أصبحت نظريات العقد الاجتماعى والسيادة الشعبية محوريـــة لفهـــم الـــشرعية السياسية وتأسيس الدول. ولم يعد ينظر إلى الأمة كوحدة قانونية محددة ذات نظم ومؤسسات وذات ملكية مطلقة على القمة"، وبدلا من ذلك فُهِمـــت علـــى نحـــو متزايد على أنها تتكون من قطاعات عديدة منظمة لتكون كل معقد نوعيًا. هـــذا

النمط من الوحدة المتمايزة لم يكن "دولة" و"مجتمع" (Heilbron 1995:92). ويتيح تحديد الشخص ذى السيادة فى الدولة التعرف على الدولة وشعبها اللذين يعتبران – حينئذ– أمة، وتصبح مشكلة السياسات هى مشكلة اكتشاف "المصلحة العامة الحقيقية بين مجموعة كبيرة من المصالح الخاصة (1995:211 Bartelson). ويُنظر إلى السيادة الشعبية على أنها قوضت الفرق بين الدولة والمجتمع، لكن عند دمج الاثنين، تضعف الفروق بينها بواسطة المجتمع؛ المحلى أو المجتمع العام المعروف على نحو أكثر عمومية أى موقع مسئولية الدولة. ومع تحول اهتمام الدولة نحو المجتمع المسئولة عنه؛ حولت النظرية الاجتماعية اهتمامها إلى الدولة باسم ذلك المجتمع. وبذلك يصبح علم الاجتماع جزءًا محوريًا من مشروع تحديث الدولة.

(٥)

لعل فى عمل دوركايم (1964 [1983],1992[1937]) أصبح ارتباط المجتمع والدولة ملحوظًا. لقد عُرف المجتمع أنه مجال: "للوقائع الاجتماعية"، مناسب للبحث الإمبريقى فى علم الاجتماع، وأعتقد أن له تنظيمًا محددًا وبناءً يتطابق بشكل أو بآخر مع حدود الدولة. والمجتمع بالنسبة له لم يتواجد كمجال مفترض مجرد؛ لكنه ارتبط كثيرًا بمكان وزمن معين. ورأى دوركايم أن زيادة الكثافة السكانية من خلال نمو المدن وتطور وسائل الاتصال والنقل قلصت المسافات بين قطاعات المجتمع وكانت من العوامل الأساسية التى ساهمت فى عملية التمايز الاجتماعى المؤدى إلى ظهور المجتمعات الحديثة (Parsons 1964 [1983]: 256-63). واعتبر التوافق الاجتماعى أنه ظهر من

تقسيم العمل وتميز عند دوركايم بتنظيم العلاقات بـين مختلف الوظـائف الاجتماعية (205 :[1893] 1964). ورأى المجتمع: أنه كيان معقد، وملمـوس له واقع فريد من نوعه من خلال "**مـشاركة الأفـراد فـي نـسق علاقـات اجتماعية**" (Parsons 1937:353).

وعند تحديد طبيعة التضامن الاجتماعى فى المجتمعات الحديثة، طرحت المجتمعات التقليدية أو قبل الصناعية باعتبارها موضعات للمقارنة، وكما قال لوكس Lukes؛ فقد طُرِحَتْ المشكلة فى ضوء تفسير التحـول التـاريخى مـن اللاحقة إلى الأولى (1973:139). ويرى دوركـايم: أنـه فـى "**المجتمعـات الأولية" يعتبر الأفراد مرتبطين مباشرة بالمجتمع دون أى وسـيط**"، وأنـه فى المجتمعات الحديثة يعتمد الأفراد على المجتمع؛ لأنهم اعتمدوا على أجزاء منه (129 :[1893] 1964). وفى حين أنه اعتقد أن كلا من أشكال "**التضامن قد تكون جانبين لواقع واحد**"، ورغم ذلك رأى أنه يجـب التمييـز بينهـا، والتعرف على الطريقة التى من خلالها يتيح التضامن الآلى الفرصة لظهور التضامن العضوي، مع التعرف على الأسباب الشاذة التى حالت بينه وبـين تحقيق درجة التطور الذى يتطلبه نظامنا الاجتماعى حاليًا. (Durkheim1964 :129,190 [1983]). ومشكلة المجتمع المعاصر عند دوركايم هي: أنـه لـم يصبح حديثًا على نحو كامل بعد؛ فعلى ما يبدو أنه كان ينظر إليه باعتبـاره مرحلة انتقالية فيها على حد تعبير بريان تيرنر Bryan Turner، ماتت الآلهة القديمة؛ إلا أن الإلهة الجديدة لم تولد بعد (1992: xxii) ولم يكن التحول آليًا ولا عضويًا؛ بل بالأحرى تشكل بواسطة جذور متأصلة فيـه مـن مرحلـة لأخرى. وكانت مهمة علم الاجتماع هى تسهيل تحقيق وجود المؤسسات التى ستتغلب على الأنومى الناتج عن التحول وضمان وجود صورة حديثة مـن التضامن.

بدأت فكرة أن المجتمع يتغير خلال عملية تخصص للمؤسسات أو التمايز الهيكلى مع دوركايم (وهربرت سبنسر، باعتباره محورًا أساسيًا أساسى لنقد دوركايم). وتأثرت بواسطة تطور البيولوجيا، وبخاصة نظرية التطور عند داروين. (انظر Holmwood, O'Malley 2003). وأصبحت راسخة فى مناحى علم الاجتماع فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية مع ظهور النظريات البنائية - الوظيفية للحداثة وتنمية "**نسق المجتمعات الحديثة**" المرتبطة بتالكوت بارسونز (1966,1971). وسوف تناقش نظرية التحديث تفصيليًا فى الفصل التالي. والآن يكفى ذكر أنه عند بناء التسلسلات التطورية؛ أُعتبرت الدراسات المقارنة للتحديث ضرورية للاعتماد على الخبرة الغربية. ولقد تعزز افتراض التماسك الداخلى أكثر عن طريق اعتبار أن المجتمعات الكاملة وحدات تحليل أساسية (Bendix 1967:312, Calhoun1996:74).[١٠] وقد مُيزت المجتمعات التى تتكون من أجزاء متمايزة عن تلك التى تتميز بأنها كلية وذات أشكال مختلفة من التخصص.

فهم بارسونز (1966) - على سبيل المثال- الحداثة على: أنها تطور داخل أوروبا، وخاصة على أنها ناشئة عن التراث الثقافى والمؤسساتى للمسيحية والإمبراطورية الرومانية. ورغم أن النهضة والحركة الإصلاحية كانت أساسية قد ساهمت فى فهمه للتحول إلى الحداثة؛ فقد اعتقد أن ذلك حدث فقط بعد تطور الدولة، وظهور التصنيع؛ حيث كانت المؤسسات الاجتماعية الرئيسية للحداثة موجودة بالفعل. وشمل ذلك الهيئات الممثلة المنتخبة ديمقراطيًا، أى نظام قانونى شامل عالمي، والثقافة العلمانية، والتوسع فى نظام السوق. وهذا التراث الموحد والأصل المشترك أتاحا تطور

"نظام أوروبي" للمجتمعات الحديثة تُفهم بكاملها على أنها متمايزة عن باقى مناطق العالم (Parsons 1966: 40-9). وفيما بعد –فى الفترة الأخيرة – أصبحت الولايات المتحدة "**مجتمعًا رائدًا جديدًا**". وبارسونز شأنه شأن دوركايم واهتمامه بالمستقبل تشكل بواسطة احتمالات التدخل لتخفيف حدة النتائج السلبية المرتبطة بالحداثة (انظر Nielsen 1991).

أُعتبرت الحقبة الحديثة فى نطاق الفكر السوسيولوجى إذن، تحول عظيم داخل التاريخ: تحول أو فترة انتقالية بدأت؛ لكنها كانت فى حاجة للاكتمال (Badham 1984). رغم أن فيبر كان أكثر تشككًا فى مفهوم النظام الزمنى غير الخطى أو التوجيهى –وحسب رأى هندس Hindess – فإنه لم يعمل "**بالمبدأ الهرمى للتصنيف الذى فى ضوئه يمكن تحليل مجتمعات أو ثقافات أخرى حسب مدى تحققها أو عدم تحققها وهو سمة الغرب الحديث**" (1987: 144).(١١) ومن خلال فهم الحداثة، على أنها "عصر فيه العديد من خطوط الترشيد" (Roth1987:88)؛ وضع فيبر فكرة القطيعة والحداثة المتميزة، فى جوهر التحليل السوسيولوجي. وما يجمع بين الباحثين الآخرين الذين ناقشناهم أعلاه: أن تاريخ الغرب يعد مؤشرًا على التاريخ غير الغربي. كما اعتقد فيبر أن تميز الغرب لا يمكن فهمه إلا فى علاقته بالحضارات الأخرى، سواء كانت حضارات ماضية، أو فى بقاع أخرى جغرافيًا. وتحليله لديانات العالم الرئيسية، بما فى ذلك رسم صورة للتحول من وجهة نظر العالم الموحد التى يقدمها الدين إلى تحلله فى الثقافة العلمانية الحديثة؛ فى محاولة لتقييم التميز الملحوظ للحداثة الغربية عن طريق منهجية المقارنة (Whimster and Lash 1987). ولأن هذا المنهج التاريخى

والاجتماعى يستند إلى المقارنة؛ فإن المطلوب "مصطلحات ورموز قابلة للتطبيق على كل الحضارات المختلفة هذه على امتداد ألفيتين ونصف" (Roth 1987, 87). وقد كان اهتمام فيبر الأساسى تحديد طبيعة "العقلانية النوعية الخاصة" التى ميزت الغرب الحديث وفسرت غياب هذه الخصائص لدى حضارات أخرى. وعند تحديد الغياب، من الضرورى تحديد شيء كمعيار تبعد عنه الحضارات الأخرى.

سأناقش هذه الآراء، وحدودها على نحو أكثر تفصيلا فى الفصل التالي؛ حيث إنها تنشأ فى سياق الجدل الدائر حول فكرة **"الحداثات المتعددة"**؛ باعتباره بديلا للأوصاف النموذجية للتحديث. وما يجب توضيحه هو أنه فى محاولة فهم الظروف المعاصرة، هناك افتراضان ضاربا الجذور فى علم الاجتماع. الأول: هو أنهما يجب فهمهما على أنها ظروف انتقالية، تحدث حسب تعبير بندكس فى ضوء **"تراث يتقلص وحداثة تظهر"** (1967:308). والثاني: هو أن التغير الاجتماعى يتألف من عملية فى تغير المجتمع (1967:308) خلال بقية الفصل، وسأبين كيف أن هذه الافتراضات تخلق نوعًا من **"الازدواجية النقدية"** داخل علم الاجتماع التى ترتبط كثيرًا بنقد أفكار الحداثة فى علم الاجتماع؛ لكن تظل مرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا.

(٦)

إن فهم نسبت (1966) لعلم الاجتماع على أنه ظهر بوصفه استجابة لمشكلة النظام الناتجة عن ظروف الحداثة. كما يتمثل ذلك فى ثورتى التصنيع والديمقراطية الثورية– والتى لاقت قبولا عامًا داخل هذا الفرع العلمي. وفى

الوقت نفسه، وكتحديد لموضوعات علم الاجتماع – أى المجتمع، والسلطة، والمكانة الاجتماعية، وما هو مقدس، والاغتراب – فقد ألقى نسبت أيضًا الضوء على التناقضات الظاهرية فى صميم مشروعه، والتى توجد ضمن أهدافه، وفى القيم السياسية والعلمية لأشكاله الرئيسية فى المجال الرئيسى للحداثة، ومفاهيمه الأساسية، وكذلك منظوراته الضمنية والتى تضعها أقرب للنزعة المحافظة الفلسفية (1966:17). هذا لأن علم الاجتماع كان يعتبر مشروعًا يحاول فهم المجتمع "**الحديث**" فى سياق إدراك أنه يحل محل مجتمع "**مفقود**"- إذن فعلم الاجتماع فى تصوره النظري، يضع فهمًا للمجتمع الحديث ولا يعتمد فيه على مفاهيمه؛ بل باعتباره فقدان لشيء آخر، شيء حقيقي. وفيما كان يُزعم التطلع إلى الأمام؛ فإن اهتمام علم الاجتماع الرئيسى كان دائمًا موجهًا نحو الماضى سعيًا لاستعادة لحظة من الأصالة قبل أن "**تسوء الأمور**".

ولقد طور جولدنر Gouldner (1973) هذا الفرق فى مقالته "**الرومانسية والكلاسيكية: الأبنية العميقة فى العلوم الاجتماعية**"؛ حيث رأى أن كلا من المتلازمات الرومانسية والكلاسيكية تؤكد نظريات علم الاجتماع، والعلوم الاجتماعية بصفة عامة. واقترح بناءً على تأكيد الجانب الكلاسيكى على "**شمولية المعايير الحاكمة**"؛ فإن الاتجاه الرومانسى يركز على "**النسبية، والتفرد، والطابع التاريخي**" لها (1973:359). وبهذه الطريقة؛ فإن علم الاجتماع، فى الوقت الذى يسعى فيه إلى فهم الأحداث والتغيرات الناتجة عن المدنية- والقيام بذلك باسم الحداثة- أثر أيضًا على فهمه لها من خلال التقييم الأخلاقى الذى استند إلى قبول وجود التنوع للمعايير التقييمية الممثلة بواسطة الثقافات الأخرى (Nisbet 1966 ,Gouldner 1973). وجميع المحاولات لتصور العصر الحديث يمكن فهمها على أنها نقد له(١٢).

وبدلا من الشك في المعايير الأولية للمناقشات؛ فإن الرومانسية ببساطة تحل محل الإحساس بالمجتمع "**المفقود**" في مشروع علم الاجتماع والفكر الحداثي ذاته – إنها في موقف "**الخسارة**" والمشكلات التي تسعى لحلها باقية. وما فشل المحدثون والمعادون للحداثة في فهمه هو فكرة أن تعريف ظروف الحداثة ظهرت فقط مع ظهور علم الاجتماع كفرع علمي. وفي حين أن تواريخ علم الاجتماع بلا شك تحدد تكوينه "**في القرن التاسع عشر والصراع لفهم التقلبات في الثورات السياسية الكبرى، وكذلك الثورة الصناعية**"، ونادرًا ما يأخذ في الحسبان أثر مفهوم الشرق/الغرب في هذا الصدد. (Calhoun 1996:70).[١٣] ويرى كالهون: أن ميل المفكرين الأوروبيين لمعالجة "**التنوع البشري برؤية الاختلافات بين الأنماط؛ وليس كتمايزات شاملة**" (1996:71) هي جزء من المشكلة. إن الامتداد الذي ينظر إليه علماء الاجتماع إلى الغيرية كمشكلة تتعلق بشمولية التفسير عبر مسارات الاختلاف، تشجع على بناء علم الاجتماع كمشروع "تكوين خلال تحدي أو رفض الاختلاف المواجه" (Calhoun 1996:74 ,84). والحل الواضح هو إرجاع هذا الاختلاف إلى "التراث"؛ لذلك يوجد مساحة لقيم "**أعمق**" تكون نقدًا ضمنيًا لعدم مصداقية الحداثة.

أصبحت مشكلة الاختلاف للكثيرين متضخمة مع "**تزايد معدل**" الحداثة، وإيقاع العولمة التي جلبت ثقافات مختلفة إلى "**الاتصال**". وقد أدى ذلك بالبعض للاعتقاد أنه في حين أن النظرية الاجتماعية افترضت سلفًا وحدة وتماسك البناء الاجتماعي؛ فاليوم يتزايد النظر إلى هذا البناء على أنه في أزمة؛ إن لم يكن في نهايته (Delanty 1999). إضافة إلى ذلك فقد اقترح أن التغيرات السوسيوتاريخية الأساسية التي كانت سببًا في ظهور عالم ما بعد

الحداثة تتطلب الآن تطوير نظريات جديدة ومفاهيم لإلقاء الضوء على هـذه التغيرات (Kellner and Best 1991: 30). وفى حين أن موقـف المحـدثين كان الصراع ضد تنوع تقاليد معينة ومحاولة إخضاعها للمطابقة والتماثـل؛ فإن علماء ما بعد الحداثة من أمثال: بومـان Bauman (1987) رأوا نـسبية المعرفة على أنها سمة باقية للعالم(١٤).

إن المشكلة المتعلقة بالتركيز الخاص على الاختلاف لا يفيدنا إلا بقليل فسابقًا كانت الأمور خلاف ذلك. وإذا كان الفشل فى علاج قضايا الاختلاف هو أحد العيوب الأساسية للحداثة، يجب الاعتراف أن ما بعد الحداثة يتنـاول "**الاختلاف**" ببساطة بافتراض قبول وجوده كأمر مسلم بـه. وفـى حـين أن الحداثة تتعامل مع الاختلاف بالبحث: "**أن تكون مثل مـا لـدينا**" (نظريـة التحديث) وما بعد الحداثة ورغم الزعم بإعادة بناء إطار عمل ضخم، يـضع ضمنيًا الاختلاف داخل الإطار نفسه، بالاعتقاد أنها يجب أن تبقـى كـذلك. إن ذلك هو ما يميز ما بعد الحداثة عن نظرية مـا بعـد الاسـتعمار رغـم الصراع المتبادل لنظرية الحداثة؛ والنظرية الأولى هى جزء من لغة مجازية "رومانسية" تفاعلية للحداثة؛ فى حين أن نظرية ما بعد الاستعمارية تبحث عن إعادة بناء دقيق للنموذج السائد. وبناءً عليه رغم محاولات فهـم "الآخـر"، وإن كان رد فعل طبيعي، يرى ترويلوت Trouillot: أن هناك قليلا نعالجـه فى "**المجال الموضوعى (وبناءً عليه العالم الأكبر) الذى جعل هذه الفرصـة ممكنة، بالحفاظ عليها قائمة**" (2003:28). ورغم قبوله فكـرة أن مـا بعـد الحداثة لم تحدد فشل روايات كبرى، ويرى ترويلوت أن:

"بقدر ما يرفض الاعتراف أن حنينه الخاص ومشاعره السلبية تسلم بالروايات؛ فإن ما بعد الحداثة ذاتها يمكن قراءتها على أنها أحد أحدث خدع الحداثة المحصورة في إنتاجها الذاتي" (70 :2003).

وعند رفض مواجهة الأولوية التي تنسب للغرب وجغرافيته؛ حيث "الآخر" معترف به؛ لكنه اعتراف على أنه "آخر" متناقض، ولا يمكن القياس عليه. ويؤكد ترويلوت (2003): أن ما بعد الحداثة هو حل قاصر. وكذلك عند قبول نوع "الآخر"؛ فإن ما بعد الحداثة يجعل "**الاختلاف**" مؤشرًا أساسيًا للمقارنة ويلزم نفسه بالثنائية "**بيننا**"، و"**بينهم**" التي تفشل في الاعتراف بعدم تجانس المجالات الاجتماعية والهويات الاجتماعية.[١٥] ويظل الإطار المرجعي العالمي لتحديد موقع "**الاختلاف**" هو نفسه، ولا تمثل مواجهة الاختلاف أي فروق عما كان معتقدًا في البداية. في الوقت ذاته؛ فإن "**الآخر**" يستبعد من المشاركة في بناء عالم مشترك من خلال جعل جزء من الماضي في طور الهزيمة من خلال آليات الحداثة التي بدأت تعمل بطريقة مستقلة عن تلك المشاركة.

كيف يعمل هذا التناقض بين فكر الحداثة وما بعد الحداثة، (وما يرتبط من تمييز بين الكلاسيكي والرومانسي، الحديث والأصالة، الغرب والآخرين...الخ) عبر مجموعة مناقشات في النظرية الاجتماعية، وتطورها التاريخي، وأمثلة ذلك ستشغل أغلب بقية هذا الكتاب. سأحاول حل مشكلة الفهم والتفسير طوال هذه المعالجة قبل العودة إلى المعالجة الواضحة لهذه التناقضات واقتراح بديل في النهاية.

الفصل الثالث

من التحديث إلى الحداثات المتعددة: معضلة التمركز حول النزعة الأوروبية

أواصل فى هذا الفصل معالجتى للعلاقة بين فكرة الحداثة وشكل الجدل السوسيولوجي، وهى علاقة تظهر مع النشأة الأولى لعلم الاجتماع كما ناقشتها فى الفصل السابق. ومع تطور هذا الاهتمام المنوذج للحداثة، لم يعد ينظر إلى المستقبل على أنه عملية إعادة إنتاج للحاضر؛ ولكن بوصفه فضاءً لتطور أكبر للمشروعات والتوجهات (الحداثية) (Burke 1992). وكانت هذه التوجهات والمشروعات هى ذاتها توجهات ومشروعات الحداثة أينما تكون، كما يقول أيضًا هابرماس Habermas (1996) *كمشروع غير مكتمل*؛ لكن يمكن استخدامه إطارًا معياريًا موجه للعمليات العالمية. ومن ناحية ثانية، يواكب "المشروع غير المكتمل" فى السياقات العامة، تحقق ما تم التنبؤ به فى الخبرة الغربية. وتعتبر أفكار التطور والتقدم رئيسية للاهتمام بالمستقبل، وفيها يخص أغلب الكتاب - كما ناقشنا- ويمكن رؤية تاريخ الغرب باعتباره مبشرًا لمستقبل غير الغرب. وفى هذا الفصل: سأعالج نظريات التحديث والفكرة الحديثة لحداثات متعددة، التى ناقشها مؤيدوها للهرب من التمركز حول السلالة الأوروبية التى سلّم بها أخيرًا لتكون خاصية لنظرية التحديث.

يتزامن التخصص فى علم الاجتماع فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية مع هيمنة نظريات البنائية الوظيفية – والتحديث، ووجود بيئة عالمية تميزت بحركات تصفية الاستعمار والاستقلال. وتنافس الحرب الباردة للتأثير فى العالم الثالث ما بين أنساق سياسية رأسمالية وشيوعية والنشأة المرتبطة بحركة قوية لعدم الانحياز، وهذا يعنى تناغم علماء الاجتماع على الأقل فى الفترة العاجلة بعد الحرب مع التطورات خارج أوروبا وأمريكا الشمالية. وكما ناقشت فيما سبق؛ إذا لم يكن للاستعمار تأثير على تنمية تصورات سوسيولوجية ومقولات تحليلية – كما سأناقش فى هذا الفصل– ما كانت لتحدث حركات التحرر وتصفية الاستعمار. وقد اهتم الأكاديميون السابقون – فى هذه الفترة– باستنطاق ماضيهم فى الغرب بادئين بتركيز علمهم على الظروف الحاضرة **"للعالم المتخلف"** (Portes1973:248).وأصبحت طبيعة العلاقة بين البلدان المتقدمة والأقل تقدمًا أحد الأسئلة الرئيسية التى ظهرت داخل البحث السوسيولوجى والإشكالية المطروحة بدرجة كبيرة هى التساؤل حول ما إذا كانت هذه البلدان ذات اتجاه عام للتطور.

وقد اتبع التراث الكلاسيكى لعلم الاجتماع تبنى نظرية التحديث كفكرة لتغيير المفهوم المعيارى للحركة الخطية من ماضٍ تقليدى إلى مستقبل حديث. واستقرت تفسيرات عمليات التحديث أساسًا – كما ناقشت سابقًا– فى سياق الفهم التاريخى للمجتمعات وأن كل شكل يُحل بشكل أكثر تقدمًا. وقدمت المجتمعات التقليدية، أو مجتمعات ما قبل الحداثة للمقارنة مع مجتمعات بديهيا حديثة، وكانت المشكلة تأسيس وصف للتحول التاريخى من واحد لآخر. وقد حدث الجدل على تقارب المؤسسات الحديثة والاقتصاد – من ناحية ثانية– حدث الجدل أيضا فى الدعاوى المضادة التى تناقش *الاختلاف* فى مسائل

الثقافة والتنظيم السياسي. وكان هذا - بعد كل ما سبق- فى فتـرة الحـرب الباردة وذروة تصفية الاستعمار. وأصبحت إعادة تعريف الحداثة، وبـشكل متزايد مناقشتها تمثل جانبًا متكاملا لتحديد طبيعة العلاقة بين العوالم المتقدمة والأقل تقدمًا.

وحدث عقب تصفية الاستعمار فى الستينيات، سـقوط الـشيوعية فـي أوروبا فى نهاية الثمانينيات والتسعينيات؛ ولاحظنا تحولا زلزاليًا صارخًا فى النظام العالمى - بصفة خاصة؛ فقد خلقت العولمة سوقًا عالميًا بعـد تحطـم الكتلة الاقتصادية التى سيطر عليها السوفيت - وتجـددت أشـكال الجـدل السوسيولوجى حول طبيعة العالم المعاصر المؤدية إلى تطوير نموذج جديد، أشبه بحداثات متعددة. بينما أكد البعض، مثل: فوكوياما fukuyama (1992): أن هذه الأحداث تقارب ادعاءات نظرية التحديث ودور الولايـات المتحـدة "**كمجتمع ريادي**" ، وفيما يتعلق بمنظرى الحداثات المتعددة؛ فإن إزالة قيـود "**الحرب الباردة**" يكون بدلا من التسليم بالاختلاف الأعظم. وارتفعت أصوات علماء العالم الثالث - المنظرين للتخلف أو المنظرين لما بعد الاسـتعمار - مطالبـة أيـضًا بالانـدماج والمخاطبـة (Escobar 1995, sylvester 1999, Biccum2002).

وضع منظرو الحداثات المتعددة أنفسهم فى علاقة نقدية بالجدل المبكـر عن التحديث، مناقشين الافتراضات عن التطور الخطـى والتقـارب الـذى يربطهم مع هذا الاتجاه المبكر؛ بادئين ظاهريًا بوصف التنوع الثقافى للتعبير عن المؤسسات الحديثة. وأدى تطور هذا الاتجاه للتـساؤل عـن الحداثـة، وعالميتها اللحظية، وإلى اعتقاد منظرى الحداثات المتعددة بوجود مغـالطتين يجب تجنبهما. الأولى: مرتبطة بنظريات التحديث المبكرة، بوجـود حداثـة

واحدة فقط. والثانية: التمركز حول السلالة الأوروبية، أو: " أن رؤية الغرب للشرق تمنح الشرعية لمفهوم "الاستشراق" (Eisenstadt and Schluchter 1998: 2). ويكون الجدل هنا: أنه رغم الفكرة عن حداثة واحدة، من البديهى أنها تحققت فى أوروبا، وهى متمركزة حول الأوروبية؛ فإن على نظريات الحداثات المتعددة، أن تتخذ أوروبا نقطة مرجعية فى بحثها عن أشكال الحداثة البديلة (Eisenstadt and Schluchter 1998:2). وبينما يشير منظرو الحداثات المتعددة، مثل: إيزنشتات وشلوتر لمشكلة التمركز حول السلالة الأوروبية؛ فإنهم يؤكدون فى الوقت نفسه ضرورة الأولوية المفترضة للغرب فى تشييد علم اجتماع مقارن لحداثات متعددة.

وفى هذا الفصل، سوف أتناول القضية الخاصة بادعائهم بأن ذلك يمكن أن يتجنب تهمة التمركز حول السلالة الأوروبية، إضافة إلى أن رؤية الحداثات المتعددة تقدم نموذجًا متغيرًا عن العمل المبكر للتحديث. ويصبح، إدراك العولمة عالميًا فى سياق العالم بعملية اندماج أجزاء أخرى للعالم فى نسق يحدد ملامح تقدمية دافعة للتوسع، تكون أساسًا *للاستقلال عن الترابطات* التى ناقشتها للدخول لإثارة *العولمة*. وقد حددت - بهذا الأسلوب- الحداثة كملمح للغرب صُدِّر ليمارس تأثيرًا على المجتمعات الأخرى، ومن ثم تندمج فى الأشكال المؤسسية، وتكيفها وفقا للظروف والثقافات المحلية. وسأعترض على هذا الأسلوب للتفكير فى الحداثة فى هذا الفصل.

ويكون جزءًا من المشكلة - كما سيتضح- اعتمادًا كل من نظرية التحديث ونظريات الحداثات المتعددة على نماذج مثالية كوسائل لإجراء تحليل مقارن. وسأناقش - أن النماذج المثالية- تشيئ أشكال خاصة للتفاعل والترابط، وتجردها من الترابطات الأوسع التى تندمج فيها أيضًا. وكما ناقشنا

فى الفصل الأول بعيدًا عن هذا الارتباط استخدام "**التواريخ المترابطة**". فتحدد مشكلة مفهوم الحداثة فى فشله فى مخاطبة خبرات الناس والمجتمعات خارج أوروبا والغرب، ويمكن علاج هذا الفشل فقط بالوصف وإعادة التفكير فى الأبنية المعرفية السابقة المتصلة بتجاهلهم.

(١)

اهتم بارسونز (1971 ,1966) - كما ناقشت فى الفصل السابق- بفهم مضامين التحول للحداثة وأشار إلى أن التقدم المفاجئ للتحديث لم يحدث فى مكان آخر إلا فى أوروبا. وقد اعتقد، مثل أغلب المنظرين الآخرين فى ذلك الوقت، أن مجتمع الحداثة ظهر فى الغرب، ثم تطور منه نسق المجتمعات الحديثه (Parsons 1971). واعتقد علماء التحديث، مثل: روستو (1960)، وليرنر (1958) أيضا بوجوب استخدام التحديث الغربى كنموذج عالمى قابل للتطبيق وتصنيف المجتمعات الأخرى فى سياق تحديثهم النسبى مقارنةً بهذا النموذج، وأن دراسة مجتمعات أخرى بمقاربتها لخصائص المجتمعات الصناعية الغربية[١]. واهتم ألموند وكولمان Almond and colmeman (1960) -على سبيل المثال- فى دراساتهم الكلاسيكية بالأنساق السياسية للبلدان النامية، محاولين فهم الأنساق السياسية غير الغربية عن طريق مقارنتها بنظيرتها الغربية. وقد نسقا دراستهما حول مجموعة عامة من المقولات المشتقة من الخبرة الغربية واستخدموها لتأسيس إطار مقارن لترتيب البلدان النامية[٢]. ويجب الإشارة إلى أن الحداثة فى المثال الأول قد اشتقت من ظروف مميزة، وطارئة تاريخيًا، وربما بعيدة الاحتمال (على سبيل المثال: كما يعرضها فيبر

weber فى دراسته عن الأخلاق البروتستانتية). وما إن أصبحت أوروبا حديثة نُظِرَ إليها على أنها قادرة على توضيح الطريق لبقية العالم باعتبارها نموذجًا يمكن محاكاته. واعْتُقِدَ بأنه يُمكِّن ميلاد الحداثة.

ميزت نظرية التحديث على أساس فئتين عامتين بين الحداثة واللاحداثة بحدوث "تغيرات فى التوجهات الذاتية للفرد وتغيرات فى العلاقات الاجتماعية [والاقتصادية]" (porter 1973: 249). وركز البحث فى الفئه الأولى على مدى قابلية التحديد إمبيريقيا "للإنسان" الحديث، وما الخصائص المرغوبة لهذا الفرد. وحدث هذا متزامنًا مع محاولة تحديد تأثيرات الحداثة التى شكلت "الناس". واتخذ هذا البحث شكل الاستقصاء "للتأثير على الفرد للمشاركة" فى عملية التحديث" (Inkeles 1969: 208). وتأتى قيمة امتلاك هذه السمات الحديثة فى عمومية التقدم الاجتماعى والاقتصادي. وقد اهتم المنظرون المبكرون للحداثة، فى المقام الأول بتحديد ما النظير "للإنسان الحديث"، وما المضامين العملية التى تستلزمها كينونة الحداثة لتقدم البلدان غير النامية، أو المتخلفة[٣]. وأمكن فهم الحداثة بهذا الأسلوب- كمتلازمة نفسية اجتماعية- إضافة إلى كونها عملية للتنمية القومية. ناقش بورتس بمستوى أعلى من التجريد، (1973) إمكان التحديد النفسى - الاجتماعى للحداثة بمجموعة من توجهات الفعل التى حددتها متغيرات النمط لدى بارسونز والتى سلمت بتخصيص التعقيدات الدافعية (على سبيل المثال: الإنجاز فى مقابل العزو)، والمعايير المرتبطة وتعريفات الدور المتجسدة فى المؤسسات (على سبيل المثال: العمومية فى مقابل الخصوصية).

وقد شكَّل التأكيد على التناسق المؤسسى البعد الثانى الذى ميز به العلماء المجتمعات الحديثة عن التقليدية. وكان الاعتقاد بامتداد أنماط

-أو أبنية- التحديث ذات النزعة العالمية إلى كل السياقات الاجتماعية، وتشكيل تغيرات أساسية فى الأبنية الاجتماعية والسياسية (Levy 1965). وتتضمنت هذه التغيرات نشأة ونمو اقتصاد السوق، وظهور المجتمع الصناعي، والدولة، والرشد البيروقراطى – أشكال حديثة للتنظيم بدت لا شخصية، وتساندية، وتخصصية، ورسمية (Moore 1963: 52). كما ذهب بورتس (1973) إلى: أن التحديث مصطلح تركيبى يشمل سلسلة عمليات مجتمعية تبدو أنها متقاربة مع التوازن الكلي، وتشكل مجتمعًا صناعيا حديثًا. وساهمت هذه العمليات، كونها علامات أساسية لقياس وتصنيف البلدان فى دراسات التحديث، وتشتمل على: التحضر، والتهجير الإيكولوجي، ومعرفة القراءة والكتابة، والحراك الاجتماعي، والمشاركة الديمقراطية، ووسائل الاتصال الجماهيري، والإنتاج والاستهلاك، والتعليم، والتصنيع ونظام إنتاج المصنع (Lerner 1958, Feldman and Moore, 1962, Portes 1973).

يلخص بيندكس Bendix نظرية التحديث مستندًا إلى ثلاثة افتراضات مرتبطة: **الأول**: فهم "**التقليدية**" و"**الحداثة**" استبعاد متبادل، و**الثانى**: يحدث **التغير** الاجتماعى نتيجة لتغير الظواهر الداخلية للمجتمع، و**الثالث**- أن الحداثة تحل محل التقليدية، وستكون هناك التأثيرات نفسها عبر الكرة الأرضية (1967:324-5). وتستند نظرية التحديث - بهذا المعنى- على فكرة *التقارب* التى تمحو اختلاف المجتمعات الأخرى - كما تشكل خلال تراثها، عن طريق عملية الانتشار العالمى للمؤسسات الغربية. وطالما امتدت أبنية التحديث للمناطق الأخرى؛ فإن الأنماط، أو الأبنية المحلية السابقة، تتغير نسبيا فى اتجاه مجتمعات الحداثة (Levy 1965: 30). وقد أدرك منظرو التحديث أيضًا تنوع الأصول و"**اختلال**" عمليات التصنيع، ومازالوا يحتفظون

بإيمانهم "بالمسار التاريخى للمجتمع نحو نزعة التصنيع" والغاية المشتركة للتحديث (Feldman and Moore 1962: 167). وتختصر نظرية بارسونز (1964) عن "العموميات التطورية" evolutionary universals الاعتقاد الذى يدّعى قابلية مقارنة عمليات التنمية فى العالم مع الأنساق الاجتماعية الغربية، وتميزها بأنساق فرعية للنظام السياسي، والاقتصادي، "والمجتمع المحلى المجتمعي" أو المجتمع المدني، و"المحافظة على نمط" النسق الفرعى لإعادة إنتاج ثقافي.

ترتبط الافتراضات الأساسية لنظرية التحديث بإدراك كونها عملية اجتماعية شاملة شكلت نمطًا عامًا، وعالميًا. وتبدو الحداثة حتى فى مرحلتها الأولى أنها منبثقة فى المقام الأول كنتيجة للديناميات الداخلية للمجتمعات الغربية، وسمات حديثة فى أجزاء أخرى من العالم، ويفترض بورتس Portes: أنها لم "تنشأ طبيعيًا من عمليات داخلية نتيجة تغير بنائي؛ لكنها مصطنعة من تأثير انتشار ثقافى غربي" (1973:271)، ولذلك ربما تقاوَمْ. وقد حدثت عمليات التحديث؛ فحدث "الاحتكاك بمؤسسات أوروبية غربية ببلدان جديدة فى الولايات الأمريكية، وفى أوروبا الشرقية والجنوبية، وفى آسيا وإفريقيا" (Eisenstadt 1968: 256). ويستند كثير من تحليل عمليات الحداثة – كونه نتيجة– على افتراض ضمنى (وغالبًا صريح) "بحتمية أن تكون قمة المؤسسات الحديثة هى التى ابتكرت فى الغرب" (Mazrui 1968: 72)، وهكذا، كان التطور نحو الحداثة تطورًا للاتجاه للأساليب الغربية. ودعم هذا الإطار التطورى لنظرية التحديث الاعتقاد أن ما حدث فى أوروبا هو "عتبة عبور بين مرحلتين متميزتين فى تاريخ الجنس البشرى [و] أن أوروبا مع ذلك كانت الأولى... وإنها مسألة وقت فقط قبل أن تجد المناطق الأقل تقدمًا

ذاتها أيضا على نقطة العبور"(Portes 1973: 248-9) [٤]. وحينما اعترف المنظرون البارزون للتحديث، مثل كير وآخرين Kerr et al. (1960)، وفيلدمان ومور Feldman and Moore (1962) وأبتر Apter (1965) بإمكان وجود مسارات مختلفة للحداثة كان هناك اعتقاد بوجود غاية واحدة فقط. واعتبر البعض أي ابتعاد عن النقطة التي وُصِلَ لها يعد *انحرافا*. ويذهب *روستو* Rostow (1960) – على سبيل المثال- إلى أن الشيوعية نتجت عن "**تحول مريض**" .

(٢)

تتجه التعقيبات النقدية الذائعة على نظرية التحديث إلى تمثيل الهيمنة والتماثل للوضع المبكر، وقد شكّل التمييز بين التقليدية والحداثة الأساس لنظرية التحديث، ومن ناحية ثانية، نقطة أساسية للخلاف. وركز النقاد في استخدام تلك الأفكار عن الماضي الراكد، ولم ينتبهوا للاختلافات بين المجتمعات وثيقة الصلة بقضية التحديث، وديناميكية الحاضر المتغاير، فشوهوا شخصية المجتمعات التقليدية وحجبوا الأفكار عن "الاختلافات المتعددة في العلاقة بين أشكال تقليدية ومؤسسات جديدة" (Gusfield1967:351). وقد تحدى العلماء بقوة افتراض إشكالية استثنائية للمجتمعات التقليدية؛ ومن ثم افترضوا اختلاف التوجهات التقليدية بشكل ذي دلالة في سياق تنظيمهم العام وفي استقبالهم للتغير، وفي اتخاذ قواعد تضفي الشرعية على التحول الاجتماعي (Apter 1965, Gusfield 1967, portes 1973). وقد أغفل بعضهم رؤية التراث كعائق لهذا التحول، والحقيقة أن "قيم تقليدية معينة تشكل مقومات مهمة للتغير البنائي" (Portes 1973: 264). ويذهب جوسفيلد

Gusfield، أيضا إلى أن ما ننظر له كونها مجتمعات تقليدية هى فى الواقع عرضة للتغير، ولديها تأسيس لتغير هادف، ومخطط، من قبل مواجهاتهم فى الحاضر مع الغرب (353 :1967). وقد استدعت الفكرة عن ماضٍ راكد (أو حاضر تقليدى راكد)، تساؤل عديد من العلماء، بصفة خاصة من داخل علم الأنثروبولوجيا، وأيضا أصوات منشقة من داخل علم الاجتماع ودراسات التنمية.

اهتم أيضا عديد من العلماء؛ إضافة إلى الافتراضات المتنازعة على المجتمعات التقليدية، برفض فكرة أن الحداثة بديل التراث فى الجانب الآخر من العالم. وناقش علماء مثل جوسفيلد أن فهم الناتج من عمليات التحديث بكونه يشكل "مزيجا [من التراث والحداثة] ويشتق كلاهما الدعم من الآخر، بدلا من [رؤيته بكونه] اصطدام المتعارضات" (1967:355). وقد أسس هذا فهما للتوجهات التقليدية المختلفة وأنها ذات علاقة مختلفة بعمليات التحديث، وأن هذا الاختلاف الأولى أدى أيضا إلى اختلاف النتائج. ويذهب إيزنستات Eisenstadt – من جانبه– إلى أن قبول عمومية معينة لعمليات الحداثة والتحديث يجعلنا ندرك أن "المجتمعات المختلفة تطور بالضرورة أنماطًا مؤسسية مختلفة" (1968: 257). ويفترض إيزنستات: أن داخل البلدان الأوروبية الغربية والمركزية، "لم يكن هناك تواصل فى مسار التحديث، ولم يحدث بالطريقة نفسها فى كل مكان" (1968: 274). وذكر مور Moore مثله: أن التحدى لنماذج التحديث التقليدية يتمثل فى إدراك أن "الغاية من التحديث ليست متماثلة وليست ثابتة و [أن]... مسار التحول يختلف فى الفضاء والزمن" (1963: 524). وقد تأكد هذا فى تزايد تركيز البحث الإمبريقى لمجتمعات الحداثة على تنوع واسع

لنتائج عمليات التحديث الذى أدى لموقف تحديد وبحث القوى التى قدمت مجموعة من التوجهات النموذجية للحداثة فى سياقات ثقافية مختلفة (انظر Eisenstadt 1965, Gusfield 1967, portes 1973).

اهتم العلماء الناقدون للتفسيرات السوسيولوجية المهيمنة على التغير الاجتماعى بقيمة اللاتماثل المتأصلة فى نظرية التحديث والتى وفقًا لها تعد المرحلة النهائية للتحديث أجدر بالتفضيل مقارنة بمراحلها الأولية (Portes 1973: 251). وكان دعم هذه القيمة للاتماثل بممارسة التعامل مع البلدان النامية كأمثلة للنمو الساذج أو الانحراف عن الغرب، ودراستها بمقاربتها للخبرات الغربية (Nettl 1967). ويفترض بورتس - بهذه الطريقة- أن نظرية التحديث تمثل "عودة أكثر أو أقل مكرًا لنزعة التمركز حول السلالة الغربية التى تميز التوصيفات المبكرة للتطور الاجتماعي" (1973:251). ويذهب Bernstein بيرنستين إلى أن التمركز حول السلالة الأوروبية، أو التمركز حول السلالة - كما كان آنذاك- أصبح مركزيًا، و"حينما نتساءل من أى مصدر تاريخى جُرِّدَ وعُمِّمَ نموذج التحديث" (1971:147). وقد ارتبطت المشكلات المنهجية بما سوف نتابعه لاحقًا فى هذا الفصل فى الجزء الخاص بالنماذج المثالية والمنهج المقارن. ويكفي - الآن- أن نشير إلى انتقاد عديد من العلماء للطبيعة المجردة لنظرية التحديث ومطالبتهم بدراسة نوعية سياقية للتغير يشكلها البحث الإمبريقى حول المجتمعات المدروسة. وقد دافع علماء، مثل: مور (1963)، وبندكس (1967) - بصفة خاصة- "عن استراتيجيات بديلة لبنية نظرية وبحثية أساسها المعرفى يكون أكثر مرونة، ومنهجًا مقارنًا أكثر حساسية" (Bernstein 1971:150).(*)

وقد اُستُبْدِلَتْ نظرية التحديث تدريجيا بعد هيمنتها فى الستينيات وبداية السبعينيات داخل دراسات التنمية، وحلت محلها نظرية التبعية ونظرية الأنساق العالمية التى فنّدت النظرية الخطية فى نماذجها التفسيرية المبكرة وناقشت مزيدًا من التصورات المعقدة حول الأنساق الاقتصادية العالمية (انظر cooper and Packard 1997) [٦]. وارتبط زوال نظرية التحديث أيضًا بالانتقال الواضح بعيدًا عن تفسيرات البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع. وارتبط الأخير بنشأة الاتجاهات الأكثر راديكالية، وبصفة خاصة تلك المتأثرة بالماركسية، والمرتبطة بأفول بارسونز. وكان سقوط الشيوعية فى أوروبا فى التسعينيات – من ناحية ثانية– عكس هذه الحساسية. وأصبحت الفرضيات المتقاربة المنبوذة – بالنسبة لعدد من المحللين –مؤكدة – مع فوكوياما Fukuyama (1992). وهو الأكثر شهرة والذى نادى حديثًا "**بنهاية التاريخ**". وقد عاد فى هذا السياق بعض الكتاب، الأكثر وجاهة على سبيل المثال صمويل إيزنستات Shmuel Eisenstadt، لنظرية التحديث ينشدون تحدى هذه الليبرالية المنتصرة، واعترفوا أيضًا بتسارع الأحداث (انظر أيضًا Tiryakian 1991). وكانت عمليات تصفية الاستعمار – فى الوقت نفسه– لديها السياق الأولى لنظرية التحديث، وهى ذاتها باعث لانتقادات ما بعد الاستعمار لأفكار التمركز حول السلالة الأوروبية المهيمنة على الحداثة. ومن ثم، تمفصل النموذج الجديد للحداثات المتعددة فى علاقة بهذه الاهتمامات المختلفة.

وسوف أوضح فى القسم التالي: أن نموذج الحداثات المتعددة لم ينجح نجاحا عظيمًا فى تحويل الجدل السابق حول التحديث. وحدث هذا بسبب استخدام منظرى الحداثات المتعددة نسخة خام إلى حد ما لفرضية التحديث،

كما عرضها كير: ورستو، وليرنـــر، Kerr Rostow and lerner مـــن بـــين آخرين، دون الاعتراف الكافى بالتعديلات المهمة التى قدمها نقادها فى ذلـــك الوقت. وقد بُرْهن على هذا فى عمل صـــمويل إيزنـــستات الـــذى انـــشغل بمناقشات لنظرية التحديث فى الستينيات، والذى تكامل عمله مع تحديد هوية النموذج الجديد للحداثات المتعددة بشكل جديد أكثر. واتجه إيزنـــستات مـــن كتاباته المبكرة عن الأنساق الاجتماعية ونظرية التحديث إلى أعمال حديثـــة أكثر عن الحضارات والحداثة (2001 و1998 و1987 و1965) بتحديد هويـــة الصورة الاستثنائية للحداثة المرتبطة بالغرب وبحـــث الـــديناميات الثقافيـــة للحضارات الأخرى بالمقارنة بها. واتجهت انتقاداته المبكرة لنظرية التحديث أولا لهؤلاء المنظرين، مثل: كير، وآخـــرين Kerr et al (1960)، والمونـــد، وكولمان Almond and Coleman (1960) الـــذين حـــاولوا تقيـــيم مقاربـــة المجتمعات الأخرى لنموذج المجتمع الصناعى الغربي. ويرفض إيزنـــستات الادعاء أن بذور الحداثة موجودة فى أغلب الثقافات والمجتمعات؛ فقد نـــاقش فرضية التقارب المركزية لنظرية التحديث؛ حيث يشكل تطور الحداثة ذروة إمكان التطور للإنسانية. وحاول – بدلا من ذلـــك– المطالبـــة *بالتخـــصيص* لثقافات أُنْكِرَت فى المقدمات المنطقية لنظرية التحـــديث، وبـــصفة خاصـــة، والتخصيص للحضارة الأوروبية والحداثـــة الأوروبيـــة (3 :1987). وتـــابع بمناقشته – بارسونز– أن الحداثة كما ظهرت فى أوروبا الغربيـــة؛ احتـــوت "تطور إلى حد بعيد من الداخل، "المحلي" من خلال تحقق الفرصة المتأصلة فى بعض جماعاتها ومن خلال التفاعل المستمر بينهم" (1987:8) وكانت تلك الفرصة غائبة عالميًا.

(٣)

وكما ذهبت إلى أن، طوال العقد الأخير، بدأ المنظرون الانتقال من لغة مفاهيم *التحديث* إلى تلك المتعلقة *بالحداثات المتعددة*؛ وأظهر هذا التغير انعكاسًا لعدم استساغة تطبيق فكرة المسار الاستثنائى، الساذجة على التنوع الحالى للمجتمعات المعاصرة داخل العالم بأكمله. ويذهب إيزنستات وشلوتر Eisenstadt and Schluchter (1998) إلى أنه، رغم الميول المهيمنة والمتجانسة التى تنسب إلى مشروع التحديث؛ فإنها لا تؤيد التقارب، ولا حتى فى الغرب ذاته، وهكذا فإن فكرة التقدم التاريخى الخطى المرتبطة بالتحديث يجب أن تفسح مجالا لتصورات عن الحداثات المتعددة. وقد ناقش ديلانتى Delanty بالمثل (1999): فكرة أن النموذج التاريخى للتحول من مجتمع تقليدى إلى مجتمع حديث ليس قابلا للتطبيق لفترة طويلة، ويجب أن تركز النظرية الاجتماعية - بدلا من ذلك- على تفكيك الحداثة من النمط الأحادى إلى مسارات مختلفة.

ويدعو إيزنستات وشلوتر Eisenstadt and Schluchter إلى تطوير نموذج الحداثات المتعددة، والحذر فى مواجهة المغالطات المذكورة آنفا. إن امتداد العالمية للحداثة ينبغى عدم رؤيته "كعملية متكررة؛ لكن كبلورة لحضارات جديدة"؛ وأن تكون الحضارات الجديدة اتُّخذَتْ كنقطة مرجعية لها، "البلورة الغربية الأصلية للحداثة" (1998:2,3). ويمكن القول: إن هذه النقطة المرجعية ليست مسارًا أحاديًا متماثلا يوجد حوله تقارب، كما فى نظرية التحديث؛ لكن إحدى الحضارات الأخرى يمكن أن تنحرف أو تبتعد. وتؤسس للنقطة المرجعية حداثات متعددة، وهذه التعددية - من وجهة نظرهم- كافية لتجنب المغالطة الأخرى حين تتمركز حول السلالة الأوروبية (أو الاستشراق،

كما طرحوها). وقد ناقشت - من ناحية ثانية- أن استمرارية هذه الحداثات المتعددة أمكن فهمها بوصفها مشتقة من خصوصية إبداعية، لهؤلاء الذين اتبعوا الأطر المؤسسية للحداثة التى نشأت فى أوروبا، وتظل مشكلة التمركز حول السلالة الأوروبية مكملة للنموذج الجديد.

عرفت الأدبيات حول الحداثات المتعددة، فى شكل مماثل أكثر عمومية من نظرية التحديث، ما عَرَّفَ الحداثة بأنها "التحولات الحاسمة للمجتمعات الغربية أثناء عمليات التصنيع، والتحضر، والتغير السياسى فى نهاية القرن ١٨ وبداية القرن ١٩" (Wittrock 1998:19). وفُهِمَت الحداثة، بشكل متزامن، فى ضوء *تضافرها المؤسسى* institutional constellations، تلك نزعتها "نحو الأطر البنائية، والمؤسسية، والثقافية العالمية" (Eisenstadt and Schluchter 1998:3)؛ إضافة إلى *برمجة ثقافية* Cultural programme "لمهاجمة تناقض المبادئ الداخلية، ومما يحفز خطابا نقديا ونزاعات سياسية متواصلة" (Eisenstadt 2000:7). ويسمح فهم الحداثة بهذه الطريقة للعلماء بوضع الحداثة الأوروبية - ورؤيتها فى سياق اتحاد أولى للأشكال المؤسسية والثقافية - كحداثة أصلية، وفى الوقت نفسه يسمح للرموز الثقافية المختلفة أن تنتج فى حداثات *متعددة*. وتتناغم فكرة الحداثات المتعددة - من ثم- مع فكرة الإطار العام للمؤسسات الحديثة، مثال: اقتصاد السوق، والدولة - الأمة الحديثة، والرشد البيروقراطى - التى نشأت فى أوروبا وَصُدِّرت فيما بعد لبقية العالم(٧). ويفسر هذا التناقض الظاهرى الذى استطاع إيزنستات وشلوتر تفكيكه التمركز حول السلالة الأوروبية بوصفه عناقا ظاهرًا لجوهر افتراضاتهم، أعني: "افتراضات التنوير حول مركزية نمط الحداثة المتمركز حول الأوروبية" (1998:5).

وقد استند التركيز فى مسارات حضارية مختلفة غير أوروبيـــة علـــى افتراض أنه: إذا لم تؤد هذه المسارات إلى حداثة أصلية كما فـــى أوروبـــا؛ فإنها قد أدت إلى تعقد فى الأنماط المؤسسية والقواعد الثقافية. وكما ينـــاقش ويتروك wittrock (1998)، وذلك بإعادة النقـــد الـــداخلى المبكـــر لنظريـــة التحديث؛ فإن هذه المجتمعات راكدة، وتقليدية؛ لكنهـــا تطـــورت وتحولـــت سياقاتها المؤسسية والثقافية الخاصة بها قبل مجىء الحداثة الغربية. ولم يكن من ناحية ثانية، قد صُدِّرت الأنماط المؤسسية المرتبطة بالحداثـــة الغربيـــة إلى هذه المجتمعات الأخرى التى ظهرت داخلها حـــداثات متعـــددة. وكـــان الاعتقاد: أن التزامن بين الأنماط المؤسسية للمركب الحضارى الغربى وبين قواعد ثقافية مختلفة لمجتمعات أخرى - يخلق حداثات مختلفة متميزة. ومن ثم قد توجه منظرو الحداثات المتعددة إلى الحداثة فى ضوء جانبين: إطارها المؤسسى، وقواعدها الثقافية. ويسمح هذا الفصل بين ما هو مؤسسى وما هو ثقافى إلى أن يُفهَم المؤسسى بأنه شيوع التنوعات المختلفة للحداثة - ويسمح بناءً عليه بفهم أنماط الحداثة فى حد ذاتها؛ بينمـــا تمثـــل الثقافـــة، موقعًـــا لتناقضات حاسمة، وتشكل أساس القابلية للتغير؛ ومن ثم الاختلاف الذى ينتج فى حداثات متعددة.

ويناقش إيزنستات ذلك الأساس للبرمجة الثقافية للحداثة - كما نـــشأت فى أوروبا- "أنها أكدت على استقلال الإنسان"، بتحريره من الأشكال التقليدية للسلطة، والتركيز على "الانعكاسية والاستكشاف"، و"البناء الفعال والـــسيطرة على الطبيعة، متضمنة الطبيعة الإنسانية" (1998:5). ويواصـــل إيزنـــستات مناقشته: بأن تزامن هذه التطورات، يلقى ضوءًا قويًا على بدايـــة الميـــدان السياسى المعاصر وإمكان النزاع داخله، مع التوتر الأساسى الموجود "بـــين

التأكيد على الاستقلال الإنسانى والضوابط المقيدة المتأصلة فى التصور المؤسسى للحياة الحديثة" (2000:6)، واستمرار التوتر بين التقدم نحو الشمولية من ناحية وتباينها عن النزعات الأكثر تعددية من ناحية أخرى. وقد ركزت تناقضات المبادئ الداخلية، وتناقضات الحداثة على العلاقات والتوترات بين المقدمات للحداثة و"بين هذه المقدمات والتطورات المؤسسية فى المجتمعات الحديثة" (Eisenstadt 2001: 325). وتؤدى تناقضات المبادئ إلى النزاعات السياسية حول مسائل مثل العلاقات بين الدولة والمجتمع وأنماط تحديد الهوية الجمعية الناتجة عن اختلافات الحداثة التى أمكن رؤيتها تنشأ فيما بعد.

ويذهب إيزنستات إلى أن التحول الراديكالى الأول **"للحداثة"**، فى المقدمات الثقافية الأوروبية، "و أن أهمية امتداد الحداثة فى الولايات الأمريكية" (2000:13). وهى تمثل – فى الواقع– المثال الأول للحداثات *المتعددة*! ونماذج أخرى بديلة متميزة للحداثة هى الأنماط السوفيتية الشيوعية والفاشية، وأنماط القومية – الاشتراكية(٨). ولم يكن يوجد – داخل أوروبا آنذاك حداثة واحدة؛ لكن – بالأحرى– كما ذهب ويتروك Wittrock إلى أنه "إمبريقيًا ليس هناك إنكار وبسهولة يمكن ملاحظة تنوع الأشكال المؤسسية والثقافية" (وانظر أيضا therborn 1995 والتشديد من عندى و 58 :2000). استطعنا رؤية أن هذه الاختلافات – وهذه الحداثات المتعددة– قد تطورت بداية فى أوروبا واستمرت مع امتداد الحداثة إلى الولايات الأمريكية، وآسيا، إفريقيا. ويتابع إيزنستات (2000) حديثة: أن أصول الحداثة، والحداثات المتعددة أيضًا لها أصول فى أوربا، أو فى الإطار الحضارى الغربى على نطاق واسع. وأعتقد – فى الواقع– بوجود دلالة مهمة أن الحداثات المتعددة تطورت فى البداية، ليس فى آسيا "أو فى المجتمعات الإسلامية التى

لديها ما يُعزَى لوجود تراث غير أوروبى متميز؛ لكنها تطورت داخل الإطار الواسع للحضارات الغربية" (2000:13). وبدا أن الحداثات المتعددة، نشأت من المواجهات "بين الحداثة الغربية والتقاليد الثقافية والخبرات التاريخية" للمجتمعات الأخرى، وظهر التزامن – أولا– فى أوروبا ذاتها (Eisenstadt 2000: 23). ويؤسس هذا الاعتراف الآن بعدم التمركز حول الرؤية الأوروبية للغرب بوصفه *أصل الحداثة، وكأصل للحداثات المتعددة*(٩).

(٤)

ما هى مساهمة الحضارات غير الأوروبية داخل هذا الاتجاه الجديد؟ كما ناقشت آنفًا: إن الحداثات المتعددة المختلفة الناشئة فى الغرب ترتبط بالأشكال الشمولية – الشيوعية (فى خط ممتد لماضى اليعقوبية Jacobinism "(*)) والفاشية، مع ارتباط كلاهما بأشكال القومية الإثنية. ويفترض إيزنستات (2000, 2001): أن الحركات الشيوعية والأصولية رغم اختلافاتها الأخرى تشترك – على الأقل– بالانشغال بالحداثة والارتباط بمشكلتها الأيديولوجية المركزية، تلك التعددية فى مواجهة اللاتعددية. وقد بدت هذه النزعات بوصفها حركات بعيدة عن السيطرة الضعيفة للتنوير رمز الحداثة الذى تمت رؤيته فى سياق استقلال الإنسان، والسيطرة على الطبيعة. ويتطور الفضاء المفترض للقواعد فى حضارات أخرى بشكل متغاير، أو حتى متعارض، وفقًا لمبادئ الاستقلال والحرية والتعددية، والمشاركة المرتبطة بالشكل المركزى للحداثة الأوروبية. وتبدو النشأة داخل الحداثات المتعددة للأصولية

(*) اليعقوبية: جماعة متطرفة عُرفت بنشاطها الإرهابى خلال الثورة الفرنسية (المترجمة).

والشيوعية الدينية مجازية، وغالبًا ظاهرية فى مواجهة الحداثة، وبصفة خاصة: الحداثة الأوروبية التى بدت "أنها تبرهن على الخصائص المتميزة لليعقوبية الحديثة، وتشترك مع الحركات الشيوعية فى نشر الرؤى الشمولية" (Eisenstadt 2000:19).

ويُعد الفضاء الوحيد المفترض لقواعد الحضارات الأخرى، منحازا مع القواعد الإشكالية العميقة للحداثة الشمولية. إن الشيوعية والفاشية؛ رغم ظهور القواعد المسيطرة للتنوير مع أشكال الاستعباد الاستعمارى جنبًا إلى جنب، لا تعد أشكال الاستعباد هذه جزءًا فى مناقشة الحداثة الأوروبية. ويقدم منظرو الحداثات المتعددة، متوافقين مع تراثهم الفيبرى weberian، رؤية متشائمة ضمنيًا لإمكانات مواجهة مجتمعات عالمية؛ حيث تُرى أشكال شمولية بوصفها أشكالا متعددة جاءت بها الحداثة للوجود (انظر Arnason, 2000, 2003). وتأتى هذه الرؤية على النقيض من الرؤية "المتفائلة" المبكرة لنظرية التحديث التى اعتبرت أشكال الشمولية صياغات شاذة أو ضالة للحداثة. ويشير ثيربورن Therborn – على سبيل المثال– إلى أن نظرية التحديث تجاهلت تأثيرات التاريخ الاستعمارى والاستبدادى؛ ورغم ذلك فهى "مغرمة بنغمة أكثر ليبرالية متفائلة للتغير المبرمج" (2003: 297)، وهى الشىء المفقود فى أكثر تجسيد حديث للحداثات المتعددة.

ما يبدو واضحًا أيضًا فى هذه المناقشة أن ذلك التحليل داخل نموذج الحداثات المتعددة لا يمدنا بسبب لوجود تفاؤل حول ما يمكن *تعلمه* من الحضارات الأخرى، أو كيف يمكن لذلك التعلم أن يحدث تأثيرًا إيجابيًا. وقد بدت هذه الأشكال الأخرى للحداثة تتوالد وجميعها مهتمة بمدى مقاربة هذه الصياغات الأخيرة، أو عدم مقاربتها لصياغة "**الأصالة الأوروبية**"

(لفهم الحداثات المتعددة فى سياق اختلافها عما يكون متـضمنًا فيمـا تمـت المقاربة له). ويُعد هذا التقييم للتعددية، أو من ثم الاخـتلاف، أقـرب إلـى راديكالية ما بعد الحداثة فيما يتعلق بأشكال الحداثة "البديلـة" التـى ناقـشها جاونكار (2001a) وآخرون مقارنة بالمؤيدين لنموذج الحداثات المتعددة الذين يشعرون بالراحة معه. ويمكن رؤيته كونه جـزءًا مـن دورة كلاسـيكية – رومانسية للتنظير حول الحداثة التى نُوقِشَت فى نهاية الفصل السابق.

ولا تزال هذه الدورة تدور مرة أخرى ويمكن رؤيتهـا مـن المفـاهيم الشعبية الأوليـة عـن "**سـيولة الحداثـة**" liquid modernity "**والتحـديث الانعكاسي**" reflexive modernization. وقد بدت الحداثات المتعددة – فى هذه الصياغة- "أنها تمثل تعبيرات غير غربية/عالم ثالث عن التقدم الاجتمـاعى بعد الاستعمار " والتى – وفقا لما ذهب ليه lee- " لا يتم تحديدها بالضرورة مع إعادة تشكيل برمجة التحديث الانعكاسى أو التصور عن سيولة الحداثـة، *وكلاهما ارتبط بتطورات فى الغرب*" (التشديد من عندى 2006:366). وقـد بُحث بقية العالم فى سياق "**الملاءمة**" وأنها تمدنا بمفـاهيم الحداثـة – كمـا يستنتج ليه Lee فى مقالته: "سوف يمنحنا البحث الإمبريقى فرصـة لتقيـيم ملاءمتها للتطبيق [الملاءمة وتطبيق المفاهيم المحددة سابقًا] فى أجزاء مختلفة من العالم" (2006: 367) – ولا يوجد وعى أن بقية العالم تمدنا بأساس لتوليد مفاهيم ملائمة للتفكير بشأن العالم(١٠).

بينما يشير منظرون، مثل: ويتروك (wittrock (1998, 2000، وأرناسون Arnason (2003) إلى أهمية الترابطات، وأشكال التزامن العالمي، والتـواريخ المترابطة والمعقدة فى فهم تطور الحداثة، ونادرًا ما يـدمجون مـا تعلمـوه من قراءة هذه التواريخ فى تحليلاتهم المعرفية. ويـذهب ويتـروك wittrock

– على سبيل المثال– إلى أن أثناء "الفترة الطويلة لوجود المجتمعات الحديثة المبكرة فى أوراسيا(*) Eurasia، حدث تدفق متواصل لأشكال الاتصال الثقافي، والسياسى والتجارى وأشكال التفاعل بين حضارات مختلفة" (1998:38). ولم يطور ويتروك هذه النقطة فى بقية مقالته؛ ولكنه يعيد مرددًا أن *الاختلافات* بين مجتمعات الحداثة المبكرة ومساراتها المنفصلة؛ ليست نتائج ترابطاتها. وحينما ناقش (ويتروك) الترابطات بعمق أكبر وجدها ترتبط بعمليات حدثت جميعها داخل أوروبا (40:2000 23 ؛1998). ويفترض، بمتابعة الواضحة للتراث الفيبري، إمكان رؤية "تشكل الحداثة فى أوروبا كنتاج لسلسلة من عمليات مستمرة أساسية لأشكال تحول سياسية، واقتصادية، وفكرية تدعم وتكيف بعضها البعض بالتبادل" (Wittrock 2000:40). وتُعد أيضا، مسارًا واحدًا فقط للحداثة المبكرة للمجتمع الأوروبى برؤيته قادرًا على التطور للحداثة بدون تفاعل مع مجتمعات أخرى. واعتبار أن كل المجتمعات الأخرى "**حققت**" حداثتها فقط عقب ما يعتبره ويتروك Wittrock، تأثيرًا، والتحولات ذات الأهمية البالغة داخل المجتمعات الغربية.ولا توجد مناقشة حقيقية أو انشغال بالتساؤل عن كيف شكلت تعددية المجتمعات المبكرة نمو الحداثة.

يناقش Wittrock أهمية اتساع المنظور "ليتضمن خبرات الحضارات خارج أوروبا" (Wittrock 1998:27)، ومن الواضح أن ما نعنيه يضع خبرات الحضارات خارج أوروبا فى تواز مع أوروبا، دون مناقشة الروابط بينهم. ويواصل ويتروك حديثه: إن هذه الخبرات الأخرى "قابلة للمقارنة، ولاتزال مختلفة راديكاليًا عن نظيرتها بأوروبا" (28 :1998). ويجذب أرناسون Arnason الاهتمام بالمثل *بتوازى* التطورات (حتى إذا كان أكثر جزئية)

(*) أوروبى آسيوى (المترجمة).

فى المناطق الأخرى"، ويفترض إمكان الاعتراف به؛ بينما لا يزال يلتمس عذرًا لصياغات مميزة لأنماط اخترعت أولا؛ لكنها ليست مفروضة من جانب واحد عن طريق الغرب"(التشديد من عندى 63, :2000). حيث لا يتضمن المعنى الشائع للتوازى علاقة، أو رابطة، أو تأثير يكون واضحا أن أرناسون يتبع ويتروك فى التأكيد على أهمية التطورات فى أماكن "**أخرى**" دون أن تأخذ أهميتها فى المشروعات المعرفية التى تطورت؛ ما لم تُر أنها تشكل اختلافات عن النمط المثالى الأوروبى "**الأصلي**". وقد أمكننا رؤية التطورات *خارج أوروبا* بوصفها تنشأ وتنمو وتوجد فى عزلة عن التطورات *فى أوروبا* – الإشارة الوحيدة للرابطة لاحقة لبلوغ أوروبا الحداثة وهى ذات تأثير أحادى الاتجاه من أوروبا إلى مجتمعات أخرى.

ويكون إدراك "**الاختلاف**"، كما نُوقش سابقًا تعديلا مهمًا للنزعات العالمية المهيمنة داخل العلم الاجتماعي. وإدراك الاختلاف – من ناحية ثانية– غير كاف. ويشكل "**الاختلاف**" أيضًا /*اختلافًا* للافتراضات التى شكلت البحث الأولى – فى هذه الحالة– للأصول الداخلية والنمو الأولى للحداثة فى أوروبا مبكرًا. وقد وصف فيبر Weber الانتشار فى محاولة تحديد الأسباب "**لنهضة الغرب**" و"**المعجزة الأوروبية**" التى تتبعها المنظرون اللاحقون محاولين وصف المعجزة فى أوروبا؛ حيث النشأة الأولية المفترضة للحداثة هناك (انظر المسائل الخاصة لـ *Daedalus* 1998, 2000). بينما ترتبط النزعة التأويلية الواضحة بنشأة معجزة الحداثة فى أوروبا بالمعنى المتأصل فى التفوق الذى ربما رفضه منظرو الحداثة، ويكون التخصيص للغرب كمسألة "**واقعية**" – بوصفه شيئًا حدث يحتاج تفسيرًا – يظل راسخًا فى الموضع الملائم (انظر McLennan 2000, 2006). وبدت كحضارة حديثة تستلزم

حداثة الحضارات، ومن ناحية ثانية ربما اختلاف الحضارات الأخرى عن "**حداثتهم**"، يولد فهما للحداثة الغربية كشكل أصيل وشكل للتعبير ينجز دون *علاقة بالآخرين*.

وقد حُدِّدت التماثلات أو الصلات بين الثقافات على أساس ما إذا كانت الثقافات الأخرى متماثلة، أو مختلفة، عن نظيرتها في الغرب. وتكون الصورة عجلة دوارة مع وجود أوروبا في المركز، وتمثل ثقافات أخرى بوصفها كابحًا على العجلة – جميعها ذات علاقة بأوروبا ولا يوجد حساب لعلاقات بأماكن أخرى مع بعضها بعضا. وافترض وجود التشابه أيضًا؛ حيث كل كابح (ثقافة) لديه تكامل من جانبه، وموجود مستقل عن أحدها الآخر، حتى إن الحداثة الأوروبية انتشرت بعيدًا عن مركز الثقافات المتغيرة في طريقها. وتكون الصعوبة مع هذا النموذج مضاعفة لما يلي: **أولا**– تأسيس المشكلة في سياق المقارنة مع أوروبا لا يدرك حداثة المواقف الأخرى. **ثانيًا**– تؤدي افتراضات الكمال الثقافي، والديناميات الداخلية إلى تجانس التراث والثقافات إضافة إلى طمس الروابط (انظر yu 2006).

ويمثل اتجاه الحداثات المتعددة تحديًا لنظرية التحديث، ربما لديه دلالة ما في سياقاته الخاصة؛ لكنه أقل كثيرًا في أصالته مما يفترض مؤيدوه. ويكون الترحيب بصفة خاصة بتحلل بنيته للانقسام البسيط، الذي يفضله بعض منظري التحديث، بين التقليدي والحديث؛ حيث يُفهَم التقليدي عمومًا في سياق الركود والتخلف والحديث كديناميي وتقدمي. ويكون التركيز بالتوازي معهم على التطورات في أجزاء أخرى من العالم والاعتراف بالديناميات الثقافية الموجودة داخل تلك المجتمعات، ويمدنا منظرو الحداثات المتعددة بإصلاح ضروري للتحليلات التي استندت على أفكار الشرق الراكد،

والأحمق الذى استيقظ من سباته – فقط– عقب مواجهاته مع الغرب. ويجب الاعتراف – من ناحية ثانية– أن هذا النقد قدم أيضًا فى ذلك الوقت نظرية تحديث كانت مهيمنة، كما ناقشنا مبكرًا فى الفصل؛ وليست هذه هى الرواية تماما. حيث تفترض المقدمة الأساسية لمنظرى الحداثات المتعددة بحث الافتراض المهيمن بالتقارب ونتيجته الطبيعية بمسار واحد للحداثة، وهى ذات كفاءة مهمة لنظرية التحديث. ويكون تجاهلها ذا دلالة – من ناحية ثانية– بفشل التوجه بما يجعل الغرب يظل النقطة المرجعية.

وقد أكد اتجاه الحداثات المتعددة على فكرة أن وصف الديناميات الداخلية للثقافات الأخرى كافيًا للتغلب على الاتهام عن طريق التمركز حول السلالة الأوروبية، والاعتقاد أن تأكيد الرؤية من الغرب للشرق ضرورة للمنهج المقارن؛ لأنه ضرورى لبحث منهجية المقارنة وارتباطها بنظيرتها من الأنماط المثالية. وإن تركيزه على الديناميات الداخلية للحضارات *المنعزلة* عَجَّزَه عن اتخاذ رؤية/*أخرى* إلا من الغرب. وأود مناقشة أن الاتجاه المقارن يفاقم مشكلة التمركز حول السلالة الأوروبية بتجاهل (وحتى بالإقصاء الفعال من خلال استخدامه للأنماط المثالية) التواريخ المترابطة والمتشابكة التى تشكل أساسًا لفهم ملائم للسياق العالمى للعمليات الاجتماعية – التاريخية.

(٥)

يفهم منظرو الحداثات المتعددة نشأة الحداثة فى أوروبا كونها افتراضًا قيمى محايد لا يقبل الجدال بما يتبع إلى حد بعيد تفكير ومنهجية فيبر weber عن الحداثة (أو التحديث)، ويرون أن البداية لفهم عملية التحديث ضرورة

استكشاف أسباب نشأتها فى أوروبا، ومن ثم تقييم علاقة حالات أخرى بهـــا. وقدم هذا الاتجاه المقارن من خلال منهجية "الأنماط المثالية"؛ حيـــث تُبْحَـــث مسارات حضارية مختلفة فى علاقتها مع بعضها الآخر، أو مـــع أوروبـــا، أوالغرب. ويذهب منظرو الحداثات المتعددة إلـــى أن الأفـــضلية لاســـتخدام "الأنماط المثالية" أكثر من الاتجاه التطورى المرتبط بنظرية التحديث لفهـــم الاختلافات كانحرافات: "انحرافات ليس عن معيار؛ لكن عن نموذج مثـــالى استخدم فقـــط لأغـــراض موجهـــة" (Eisenstadt and schluchter 1998:7). ويناقشون – أيضا– أن النموذج المثالى للحداثة الغربية يخدم *كمستوى عـــام* لمواجهه تحليل الحضارات الأخرى، وضمان إمكان القول: إن "كـــل شـــيء متميز ولذلك مختلف" (Eisenstadt and schluchter 1998: 7). وتمثـــل تلـــك العمليات – من ناحية ثانية– الطبيعة المجردة لنماذج مثالية داخلية، ومنفصلة عن تلك المتمثلة فى النماذج المثالية الأخرى. (انظر Weber 1949, kalberg 1994). وتخدم المنهجية – فقط– فى دعـــم الاختلافـــات بـــين المجتمعـــات وافتراض الانفصال لمساراتها، بدلا من تيسير بحث روابطها.

يناقش فيبر Weber فى مقالته عن "**الموضوعية**" فى علـــم الاجتمـــاع تشكل "**صورة مثالية**"، أو "**تموذج تصوري**" للظـــواهر التاريخيـــة يعـــرض "مركبا لعلاقات معينة ولأحداث تاريخية للحياة، يُرَى كنسق متناغم داخليًـــا" (1949:90). ويتشكل التحليل التاريخى بوضع *مفاهيم شاملة* قادرة على تشكيل "**تموذج مثالي**" فى مواجهة الاختلافات اللاحقة التى أمكن مقارنتها بأســـلوب حياد قيمي. وقد أدرك فيبر أن هذا النموذج لا يمكن "وجوده إمبريقيًا فى أى مكان فى الواقع"، ويجرد من واقع أكثر تعقيدًا، وقد افترض أن "لا مفر منـــه للأغراض التوجيهية إضافة إلى تلك التفسيرية"، ويزودنا بنموذج مفيـــد فـــى

مواجهة تقييم الواقع انظر (1949: 90, outhwaite 1983, 1987 Burger 1987) ويعترف فيبر بفشل هذا الفهم؛ لأن النموذج المثالى يشير "للواقع" فى بنيته، وافترض أنه "**حقيقة**" تصورية توجد مجردة من تاريخها وموقعها الخاص، وتعتبر قابلة للتطبيق كموجة فى كل المواقف. واستخدام هذا الاتجاه فى تقييم الثقافات الأخرى يطمس الوضع الثقافى لتركيب النموذج المثالي فى المقام الأول.

تركز مناقشة فيبر الاهتمام على أحد المشكلات الأساسية لقبول هذا الفهم؛ إذا كان شخص ما- من ثقافة أخرى يشير فيبر إلى محاور صينى افتراضى – يرفض "المثالى فى حد ذاته، والأحكام القيمية الملموسة المشتقة منه. لا أحد يستطيع من الاتجاهين الأخيرين التأثير فى القيمة العلمية للتحليل بأى طريقة" (1949: 58-9)، ويفترض أن ذلك الاتفاق على التحليل المعرفى ونتائجه حالة عقلانية، ويستطيع جدل العلم الاجتماعى تجاوز الموقع الثقافي. وكما يناقش بيرجر Burger: "الافتراض الضمني، دائمًا ما يتشكل النموذج بشكل لائق" (1987:139). ومن المفترض أن النموذج المثالى فى البداية كبنية عقلية تُستَنتَجُ من كوكبة من ظواهر "**واقع إمبريقي**"، فى حين يتعارض "**الواقع الإمبريقي**" مع البنية العقلية؛ إنه واقع إمبريقى غريب وفى حاجة إلى تفسير كما يُوْصَفُ "**الانحراف**" فى نموذج مثالى آخر متميز، كما يُعارَض؛ لأنه يستلزم إعادة تركيب البنية العقلية ذاتها (Holmwood and stewart 1991).

لا أرغب مع ذلك فى اختزال التصورات التاريخية للغة المستخدمة فى تضفيرها، ومن الضروري: الاعتراف بأهمية المقولات المفاهيمية المتاحة دون أى محاولة لفهم لا يمكن تخيله. ويبدو أن قبول تفسيرٍ خاص "**للواقع**"

- كما يناقش بيرجر- كحقيقة موضوعية يستلزم "اتفاقًا ذاتيًا متبادلا وهو أن مضمونًا معينًا يفترض شكلا مقوليًا خاصًا" (65 :1987)(١١). ومن ناحية ثانية، يجب افتراض تساؤلات: "من يكون جزءًا من الاتفاق الذاتي المتبادل؟" و"كيف يصل الاتفاق الذاتى المتبادل إلى تمثيله عالميًا؟ ويجب على هذا المحاور الصينى الافتراضي لفيبر أن يقبل المقولات؛ مع أنه لم يشارك فى الحوار الذاتى المتبادل الذى أسسوه. إضافة لذلك، ما الذى يمكن إجراؤه حينما تصبح "**الحقائق**" التى كان هناك اتفاق سابق عليها الآن موضعًا للنقاش (ربما كنتيجة للاشتباك مع محاورين جدد)؟ وكما يجب أن يكون واضحًا: أن المحاورين الجدد الموجودين فى ذهنى هم هؤلاء الذين أُقْصِيَت خبراتهم بدرجة كبيرة من التصورات الغربية المهيمنة للحداثة؛ أعنى هؤلاء الذين خضعوا للمواجهات الاستعمارية(١٢).

تؤسس نظرية التحديث تقسيم التقليدية – الحداثة كتقسيم المثالية– النمذجة تلك التقسيمات المستقرة داخل نظرية عامة للنمو الخطى التطوري. وقد استقرت المجتمعات الغربية فى قمة هذا المخطط؛ حيث الاعتقاد أن هناك بداية نوعية متقاطعة للحداثة؛ بينما استقرت مجتمعات أخرى فى نقاط مختلفة متأخرة عنها محاولة بيأس اللحاق بها من خلال تقليد الغرب. وقد اتخذت الخبرة الغربية مثالا تاريخيًا أوليًا لنموذج الحداثة فى حين استند هذا الجدل على "رؤية" الحالة الأصلية "للتخلف والتنمية"؛ حيث تفترض أن التعميمات الإمبريقية، أو المفاهيم القابلة للتطبيق بشكل محدود، وتفترض تعميم النماذج المثالية" (Bernstein 1971: 150). والتى تكون فى هذا المثال: النماذج المثالية للتقليدية والحداثة(١٣).

ويعترض بيرنستين Bernstein على التقسيم المثالى النموذجى الذى تأسس بين التقليدية والحداثة قائلا: إن "تجمعات السمات يشكل نموذجًا مثاليًا للتقليدية، ويعكس غالبًا التمركز حول السلالة المتضمن فى صيغة الحداثة" (1971: 146). وتُفهَم الاختلافات عن أى معيار تصورناه بأى من الأسلوبين التاليين: **الأول**- مرضى Pathological، أو منحرف deviant (انظر حول الشيوعية 1960 Rostow)، **والثاني**- انتقالى انظر على سبيل المثال (Bendix 1967) أو يشكل "**تخلفًا**" (أو باستخدام اللغة الماركسية، "تنمية غير متكافئة") (Bernstein 1971:151). ويستخدم منظرو الحداثات المتعددة بدورهم نماذجًا مثالية حضارية لتعدد مشكلة استخدام نظرية التحديث للنماذج المثالية التقليدية – الحداثية ولتفنيد تأييدها للنظرية العامة الخطية بدون إدراك أن ما يفعلونه يؤدى لتعدد النظرية الخطية الحقيقية داخل كل نموذج مثالى للمجتمع الذى ناقشوه؛ فى حين أن أى حضارة تستقر فى إطار أكبر (غير معترف به) أسسته أوروبا. وتكون مسارات الحداثة حتى ذلك الحين مختلفة، ويوجد اعتقاد بوجود نقطة أصلية يشتق المسار الأولى منها، فى مواجهة الآخرين؛ وبناءً عليه تُقاس (هذه هى أوروبا).

تجرد النماذج المثالية، من ترابطات بنظرية عامة تنشد تصنيف الروابط فى وصف غائى متمركز حول النزعة الأوروبية. ويكون نموذج الحداثات المتعددة مضادًا للغائية؛ لكنه فى الواقع متمركز حول النزعة الأوروبية، وينفذ تمركزه حول السلالة الأوروبية إلى منهجه من خلال الفشل فى إدراك التواريخ المترابطة. ويجب أن يتضمن أى تجريد من أكثر الظروف الإمبيريقية تعقيدًا إن الظروف المتضمنة فى النموذج لا تكون ذات دلالة فى حد ذاتها. ويكون واضحًا أن المنظرين حينما يعرضون "**الملامح العامة**"

للحداثة، لا يشيروا للمواجهات الاستعمارية والأنساق الإمبريالية المرتبطة بكل من بداياتها واندماجها واتساعها. إن وضع الحداثة باستمرار في شكل مثالي يفصلها عن سياقاتها الأوسع، مما يؤدى إلى أحداث تُعَرِّف هؤلاء الخاضعين لهم بكونهم "منبوذين" unfortunate وَعُزيت العوارض الإمبريقية كمشكلات تحول[١٤].

ولا تكون رؤية الأحداث مثل إبادة الناس (كما فى تسمانيا)، والطرد والإبادة الجماعية ثقافيًا (كما فى الولايات المتحدة الأمريكية، وأستراليا)، والاستعباد (للأفارقة)، وعمالة العبيد (كما فى الهند) على أنها ذات دلالة فى فهم نشأة الحداثة، أنها تمنح المصداقية لتأكيد ليمرت Lemert أن "اكتشاف الغرب وبقاءه تأسسا على الإنكار الكبير لحقيقة عدوانه وشره" (1995:205). ولا يجب إدراك هذا العدوان والشر – من ناحية ثانية– فى سياق وجود خاصية أساسية للغرب؛ لكن كجانب اجتماعى – تاريخى فى حاجة ملحة لوضعه فى الحسبان؛ ويكون الموقف الحالى بتجاهل هذه الأحداث، وتجنبها، وحظرها وعدم التأمل فيها كجزء من تاريخ الغرب فى تصور الغرب لذاته[١٥] أنهم يحتاجون إلى اهتمام عاجل.

(٦)

كما يناقش ديرليك Dirlik، بتحديد هوية "**التعددية**" ذات الجانب الثقافي، و"تسعى فكرة" الحداثات المتعددة" لاحتواء تحديات الحداثة بمَنح فرصة للاختلاف الثقافى كأساليب لحياة الحداثة" (2003:285). ويمكن القول من ناحية ثانية: إنه لا شيء يخاطب المشكلات الجوهرية فيما يتصل بالأشكال المعرفية للحداثة ذاتها. وتوجد مناقشات للحداثة تحدد الهوية فى أماكن أخرى،

ويستمر الناس فى وضع هؤلاء الآخرين فى سياق مقــولات عامــة ســبق تحديدها، ويُدرك الآخر أنه يمثل تقاليد الكمال المنفصلة عن التقاليد نفــسها. ويُترك الآخر، كآخر ولا يوجد معنى نتعلمه منه، ونعيد تشكيل مقولاتنا مــن الفهم كنتاج المعرفة الجديدة التى تحققت (Holmwood and Stewart 1991). وبينما يزعم تقديم أساليب جديدة لفهم مفهــوم الحداثــة، تــستمر نظريـــات الحداثات المتعددة فى الاستناد على افتراضات الحداثة الأصلية للغرب التـــى يكيفها الآخرون، ويوطنونها، أو يجعلونها تميل للانتحــاء(*). بمــا يجعــل *خبراتهم لا تختلف عن العوالم السابقة فى الوجود.*

ويحدد الشخص - كما ناقشت- علاقات جوهرية مفقودة من التنظيــر للحداثة وهى النزعة الاستعمارية. وقد ناقش بيرنستين Bernstein- الذى فيما يبدو أنه صوت وحيد فى السبعينيات- نمطًا للتحليل السوسيولوجي- يبحــث الموقف الاستعماري، وأوضح كيف استطاعت نظرية التحديث الوقوف على رأسها وذلك يتضح مما يلي: **أولا**- بالاقتراب من دراســة التنميــة بمــنهج تاريخى **وثانيًا**- بكونها تشكل تساؤلات أكثر ارتباطًا بالاحتياجــات الملحــة للموقف الحالى (1971:154). ويقف هذا التصور - كما يقــول بيرنــستين- "واقعيًا ويعكس تقاليدًا مختلفة للتحليل السوسيولوجي، فى مغايرة مباشرة لذلك التصور الذى اشتق من نظرية التحديث، وكان حائلا دون تحديد ديناميـــات وتناقضات الموقف الاستعمارى كشيء فريد بمشروع للتحليــل فــى ســياق عناصر "**التقليدية**" و "**الحداثة**" الذى أنتج دينامية فقط فى مفهــوم "**التحــول**" transition، أو الحركة على متصل التقليدية –الحداثة" (Bernstein 1971: 154). وما نحتاجه - كما يواصل حديثه- عن طبيعة العلاقات بين مجتمعات تقليدية

(*) الانتحاء: نزعة الحيوان أو النبات إلى الحركة أو الدوران استجابة لمنبه ما (المترجمة).

وحداثية بُحِثَت، ونُظِّرت. ويتضمن اتجاه التعدد الحضارى خبرات وتــواريخ الحضارات الأخرى، ولا يعرض أكثر من تلك الخبرات والتواريخ جنبًا إلى جنب مع مثيلتهـا الأوروبيـة. وعلـى النقـيض؛ ينـاقش سـوبراهمانيام Subrahmanyam (1997): أن ما نحتاجـه فهـم العمليـات الاجتماعيـة – التاريخية التى تكونت فى ضوئها الظواهر العالمية الـشاملة ذات المـصادر والجذور المختلفة والمترابطة.

إن نقص روابط تصوراتنا بالعمليات الاجتماعية – التاريخية من المسار الأوروبى والتركيز ليس فقط على المصادر والجذور المختلفة؛ لكن أيـضًا على أساليب تفاعلها وتشابكها طول الوقت يزودنا بفهم أكثر ثراءً لتعقيـدات العالم الذى نعيش فيه والعمليات التاريخية التى تشكله. وأرى وجود ضرورة ملحة لتوجيه الاهتمام لهذه *الترابطات* التى تعارض تشيؤ الهويات المفترض ارتباطه، وكل ذلك يُحَافظ عليه حتى ذلك الحين فى الذاكرة "ما نعالجه لـيس منفصلا وقـابلا للمقارنـة؛ لكنـه تـواريخ مترابطـة" (Subrahmanyam 1997:748). وكما ينـاقش وشـبروك washbrook: إن تحـديث بريطانيـا لا يمكن تصديقه باستثناء فى السياق العالمى الأوسع؛ حيث كانت الهند فـى ذلك الحين جزءًا حيويًا متضمنًا" (1997: 410). وأتبنى كنقطة بدايـة إعـادة تشكيل إطار مقارن، سوف يشغل القسم التـالى للكتـاب، ويـشن براكـاش Prakash الجدل فيقترح ذلك الافتراض الخاطئ، الـذى خلـده عديـد مـن المنظرين كما *عارضه* البعض؛ أن الغرب "صاغ الصفة المميزة لمـشروع حداثته قبل السيطرة عبر البحار" (1999: 12).

يناقش وشبروك (1997) – على سبيل المثال– أن الغرب له الأسـبقية فى نشأة الحداثة، وكان مثالا نموذجيا كنسق "**مغلق**" للثقافة، أو مكتف ذاتيًـا، فى عالم يتألف من أنساق أخرى. ويطلق أى بديل لهذا الشك فى "**مصداقية**". أصول الحداثة فى الغرب. ويواصل وشبروك حديثه – من ناحية ثانية– أن تبنى هذه الرؤية، لمعالجة "ثقافات وحضارات مغلقة ومستقلة، ويوجد دليـل راجح على الاتصال والتفاعل العميق بينهم أثناء منتصف الألفية التى سبقت تشكيل الحداثة لأى مظهر قابل للاكتشاف" (1997: 413). وتـدرك الحداثـة، على أنها تشكلت من خلال العلاقة الاستعمارية، انظر (Barlow 1997) – ولم تكن النزعة الاستعمارية colonization نتاجًا للحداثة، أو تشكلت من خلالها؛ لكن تطورت الحداثة ذاتها من المواجهات الاستعمارية، التى جذبت الانتبـاه بصعوبة نحو فكرة "**الانتشار**" diffusion. وقـد شـكلت هـذه المواجهـات الاستعمارية – أيضًا آنذاك– الظروف لنشأة "قواعذ ضعيفة للتحـرر" مـن الحداثة وانفصلت الحداثة عن أصولها فى العلاقـة الاسـتعمارية، ورؤيـت مصدرٌ لتحرير الآخرين[١٦].

وقد فقدنا المصداقية مع علم اجتماع الحداثةsociology of modernity، وكما يفترض وشبروك – أيضا– توجد حاجه لإعادة التفكيـر فـى أسـس معرفية لتاريخ الحداثة (1997, 416). ويناقش – من أجل– تبنى افتراضـات منهجيه معينة، أكثرها أهمية أن المجتمعات لا توجد كهويات "**مغلقة**"؛ لكـن كجزء من سياق عالمى أكثر اتساعًا (1997: 417). وقد أمكن استخدام تواريخ أجزاء أخرى من العالم، آنذاك، لتصدع التاريخ المشترك المقبـول للغـرب ولإظهار أن" الغرب ليس لديه أصول رغم ادعاءاته التميز، وتواريخه التى لم يستطع جمعها بشكل كاف فى شـكل سـرد فريـد" (Mitchell 2000 :24).

وتفترض بونيت ponnett أيضًا: أن المحاولة لإعادة التفكير فى العلاقة بين الغرب والحداثة، و "للانتقال بعيدًا عن قلة التبصر بالتركيز على "كيف شكّل الغرب عالم الحداثة"، استلزم منا التخلى عن أحد الأفكار الرئيسية المبتذلة فى عصرنا – أن قصة الحضارة الغربية هى قصة الجنس البشرى ذاتها – وبدلا من ذلك، فهم الحضارة الغربية *بكونها مجرد واحدة من قصص الإنسانية* (2005: 508). وتفترض بونيت لهذا الهدف: أن فهم هاروتونيان Harootunian (2000) للحداثة أنها تماثل فى التطور وتعايش، حداثات تتجاوز الاتجاهات السابقة بالسماح لنا بالتفكير فى الحداثة مع إمكانية الاختلاف.

ولا يكون بحث الإرث الاستعمارى – فقط– بمناقشة المنظور النقدى عن الأشكال الأوروبية للمعرفة؛ إنه أيضًا حول إشكالية التأكيد المطلق أن أشكال المعرفة أوروبية. وينبغى أن يتم هذا من خلال استخدام الأرشيفات العالمية، والعلوم الجغرافية والتاريخية التى تسمح لنا برؤية تلك النظريات والأفكار التى نستخدمها ولم يخلقها انتشار الثقافة من مركز كان آنذاك له تأثيره على العالم؛ لكن من خلال ترابط العمليات والنماذج paradigms التى هى ذاتها فى تفاوض وتطور باستمرار (انظر Pollock et al, 2000). ولا يكون تطور الحداثة فى مجتمعات أخرى ضعيفًا مقارنة مع نشأة الحداثة الأوروبية، ولا منحرفًا مقارنة مع الفهم المثالى – النموذجى لها الذى استُخْلِصَ من الخبرة الأوروبية، وتقدم العمليات والتطورات المختلفة تفسيرًا ثريًا لمفهوم الحداثة وممارسات حديثة، وأكثر ملائمة، للحاضر والمستقبل. ويتشبث السوسيولوجيون فى الوقت نفسه بافتراضات عالمية عن نظرياتهم للحداثة فى خشية أن يدفعهم ذلك لليأس والتخلى عن الميدان للنسبية المتأنية (انظر،

على سبيل المثال، Alexander 1995). وأناقش أنه على النقيض لا شيء فقدناه باستثناء بعض التعصب.

وسوف أعترض – في القسم التالي من الكتاب- على "**حقائق**" الحداثة الأوروبية، بمناقشة أن فهم أوروبا في سياق الترابطات العالمية سوف يقدم فهمًا أفضل لكيف تطورت الحداثة، وفي الوقت نفسه، يغير فهمنا لما نعنيه بالحداثة، ويغير فهمنا "**لملكية**" أوروبا للحداثة كمشروع أصلي. وقد اخترت ثلاثة مناطق للبحث، مستخدمًا خطاب الحداثة وأشكالها المؤسسية للدولة والسوق. وسوف أستمر – في كل فصل- بتقديم الحالة القوية للتميز والأصالة الأوروبية قبل تفكيك البنية deconstructing لتلك الحالة في سياق الترابطات الأوسع، والإسهامات الأوروبية الخارجية؛ إضافة إلى المناقشة في سياق ما يُنسب إلى الانفصال بقطع العلاقات بين التقليدية والحداثة.

وقد انتقد جون جولدثورب john Goldthorpe (1991) علم الاجتماع التاريخي لفشله في تأسيس مبادئ تشكل الاختيارات وسط إسهامات الجدل التاريخي الذي يقدم دليلا للادعاءات التي تشكلت داخل علم الاجتماع التاريخي ذاته. ويقول: الاتجاه إما "اختار وامزج" Pick and mix في تاريخ محل الحلويات (225 :1991). ومن المؤكد توجد "**حقائق**" و "**تفسيرات**" لدعم فكرة الحداثة الأوروبية، وكثيرًا ما ينوه عن هذا داخل علم الاجتماع التاريخي كشيء حقيقي، رغم أن التفسيرات والتفنيدات البديلة "**للحقائق**" متاحة. بينما بخلاف جولد ثورب أنا لا أعتقد أنه من الممكن تقديم مجموعة من المبادئ المحددة، وسوف أناقش: أن الأهمية لهذه المناقشات البديلة تكون كافية لافتراض بديل لفكرة الحداثة الأوروبية التي تكون مقبولة ومن المحتمل منتجة لرؤى جديدة حول عمليات تاريخية واجتماعية. وتكون الاستجابة

العامة وسط السوسيولوجيين التاريخيين لمناقشة هذا النوع أن "**اختيـــاراتهم**" تكون تصنيفية، وأن تلك التوصيفات "**بالانحراف**" deviant لأى حدث خاص لا ينضم لشيء ما تصنيفيًا مثله (انظر Bryant 1994,mann 1994). وإلى حد بعيد بصرف النظر عن تميز اختياراتهم المتضمنة، سوف أنــاقش: أن هــذا الدفاع غير صحيح، وأن الحالات "**المنحرفة**" تنضم لوصف تصنيفى مختلف وفهم تأريخى historiographic رسمى مختلــف، وأعنـــى تلــك "**التـــواريخ المترابطة**" كونها بديلا لتواريخ متمركزة حول النزعة الأوروبية(١٧).

إن هؤلاء الذين يناقشون "**الحقائق**" عن التميــز الأوروبـــى لا يقــدموا بالضرورة حالتهم فى سياق الثلاث مناطق التى سوف أبحثها، ورغــم ذلــك هناك العديد يفعلون؛ لكن الادعاء بالتميز استند على القطيعة rupture علـــى الأقل فى أحد الميادين. ويقبل بيتر فاجنر Peter wagner – على سبيل المثـــال– فكرة أن التحولات المؤسسية بطيئة جدًا وتأخرت زيادة على عــدة قـــرون؛ ونتيجة لذلك لم يكن من الصعب بالنسبة له قبول وجود عديد من التـــأثيرات الخارجية على ما يمكن تقديمه بطريقة أخرى كونه تطورًا داخليًــا للحداثـــة الأوروبية. ويناقش وجود قطيعة منطقية تمثل تغيرًا ملحوظًا وحاســمًا فـــى الثقافة الأوروبية، ويكون ذلك علامة حاسمة على التميز الأوروبي. أنا أدير هذا الادعاء أولا مع مناقشة لفكرة عصر النهضة كمؤثر جديد واعٍ ومتميـــز نشأت منه القواعد الأساسية للحداثة الأوروبية، وخطاب التنوير.

الجزء الثاني

تفكيك التمركز حول النزعة الأوروبية

تواريخ مترابطة

الفصل الرابع

أساطير الكمال الثقافى الأوروبي

"عصر النهضة"

عُرف عصر النهضة على نطاق واسع بأنه كان مبشرًا بميلاد أوروبا الحديثة؛ حيث إن التطورات والابتكارات فى مجال الفنون والتعليم ساهمت فى التصور الذاتى لهذا العصر على أنه عصر حديث، وكذلك لما سُمى فى الماضى بعصر النهضة. ولقد كان "اكتشاف" العالم الجديد – على وجه الخصوص– فضلا عن التطورات فى مجال العلوم والطب – والتى برهنت لنفسها والأجيال اللاحقة – تفوق هذه الحقبة على الفترات التاريخية السابقة لها. وبناءً على حكمة العالم القديم؛ طور علماء عصر النهضة فروع الدراسة المعنية بالحالة الإنسانية العلمانية التى أُطلق عليها فيما بعد "**المذهب الإنساني**" ثم العلوم الإنسانية. وشهد ذلك تطور "**المذهب الواقعى المفاهيمي**"[١]، الذى تميز بظهور النظرية وارتبط بالتأكيد الواضح على التحليل والنقد. بهذه الطريقة أصبح يُنظر إلى الاكتشافات الجغرافية، و"**المذهب الإنسانى العلماني**"، والنظرية الاجتماعية؛ ليس فقط على أنها جزء من الحركة الثقافية الأوروبية؛ بل أيضا كمرادف لها. ومع تغيير الأنماط السائدة للتفكير أيضًا فى مجال الفنون، كصورة ذهنية متميزة لهذا العصر؛ فإن الفن والعمارة فى عصر النهضة هى التى بقيت بشكل أكثر وضوحًا عبر العصور كتجسيد ثقافى لهذه الفترة. وفى هذا الفصل؛ تناولت الخطاب السائد فى عصر النهضة على أنه العصر "**الحديث**" و"الأوروبي"، وقيمت المزاعم المقدمة من جانب العلماء بشأن أهميته التاريخية وجذوره ذاتية المنشأ وكذلك تكامله الثقافي.

ويجادل واس فرجسون Wace ferguson (1948) – في دراسته الكلاسيكية التى غطت خمسة قرون– تفسير عصر النهضة بأن مشكلة عصر النهضة هى مشكلة مزدوجة وتتعلق ليس فقط بحقائق ما حدث؛ بل أيضًا بالتأويل الذاتى لهذه الحقائق. فى كل عصر يقترح أن تواريخ عصر النهضة تعكس البحث عن جذور المعتقدات والقيم المعاصرة "**كما تنعكس فى واقع حقبة بالغة الأهمية لتطور الحضارة الغربية**" (386 :1948)، وضمنيًا للعالم بصفة عامة. ورغم الاختلافات فى التفسير؛ فإن تركيز عصر النهضة على التواريخ اللاحقة هو أمر لا يساوره شك. ويرى نيسبت (1973) مثلا أن دراسة توجهات قريبة الشبه جدًا من الدراسة التقليدية للكاريزما؛ بمعنى أنه رغم الانتقادات المستمرة لعصر النهضة من زوايا متعددة، كان هناك تأثير قليل على هيبة وازدهار الطائفة الحرفية فى عصر النهضة، وعلى وجه الخصوص تكوينها لعصر النهضة باعتباره مبشرًا لـ (أو على الأقل يميل نحو) العصر الحديث (474 :1973).

وعلى مدى العقود القليلة الماضية وبشكل جزئى نتيجة للمناقشات الناشئة حول ما بعد الحداثة، كان هناك مزيد من إعادة النظر فى علاقة عصر النهضة بالعالم الحديث والواقع المعاصر (انظر Bouwsma، 1970 1979 Trinkhous). وقد انطوت إعادة النظر هذه على تحول التركيز بعيدًا عن المؤسسات الاجتماعية والسياسية إلى دراسة علاقة النهضة بنزعات "الشك والنسبية والنفعية" فى الثقافة المعاصرة (Bouwsma 1979 : 10). وكما يقول جرينبلات Greenblatt فإن تركيز الدراسة قد تحول من بحث تاريخى للفنون والتعلم بمعزل عن دراسة الطرق التى تكونت بها هذه الفترة فى "**تشكيل الجوانب المهمة بإحساسنا بالذات والمجتمع والعالم الطبيعي**" (1980 : 174- 5).

وفى خضم مظاهر القلق هذه المتعلقة بالإحساس بالذات، والمجتمع والعالم؛ مما يعنى أن عصر النهضة "**أُعيد اكتشافه**" باستمرار فى محاولة لفهم الجذور (الأوروبية) للقضايا المعاصرة. على سبيل المثال؛ فإن التوتر بين الإبداع والنزعة السلطوية الذى اتخذ تعريف الحالة الإنسانية فى عصر الحداثة – كما أشرنا إليها فى الفصل السابق– تُفْهم فى ضوء جذورها الضاربة فى فكرة عصر النهضة عن "**تشكيل الذات**" بمعنى فكرة الإنسان باعتباره مبدعًا لنفسه والعالم (Bouwsma 1979 : 13). والاستقلالية "**للإنسان**" التى نتجت عن ذلك عبرت عن نفسها للمرة الأولى خلال هذه الفترة (انظر مثلا أعمال [1575] Montaigne 1993)، باعتبارها نزع القداسة عن السلطة المسلم بها على أنها نظير لها.

ومع الأسئلة التى طُرحت بخصوص الأهمية المستمرة لعصر النهضة فى عصرنا المعاصر؛ فإن أكثر التفاسير المتفق عليها هى التى تعتبر أن عصر النهضة بوتقة لظهور "**القوانين الثقافية**" للحداثة، وكذلك لكونه فترة تحول جوهرى إلى العالم الحديث(٢). وكما ذكر تولمين Toulmin فى مناقشاته الشاملة عن ظهور وتطور العصر الحديث؛ "**فقد كان عصر النهضة بوضوح مرحلة انتقالية فيها غُرست جذور الحداثة ونمت**" (23 : 1990)، وإن تحديد موقع عصر النهضة بهذه الطريقة يُمكِّن العلماء من التكيف مع كل المظاهر غير العادية والاحتفاظ بخصوصية العصر بالقول مقارنة بالعصور الأخرى؛ لتكون فترة تحول غير عادية أو متسارعة (Bouwsma 1979).

سَعَيْتُ فى هذا الفصل – إذًا– إلى رفض المفهوم المقبول قبولا عامًا على أنه أصل الوحدة الثقافية لأوروبا، وعلى أنه عصر تحول إلى عالم حديث متميز. ودرس الجزء الأول من هذا الفصل مكانة عصر النهضة فى التأريخ

الأوروبي، ودرست باختصار كيف فُهم على مر العصور، والزعم العام المتعلق بسبب اعتباره "**ساعة الميلاد**" لأوروبا الحديثة. ويدرس الجزء الثاني بمزيد من العمق خاصيتين من خصائص عصر النهضة اللتين أدتا إلى وصفه بأنه ميلاد العصر الحديث، أي إعادة اكتشاف النصوص القديمة، وظهور الفهم النظرى المفاهيمى للعالم، كما يتناول أيضًا طرق بناء أوروبا فى ضوء حضارتها (بإدماج كل من الفنون والتعلم) وسياسيًا (خلال تنظيم أراضيها وإدارتها). ويناقش الجزء الأخير؛ الوضع الأيقونى لعصر النهضة فى سياق مزاعم أنه كان مبشرًا بظهور فجائى للعصر الحديث؛ وافتراض الوحدة الثقافية، والتفوق الضمنى لأوروبا. ويعنى هذا الفصل أساسًا باستخدام أعمال مؤرخى العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث، والعلماء العاملين فى ثورة الطباعة، ومؤرخى الفنون العالمية، وغيرهم من أجل تمحيص وإعادة تشكيل الخطاب السائد عن عصر النهضة، ومن ثم فكرة "**أوروبا الحديثة**".

(١)

ربط ياكوب بوركهارت Jacob Burckhardt ([1860] 1990) فى القرن التاسع عشر باستمرار بين عصر النهضة والحداثة، وعند العديد من المؤرخين، كان هذا جزءا من الفهم الذاتى للعصر ذاته. على سبيل المثال: يرى جون هال John.Hall أنه كان بين "**منتصف القرن الخامس عشر وأوائل القرن السابع عشر**" فى عصور مختلفة وأماكن مختلفة، ولأسباب مختلفة – أصبح المفكرون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم يعيشون فى عصر بسبب تشابكه مع القرون الماضية كأنه عصر مختلف (1994: 592). ويتفق رأى بيتر بيرك Peter Burke مع هذا التقييم بحجة أنه رغم أن "**العصور**

الوسطى لم يكن يعرف الناس خلالها أنهم يعيشون فى هذه العصور الوسطى؛ فإن أفراد عصر النهضة كانوا واعين للغاية بحقيقة أنه كان عصر النهضة" (2: 1964).

ويعتقد أن النهضة الأدبية التى بدأت فى القرن الرابع عشر بعلماء، مثل: بوكاتشيو Boccaccio، ودانتى Dante، بترارك Petrarch كانوا علامة على تطور حاد فى تقاليد العصور الوسطى، والتى أدمجت فى تصور وصياغة فكرة النهضة بوصفها إحياء بتأثير من النماذج الكلاسيكية (Bradner 1962) (1953)، (Panofesky 1960). على نحو واعٍ تحولوا من فوضى العصور المظلمة؛ فإن من المعتقد أن هؤلاء العلماء بحثوا عن النصوص المنسية للعالم الكلاسيكى لمعرفة ما يمكن أن يُعلم بشكل مفيد من مؤلفين، من أمثال: أفلاطون، وأرسطو وفرجيل. ومع المعرفة المكتسبة من هذه النصوص كان يأمل العلماء إعادة بناء العالم القديم- وهو مجتمع اعتقدوا مبدئيًا أنه متفوق عن عالمهم، ولكنه أقرب إلى اهتماماتهم مما كانت عليه القرون الوسطى السابقة – ومن ثم كان إيذانًا بعصر جديد؛ عصر كان يُطلق عليه العصر الحديث والذى يُفهم على أنه متفوق حتى على العالم القديم.

هذا الرأى مع ذلك أقل وضوحًا من رأى هال وبيرك، وعند استخدام مصطلح عصر "**النهضة**" أو الإحياء؛ فإن علماء هذا العصر ومفكريه من أمثال بترارك وفاسارى Vasari كانوا يشيرون أساسًا إلى فكرة الإحياء الثقافي. ولم ينتشر هذا التعريف الضيق لدى أسلافهم أو من جاءوا بعدهم. وكما يرى بانوفسكي؛ فإن الاتساع التدريجى للعالم الإنسانى من مجال الأدب إلى التصوير، ومن التصوير إلى الفنون الأخرى، ومن الفنون الأخرى إلى العلوم الطبيعية -أحدثت تحولا مهمًا فى التفسير الأصلى (1960:18 انظر

أيضًا ,Gouwens1998). علاوة على ذلك؛ حين أطلق ميشيليه ([1847] 1967) على كتابه السابع عن *تاريخ فرنسا* "**عصر النهضة**" حتى صُوِّرَ هذا العصر على أنه عصر تاريخ الحضارة الأوروبية، وهى فترة ذات روح متميزة، تقابل بشدة العصور الوسطى (Ferguson 1948 : 177). وعند وصف هذا العصر بأنه عصر "**اكتشاف العالم**" واكتشاف الإنسان، توقع ميتشل صدق ربط بوركهارت Burkhardt الشهير لعصر النهضة بتطور الفرد وميلاد العصر الحديث (Ferguson 1948, Burke1990)، ومن ثم نظر بوركهارت بدوره إلى علماء العلوم الإنسانية على أنهم وسطاء بين عصرهم والعصر السابق لهم (130: (1860) 1990)، والذين حاولوا إلقاء الضوء على رؤى الإغريق القدماء فى الحياة مرة أخرى فى عصرهم ثم تجاوز هذه الأفكار(٣).

ورأى جليمور (1960) – من بين علماء آخرين– أن كتاب بوركهارت عن حضارة عصر النهضة فى إيطاليا هو أهم عمل بحثى ساهم فى هيمنة وإيجاد التصور الحديث لعصر النهضة. والفهم السائد للمفاهيم الرئيسية "**النهضة**" وكذلك "**المذهب الإنساني**" وكذلك مفاهيم عن "**تنمية الفرد**" و"**اكتشاف العالم والإنسان**" زودتنا بها دراسة بوركهارت الرائعة، وهناك شعور شديد بأن "عصر النهضة كان شيئًا أوجده بوركهارت (Nauert Jr1995، Ferguson1948: 212).

ويؤيد هذا الرأى حقيقة أن جميع التواريخ اللاحقة تقريبًا على الفتر التى تشير إلى هذا العمل على أنه النقطة المحورية المرجعية سواءً من منطلق الاتفاق معه أو الاختلاف (انظر على سبيل المثال: Kristeller 1974، و Ferguson 1948، Burke 1964، و Symonds 1897). ومن التأريخ الأكثر حداثة حول عصر النهضة مُؤَلَّفُ جون هال John Hale (1994) "حضارة

أوروبا فى **عصر النهضة**"؛ حيث كان الاعتراف بأهمية دراسة بوركهارت عند تعديل عنوان مؤلفه وتنظيم فصوله حول أوروبا؛ عصر النهضة والحضارة، وهو يحتوى على موضوعات متكاملة مع دراسة بوركهارت السابقة.

كانت قضية بوركهارت الأساسية لعصر النهضة الإيطالية يُنظر إليها كونها نقطة التحول الرئيسية فى تاريخ الحضارة الأوروبية، ونقطة تحول داخلية المنشأ، والتى يُعتقد أن لها أهمية على المستوى العالمى (120 :(1860) 1990). واعتقد بوركهارت أن الظروف السياسية التى كانت تمر بها إيطاليا بعد الصراع بين الباباوات وبين الهوهنستوفن فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر أتاحت ظهور – **"للمرة الأولى- الروح السياسية الحديثة لأوروبا**، والتى تميزت بنمو سمة الفردية(100 :20 (1860) 1990). وتعد هذه الروح مسئولة عن الفكر السياسى الأكثر رقيًا والأكثر تنوعًا للتطور البشري، وأكدت حداثة الولايات الإيطالية (65 : (1860) 1990). ومن ثم فى ضوء عصر النهضة لم يكن إحياء التراث وحده ذا الأهمية لـ بوركهارت؛ بل أيضًا المرحلة العالية من النزعة الفردية التى أُشير إليها بواسطة النزعة الكونية للوضع السياسى الإيطالى وأهمية هذا للحضارة الأوروبية (والعالمية) ككل (120 : (1860) 100,1990)، واقترح روسين أن فكرة استمرارية العقل الأوروبى (المتعلق) بالوحدة الثقافية للحضارة الغربية من الماضى العريق حتى عصرنا، وكان الموضوع السائد فى عمل بوركهارت (Rusen 1985 : 239). وعن طريق دمج الاستمرارية الثقافية فى عصر الثورة مع الوحدة التاريخية للحضارة الغربية يقترح روسين: أن بوركهارت استطاع إنشاء الهوية التاريخية السائدة **"للإنسان الحديث"** (Rusen 1985 : 239-40). فيما بعد وصف العلماء عصر النهضة، استنادًا إلى تحليل بوركهارت على أنه قطيعة كاملة مع

العصور الوسطى، ورحبوا به باعتباره **"فجر العالم الحـــديث"** (Ralph 1973 : 5). وتعريف جون هال للنهضة على أنها التعافى مـــن **"أصـــوات الماضـــى الكلاسيكى بعد شتاء طويل من العصور الوسطى اختتم بــــ فقـــدان رومـــا للهمجية"**(1994: 189)، والطريقة الكذابة؛ إن لم تكن مضللة للغايـــة وصـــف الموضوعات السائدة لعصر النهضة بأنها حديثة وعلى أنها أوروبية وهو مـــا سنتناوله فى الفصل اللاحق.

(٢)

استند وصف عصر النهضة إلى أنه **"ميلاد العصر الحديث"** إلى ادعائه بأنه إعادة اكتشاف للنصوص القديمة، والتى يعتقد أنها فُقدت أثناء العـــصور الوسطى، وهناك بحث متزامن فى المعرفة الجديدة. ويشير بانوفسكى إلى أنه فى حين أن العصور الوسطى تركت آثار العصور القديمة لم تُـــدفن بعـــد؛ فإن عصر النهضة اكتفى بالنحيب وحاول إحياء روحه (1960:113). ونظر علماء الإنسانيات فى القرن السادس عشر ثانية إلى العصور القديمة على أنها منبع جميع أنواع المعرفة الهادفة، واستندوا إلى مـــواردهم الـــضئيلة لـــدعم الدراسة وتقييم هذا التراث. وقد طوروا بعملهم هذا أنماطًا جديـــدة للتفكيـــر وفروعًا جديدة للدراسة، والتى كانت موجهة لإثـــراء الحيـــاة فـــى الوقـــت الحاضر. وكما رأى كريستيلر Kristller؛ فإن المذهب الإنسانى فى عـــصر النهضة كان علميًا، وأدبيًا، وتعليميًا استند إلى دراســـة العـــصور القديمـــة الكلاسيكية"، والتى فى ذلك الوقت أنشأت العلوم الإنسانية بوصـــفها مجـــالا عريضًا للعلم العلمانى والفكر العلمانى مستقلة عن (وليس مضادًا لـــــ) كل من علم اللاهوت والعلوم الطبيعية (22 : 1962).[٤] وظهور الفهـــم النظـــرى

المفاهيمى للعالم بواسطة هذه التحولات مع التركيز المتزايد على تحليل النصوص والنقد، ذُكر فى الغالب على أنه مظهر للعقلية الفريدة لعلماء عصر النهضة (انظر Gouwens 1998). وتحدث بوركهارت - على سبيل المثال- عن "**عبقرية الشعب الإيطالي**" وبَجَّل مساهمات رجال، من أمثال: بترارك، وبوكاتشيو اللذين يُعتقد أنهما طبقة جديدة من الرجال فى عالم يحافظ على قضية جديدة أى المذهب الإنسانى (138 ,120 :[1860] 1990). ومع التطورات اللاحقة فى العلوم والجغرافية كان يُنظر إلى هذه التطورات على أنها مسئولة عن التحول من احترام العالم القديم إلى الشعور بالتفوق عليه(انظر: Butzer 1992 and Headley 2000). وكما ذكر باجدين Pagden "**فإن كلا من النزعة الكوبارنيقية واكتشاف أمريكا... ألقت بظلالها لمدة طويلة على سلطة العالم القديم بأكمله**" (92 :1993) وساهمت بجزء كبير فى إدراك التغير الحقبى الحاسم.

نرى أنه بمعالجة النصوص القديمة - بدايةً- فإنه إذا كان العلماء الإنسانيون فى العصور الوسطى قد عملوا على تراكم المعرفة فقط؛ فإن علماء العلوم الإنسانية فى عصر النهضة يُقال: إنهم ميزوا بين هذه المعارف. وحسب رأى جرافتون Grafton؛ فإن إحياء التراث الكلاسيكى "**لم يكن - فقط- حول اكتشاف ما قد فُقد فحسب؛ لكن محو ما هو زائف منه**" (162 :1991). "**وبهذه القدرة على اكتشاف ما هو فاسد وزائف "يُقال: إن العلماء الإنسانيين "أوجدوا الفن النقدى بدون سابقة أدبية**" (Grafton 1991: 162). وظهور الوعى التاريخى هو عامل آخر استخدمه العلماء، من أمثال: جليمور (1952)، وبانوفسكى (1960,1991) للإقرار بميلاد الحداثة فى زمن عصر النهضة.(٥) وفيما يتعلق بجليمور؛ فإن القدرة على وضع الذات فى الزمن فى

عصر معين ككل والوعى بالبعد التاريخى ينبثق عن تطور إحساس بمنظور يقع فى نطاق الفكر الإنسانى (201 :1952). كما عزى بانوفسكى تطور الفكر التاريخى المجرد إلى حقيقة أنه كان يُنظر إلى الماضى الكلاسيكى للمرة الأولى على أنه كليةً منقطع عن الحاضر؛ ولذلك فهو فكرة مثالية مطولة (113 :1960). وتتوازى القدرة على رؤية الماضى من بعد محدد والإحساس بالموقع الزمنى مع نمو المنظور فى التصوير وعكس التأثيرات البصرية التى حصل عليها فنانو عصر النهضة (Eisenstein: 1969 36،37). بهذا المعنى؛ من المعتقد أن تطور وجهة نظر فردية ووحيدة فى الفن انتقلت إلى العلوم التاريخية وإلى التطورات فى مجال رسم الخرائط.

عودةً إلى فن عصر النهضة نرى أنه عُرف بأنه الأشكال السوقية الغوطية والبيزنطية للماضى القريب ومحاولات استعادة وبناء على مجد تراث العالم القديم. ومن المعتقد بصفة عامة: أن محاولات تحقيق تلائم بين الفن والواقع، وإعادة تقييم العلاقة بين الاثنين أثناء هذا العصر- أنتج أساسًا دائمًا لتغيير مظهر الفن والعمارة الأوروبية، واستمر حتى عصرنا الحالى (انظر: Panofsky 1991، Muir 1979، Vermeul 1964) وقدرة فنانى عصر النهضة، من أمثال: ميكل أنجلو Michelangelo، ورافايل Raphael على ترشيد الصورة الذهنية الخاصة بالفضاء، والتى توحدت فى عصر سابق، ودمج الجمال والتوافق بالكمال أُعتبر أنه كرفض السلطات القديمة وكدلالة أخرى لظهور العصر الحديث بوصفه متميزًا ومتفوقًا على العالم القديم (Gombrich 1995 [1950]، Panofsky 1991: 63, 72)، ويصدق ذلك بوجه خاص بناءً على تطبيق وجهة النظر فى رسم الخرائط المعاصرة، وآثاره على **"رحلات استكشافية"** لاحقة (Headley 2000). والإنجازات فى هذا

المجال، لاسيما الفنانين الإيطاليين (والذين كانوا فى الغالب أيضًا رسامى خرائط). وأيدت الفكرة واسعة الانتشار على نحو متزايد فى الدخول إلى عصر جديد من الإنجازات فى "**الإحساس بالتطور المنسجم... أدى إلى كلمة "حديثة" وهى فكرة تستخدم على نطاق متزايد**" (Hale 1994: 587).

اعتبرت التحولات الراديكالية للأفكار العلمية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر فى أوروبا إشارة إلى انقطاع جوهرى عن الأنماط السابقة من الفكر وسائر الجماعات الثقافية الأخرى (انظر: Ben-David 1965، Boas 1962).[٦] وقد نظرت كتابات صمويل بورشاس Samuel Purchas فى أوائل القرن السابع عشر –مثلا– إلى أوروبا المعاصرة على أنها الملجأ الوحيد "**للفنون والاختراعات**" وقال: إن مواد الطباعة والبارود الصينى مقارنة معنا ولنا: إن باقى أنحاء العالم قد اقترض لهم منا أو ليس كذلك على الإطلاق (نُقل عن Hay 1957: 121). وقرون العصور الوسطى المفترض –بالمثل– أنها ساهمت فى التطورات اللاحقة فى مجال العلوم والتكنولوجيا، "**والثورة العلمية بصفة عامة بُنيت كحدث فردى بدون إسهامات أو تأثيرات خارجية**". والتغيرات التى تعتبر أنها حدثت، أو هكذا كما جادل بترفيلد Buterfield عن طريق تحولات كانت تحدث داخل عقول العلماء أنفسهم (1957: 1). وردد ذلك علماء من أمثال الإسكندر كويرى Alexandree Koyre الذى اعتقد أنه أثناء فترة عصر النهضة الإنسانية أو على الأقل الأوروبية، شهدت العقول ثورة عميقة غيرت إطار وأنماط تفكيرنا (1958: V). كما اقترح كوك Cook: أنه فيما يتعلق كويرى "**فإن العلوم ظهرت من النظرة الرياضية (الهندسية) للطبيعة**" وليس من أى مصدر آخر؛ ولكن هذا التحول كان فكريًا خالصًا "(Cook 1993 : 46).

لقد بدأت صياغة جديدة داخل الفكر الأوروبى فى طريقة العالم نفسه، نتجت عن التقدم فى مجال العلوم مضافًا إليه التوسع فى المعرفة العالمية. وفى سياق العديد من "**الرحلات الاستكشافية**" التى ارتبطت بهذا العصر، يرى هيدلى Headley: أنها أفادت فى ترسيخ السمة العالمية لعلم الجغرافيا بوصفه فرعًا علميًا جديدًا يمكن استغلاله للأغراض الدينية والسياسية والاقتصادية والعسكرية على الصعيد العالمى (انظر أيضًا Parry1963 ، 1130 :2000). ومن الرؤية القديمة للعالم التى اعتمدت على المعرفة التراكمية لهذا العالم القديم، وعن الكتاب المقدس وآباء الكنيسة؛ فإنه على الأوروبيين الآن إعادة صياغة هذا العالم ليشتمل قارة جديدة لم يُذكر عنها شيء من قبل. هذا يستدعى إلى الذاكرة سلطة القدماء، وأثناء القيام بذلك بدأ البحث المعرفي- بلغ ذروته عند ديكارت Descartes – فى وضع أساس جديد يمكن أن يستمد منه السلطة. وكما اقترح باجدن Pagden (1993)؛ فإن إعادة بناء مفاهيمنا الجغرافية مع الممارسات الفكرية المعتادة التى لم تُحسم حتى الآن أضافت إلى الفهم العام لذلك العصر، وساهمت فى جزء ليس قليلا فى فهم كونها "**حديثة**" و"**متفوقة**".

وكما ناقشنا أعلاه، استندت مزاعم "**الحداثة**" لعصر النهضة إلى النصوص القديمة، وظهور المذهب الإنساني، وتطور الوعى التاريخي، والحركات الإبداعية فى الفنون والعلوم مع اكتشاف العالم الجديد. فضلا عن أن هذه الحركات والأحداث بجانب فهم أنها حديثة، ساهمت أيضًا فى تكوين هوية أوروبية متميزة. فعلى سبيل المثال؛ فإن ظهور شبكة من الفنانين عبر أوروبا، استعاروا من بعضهم بعضًا، وألفوا التطورات الحادثة فى المدارس

والمناطق يعد أمرًا حاسمًا فى تطور عصر النهضة، وكذلك فى الفهم اللاحق لأوروبا المبنى على هوية ثقافية مشتركة(انظـــر [1950] Gombrich 1995، Hale 1994)، وتجميع أوروبا معًا كوحدة سَهّلَ لها أيـــضًا ارتبـــاط العلـــوم الطبيعية بالفلسفة، وعند هيدلى (2000) ارتبطت المسيحية بقوة دافع المعرفة الجغرافية ذات الصبغة العالميـــة (انظـــر أيـــضًا Butzer 1992). وتركـــز الإدراكات الثقافية المشتركة والمتفوقة خلال ترسيخ فهـــم محـــدد جغرافيًـــا لأوروبا على إحساسها بالاختلاف عمن يواجهونهم فـــى الخـــارج (أو تعـــد مختلفة) نتيجة للديانة المسيحية، مثلا: الاختلاف بين اليهود والمسلمين داخل أوروبا، وكذلك فى مجال تنظيم وإدارة أراضيها داخليًا.

وكثيرًا ما يُفهم تنظيم الأراضى للمنطقة الجغرافية المعروفة بأوروبـــا على أنه ديناميكية داخلية أوجدت الإحساس بالوحدة داخلها، وميزتهـــا عـــن المناطق الأخرى. ويرى مايكل مان Michael Mann مثلا: أنه علـــى مـــدار الألفية الثانية انصهرت أراضى الإمبراطورية الغربية مع أراضى الـــشعوب الألمانية فى وحدة اجتماعية جغرافية دعت إليها أوروبا التى احتـــوت علـــى مجموعة وحيدة من الديناميات المترابطة داخليًا (1986: 373). هذه الديناميات حسب تفسير مان: كانت جميعها عمليات داخلية المنشأ تسيطر عليها الدولـــة المسيحية، وتطور الدولة الحديثة الأولى، والقـــوة الاقتـــصادية والـــشبكات التجارية. وفى حين أنه لم يكن لهـــا رأس أو مركـــز؛ فـــإن لهـــذا الكيـــان هناك "عدة شبكات تفاعل صغيرة متقاطعة" أكبرها كانت الدولـــة المـــسيحية (Mann 1986: 376 ، 377). ويُعتقد أن ذلك زود دعامة الإحساس بالوحـــدة الأوروبية حتى انهيار روما عقب انفصال البروتستانتينية واندلاع الحـــروب الدينية فى القرن السابع عشر.

أدت اتفاقية السلام فى وستيفاليا سنة ١٦٤٨، إلى بدء نظام دولة تعددى تميز بالمركزية المباشرة وشخصنة السلطة السياسية، بمعنى: أن الدول الآن أصبحت تعمل على نحو مستقل عن السلطة البابوية ودور الكنيسة بوصفه وسيطًا للشئون الدولية تقلص إلى حد كبير(Pagden2002)[٧]. هذا الانفصال بين الدين والدولة، وكذلك ظهور نظريات السيادة اعتبرت أوروبية بشكل فريد، وأنها تشكل جانبًا أساسيًا للهوية الأوروبية. ويرى هاي Hay، مثلا: أن هذه التطورات أحدثت وحدة عملية على المشهد السياسى الأوروبى والتى تضافرت مع النزعة المثالية السياسية فى ذلك الوقت "**ساهمت فى زيادة الوعى الذاتى الأوروبي**" (118 :1957). واقترح باجدن Pagden – كذلك- أن هذا أكثر من أى حدث آخر، "**ميز الدول الأوروبية عن غير الأوروبية، كالإمبراطورية العثمانية أو إمبراطوريات منج**" (9 :2002). وزودت منارة للوحدة، مع ظهور الرأسمالية وتطور الدول الوطنية (Starth 2000: 392). هذه التطورات الحديثة داخلية (ستناقش بشكل أكثر تفصيلا فى الفصلين التاليين) يُفهم أن لها مسارات جديدة؛ ليست لأوروبا فقط؛ بل للعالم أيضًا (Mann1986: 412-446)).

وبعد دراسة تأريخ عصر النهضة وتناول الجوانب المختلفة التى تجسد المزاعم بأنها كانت إيذانًا بمولد أوروبا الحديثة، وسنعود إلى الدراسة النقدية لهذه التفسيرات السائدة.

(٣)

وعند بوركهارت وعديد من المؤرخين اللاحقين – كما ناقشنا أعلاه- "**أهمية عصر النهضة ترجع إلى أنه كان بداية العالم الحديث... التقسيم**

الكبير" (Burke 1964: 133). وكان مبشرًا ليس فقط ببداية العصر الحديث لهؤلاء المؤرخين؛ بل ببداية النموذج الثلاثى للعصور - أى العصور القديمة، والوسطى، والحديثة - ومشكلة التحول بين المراحل. وحيث إن فكرة التكرار والدورية استندت إلى أفكار الاستمرارية والتغير، وتحديد حقب تاريخية يعتمد على كل من الاتفاق بشأن الاستمرارية طويلة الأمد فى تلك الحقبة ولحظات محددة للتحول بينهم؛ حيث تتحلل الاستمراريات القديمة وتصاغ استمراريات جديدة (Green 1995: 101). ويمكن النظر إلى هذه المصطلحات النظرية بوصفها تعمل كأدوات تنقية تحافظ على تماسك الخطة على حساب تنوع الخبرات البشرية، والتنوع عادة يعرض مشكلة تنظيمية لكتابة تاريخ العالم، وحتى العلماء - كما رأينا فى الفصول السابقة- يعترفون بالاختلاف ويستمرون فى اعتباره مشكلة يجب تحديد مكانها فى خطة توحيد القوانين واللوائح السائدة المستمدة من الخبرة الغربية. والمجتمعات الماضية، وغيرها توجد طبقًا لكيفية ومدى اختلافها عن الغرب الحديث. وتعد خطة التصنيف الدورى - شأنها شأن خطط التصنيف الأخرى- منهجًا مفيدًا للتعامل مع موقف معقد، وهو ما سنناقش صعوباته فى ختام هذا الفصل[٨].

وبدراسة عصر النهضة - إذًا- نرى أنه فى القرن العشرين كان هناك فوضى متنامية فى تفسيرها على أنها كانت إيذانا بتطور تاريخى نوعي. والرأى القائل: إنه "**عصر رائع فريد من الحضارة ونقطة انطلاق للعصر الحديث**" هذه الفكرة كانت محل تساؤل عن نحو متزايد (Ralph 19973: 6) والتناقض السابق بين العصور الوسطى المظلمة وعصر النهضة التنويرى تبدد مع تأكيد العلماء على الوجود المستمر لسمات العصور الوسطى داخل حضارة عصر النهضة ذاتها(Kristeller 1974)[٩]. ودرس كريستيلر المذهب

الإنسانى فى عصر النهضة وكذلك الثقافة - على سبيل المثال- مع إعـــادة دراسة مكان تراث العصور الوسطى داخل ما يفهم عادة بأنه حركات فكرية "جديدة" (انظر أيضًا Trinkaus 1970 ، Nauert Jr : 1995). علاوة علـــى ذلك؛ هناك مجموعة كبيرة من الدراسات قررت أن الخـــلاف حـــول تفـــرد عصر النهضة فى ضوء مراحلها الأولـــى داخـــل أوروبـــا مـــثلا العـــصر الكارولنجى أو عصر النهضة فى القرن الثانى عشر (انظر: Stanford 1951, Haskind 1957, Brook 1969, Trompf 1973, Sullivan 1989).

وهناك آراء أخرى سائدة عن عصر النهضة تعد فريدة، وتـــستند إلـــى "اكتشاف" نـــصوص القـــدماء. وتتـــساءل إليزابيـــث آيزنـــشتاين Elisabeth Eisenstein: لماذا يجب أن يثق العلماء الإنسانيون "باكتشاف" الأعمال القديمة التى كانت معروفة من قبل بعضهم بأنها لعلماء العصور الوسطى منذ أن عُثِرَ عليها فى صورة نسخ للعصور الوسطى (1969: 46)؟ ويمكن القول أيضًا إنها كانت معروفة للعلماء فى العالم اليونانى والعالم الإسلامي، على نحو متـــزامن وكذلك فى العصور الوسطى. وترى آيزنشتاين -"إذن - أن **العثور على نص**" وجعله "متوفرًا بصفة عامة" هما شيئان مختلفان، وهذا الاختلاف يعزى إلـــى اختراع الطباعة، وهو بالفعل ما يميز عصر النهضة فى القرن السادس عـــشر عن عصر الإحياء الكاروليني، أو عصر النهضة فى القرن الثانى عشر.

نظرًا لأن عصر الإحياء الكلاسيكى كان لا يزال مـــستمرًا عنـــدما كانت هناك قوى محافظة لا تزال تقوم بدورها، يمكن للمرء أن يتوقـــع أن هـــذا الإحياء قد سبب مشاكل معينة؛ وحيث إنه بدأ فى ظل ظروف معينـــة واســـتمر تحت ظروف مختلفة تمامًا،.ربما بدأ بما يشبه عمليات الإحياء الـــسابقة، واتخـــذ مسارًا مختلفًا (Eisenstein 1969: 27).

وقبل ظهور الطباعة يرى آيزنشتاين (1969) أنه لـم يكـن هنـاك أى تسجيل منهجى للمعرفة مما يضمن أنها نُقلت (بدقة عن ذى قبل) من جيـل إلى الجيل الذى يليه. وكانت الكتب المنسوخة قليلة جدًا لدرجة أنها فى حالـة إتلافها أو فقدها سيكون هناك خطورة تتعلق بفقد المعرفة التى حُصِل عليهـا للأبد. وهكذا؛ فإن الهدف الرئيسى للعلماء كان ضمان الإبقاء على النصوص القيمة من خلال النسخ المضني. وكان توفر النساخ القـادرين علـى إنتـاج نصوص محدودًا. وكان تطور الطباعة معناه أن النصوص يمكن استنساخها على نحو أكثر كفاءة والتوسع فى مجموعات الكتب المتوفرة. وسبب هذا أن عدد المخطوطات المتوفرة كان يقتصر دائمًا على القدرات البشرية وأهـواء رعاة النسخ. ومع حلول الطباعة أمكن إنتاج المزيد من النصوص المهملـة، "وتزويد القراء بإمكانية الوصول إلى المزيد من الأعمال ليست بالـضرورة الأعمال الجديدة" (Eisenstein 1968: 114).

والوعى – سابقًا– بأن النصوص القديمة أصبحت تالفة، وأن بعـضها فُقد– يُكثف مشاعر القلق بأن النصوص القديمة اُسـتردت بواسـطة علمـاء الإنسانيات لم تفقد مـرة أخـرى... رغـم أن معظمهـا أُتلـف أو ضـاع (Eisenstein 1969: 44). ويعنى ذلك أن النصوص التى كانت متوفرة فى أواخر عصر النهضة قد طورها الثراء (Grafton 1991: 176) الذى كان موجـودًا؛ حيث إن "**الطباعة قضت على تلف النصوص ومكنت الطباع مـن الإنتـاج المتراكم بمعدل سريع**" (Eisenstein 1969: 44). لقد كان هذا التحول أساسًـا فى كم ونوعية النصوص المتوفرة للعلماء– الذى اقترح جرافتون أنه شـكل الدراسة العلمية "الجديدة" التى تعزى إلى عصر النهضة. ومـع "**المتعلمـين المتحررين**" من نسخ النصوص القديمة فى محاولاتهم لاستعادة أجزاء هـذه

المخطوطات والحفاظ عليها، تحول التعاون إلى البناء على أعمال من سبقوهم. وهذا يمكن أن يتجاوز عمليات التصوير والاستظهار إلى التحليل، والمناقشة، ودراسة ما يمكن أن نتعلمه من النصوص المعالجة. ويرى جونز Johns (1998) أنه من الضرورى فهم هذه الأعمال، التى سهل منها ظهور الطباعة من أجل التقييم الكامل لأهمية الكتاب المطبوع والنتائج التحولية المرتبطة به. واقترح أن "**الثبات**" الذى يُنسب إلى الطباعة من قبل بعض المؤلفين، مثل: آيزنشتاين لم يكن خاصية أصيلة فى الطباعة؛ ولكن كان جزءًا من ثقافة الطباعة التى ظهرت من خلال ممارسات متباينة ومظاهر مختلفة، وصراعات بين المؤلفين، وأصحاب المطابع وكذلك القراء من الجمهور.

الزعم بأن ذلك أسس فهمًا نقديًا -لم يسبق له مثيل، ولا يأخذ فى الاعتبار إذًا حقيقة أن النقد للنصوص، والإحالة المزدوجة بين الكتب وبعضها بعضا لم يصبح ممكنًا على نطاق واسع؛ إلا أن العلماء أصبحوا على استعداد للوصول إلى مجموعة متنوعة من الكتب، وأصبح لديهم الثقة فى سلامة النصوص التى يرجعون إليها.(١٠) ومثله، فإن الرأى بأن ذلك طور وعيًا تاريخيًا فريدًا، تقترح آيزنشتاين أن ذلك لم يحدث حتى ظهرت وسائل لمحاولة إصلاح المعرفة والمعرفة على نحو متيقن لطريقة تأليف هذه النصوص. "**ويجب ترتيب السجلات دائمًا فى تسلسل متماثل قبل دراسة أى جزء من الماضى كلاسيكى أو غيره عبر فترات تاريخية محددة**". أو من مسافة محددة (Eisenstein 1969:35 ، 36) والنصوص التى حُدِّد موقعها فى تسلسل زمنى الآن كان يجدها العلماء القدامى فى حالة فوضى. ولذلك ليس من المستغرب أن بعد تزايد إنتاج الكتب؛ فإن المذهب الإنسانى خلال السنوات اللاحقة من عصر النهضة بدت أفضل قدرة على "**مسح وتقييم**

مجمل الفنون والعلوم الطبيعية بصفة عامة من منظور تاريخي أكبر" (Kelley 1988: 261). وفي حين أنه يُعتقد أن الكتابة التاريخية ذاتها خلال هذه الفترة "**أصبحت أكثر تحليلية وسياسية ونفسية، وأكثر تعقيدًا مما كانت عليه سجلات العصور الوسطي**" (Burke 1964: 50)، فهذا يشير إلى نوعية التفكير وليس الظروف. ومع ثقافة النسخ عندما كان الاهتمام الرئيسي ينصب على الحفاظ على المعرفة، وتوجه التركيز أكثر على تسجيل الأحداث؛ فإن الطباعة جعلت هذا الاهتمام أقل إلحاحًا وكان من الممكن بدء دراسة ما يمكن فعله في ظل المعلومات المتاحة.

إن إدخال تكنيكات الطباعة جعلت المناقشات حول المسافة أسهل، كأرقام الصفحات والرسوم التي يمكن أن تُقتبس من نسخ متطابقة، واستطاع العلماء التوافق مع بعضهم بعضا على وجه الدقة لدرجة أنهم كانوا يفكرون في القضايا نفسها (Hale 1971: 189). وقد قام هذا "**بتحويل العمل الفكرى ككل إلى عمل تعاونى بدلا من النشاط البشرى المنعزل... و(وسع) مقدار الجهد الفكرى المطبق على حل المشكلات الفردية**" (and Grafton 1994 Rice [1970]: 8) إن استخدام اللغة اللاتينية كلغة للتبادل الفكرى أوجد مجتمعًا من العلماء -على حد تعبير جاردين Jardine- كان متلائما إلى حد كبير مع العالم المسيحي، وساعد في إيجاد "**آباء روحيين**" للتقارب الفكرى ورابطة من الاهتمامات الإنسانية المشتركة (1996a: 18). حتى لو كان العلماء الأفراد بعيدين جغرافيًا عن بعض؛ فإن الاستخدام المتزايد للورق سهل الاتصال المكتوب، وكان ذلك؛ مكملا لإنشاء تصور أنهم متحدون ثقافيًا في بحثهم المشترك عن المعرفة. مع ذلك فإن أى "**مجموعة من الخطابات**" كانت أكثر كثافة وتهجينًا مما كانت عليه كونها ظاهرة أوروبية مفردة. وانتقال الثقافة

وتبادل الأفكار أسفر عن تطور المذهب الإنساني في عصر النهضة " **كانت جزءًا من عملية مستمرة للإثراء عبر الثقافي... بناءً على تراث مشترك ومجموعة اهتمامات أكاديمية مشتركة بدلا من حركة الطموحات الواعية والأهداف الفكرية"** (Jardine 1996b: 59) هذا "الإثراء عبر الثقافي" الناتج عن تواريخ لاحقة من عصر النهضة يخبرنا بالمزيد حول تلك التواريخ أكثر مما يخبرنا عن عصر النهضة.

والعلماء، في خلال بحثهم عن جذور البناء الناتج لمسارات التراث، وضعوا تعريفًا ذاتيًا أوروبيًا في ضوء المصادر التي اعترفوا بها وتلك التي لم يعترفوا بها، وفي حين أن معظم المؤرخين لهذه الفترة يضعون عصر النهضة على أنه يتعلق أساسًا بالعصور الكلاسيكية ومصادرها ومُثلها (Kelley 1991)، ويفشل هذا البناء الذي يستعيد الأحداث الماضية في الاعتراف بالإعجاب الذي يشعر به الرجال والنساء بعصر النهضة في مصر- والشرق بصفة عامة - على أنها أسبق ثقافيًا من عصر اليونانيين وبذلك تكون الأقرب إلى الحقيقة حسب تعبيرهم (Bernal 1987: 157). وعند البحث عن مصادر الحكمة والفنون نظر علماء عصر النهضة إلى **"ما وراء المسيحية أي إلى روما الوثنية وخلف روما إلى اليونان القديمة وخلف اليونان القديمة كانت هناك مصر"** (Bernal 1987: 153).

وأشار علماء، مثل: كرامر Kraemer (1984)، ومقدسي Makdisi (1989) كذلك إلى نفوذ ومساهمة العلماء المسلمين، سواء في ظهور العلوم الإنسانية وفهم النزعة الإنسانية على وجه الخصوص، وكما يرى سابرا Sabra - على سبيل المثال- أن العلماء المسلمين في العصور الوسطى اشتركوا في أعمال القدامى - وكتب أن **"أرسطو كان دائمًا المرجع الأول**

والأخير بالنسبة للفلاسفة الإســـلاميين" (138 :1984). وكـــانوا مـــدفوعين باهتمامات نظرية مشابهة لما كانت فى أواخر عصر النهضة، وما كان لدى المفكرين الإنسانيين. وعلق علماء آخرون مثلهم على كل مـــن المـــساهمات الفكرية للعالم الإسلامى فى التعليم داخل أوروبا وعلى نطاق أوسع دورهـــم فى الحفاظ على كتابات الحضارات القديمة: الإغريقية، والرومانية، والشرقية (Kraemer 1984, Bernal 1987 , Makdisi 1989, El Bushra 1992). ولقـــد لاحظ جول Joll – على سبيل المثال– **"أنه من خلال مثقفى العالم العربـــي؛ فإن كثير من التعليم فى العصور الكلاسيكية الأوروبية قد عاود طريقه مرة أخرى إلى تيار النمو الثقافى الأوروبي"** (8 :1980).

يبدو أن إغفال التأثيرات الأوروبية والتفاعلات التاريخية مـــن جميـــع تواريخ عصر النهضة، يبدو أنه يشير إلى أن بعد تراجع الثقافـــة اليونانيـــة الكلاسيكية ثم الثقافة الرومانية؛ فإن تراث الأقدمين ظل محظـــورًا ببـــساطة ينتظر استرداد علماء عصر النهضة (Harding 1998: 28، وانظـــر أيـــضًا Keita 1994). وفكرة أن هذه النصوص ربما تداولت فى الثقافات الإسلامية وغيرها لا يعتقد أنه من الأهمية، وأن المساهمات التى قام بها هؤلاء العلماء قد أهملت وتركت إعادة بناء التراث الخطى المعزول تاريخيًا والمتعلق بالمعرفة والتعلم. علاوة على ذلك؛ فإن فكرة أن هذه النصوص **"وجدت طريقها ثانية"** يدل على الزعم الأوروبى بأن التراث لا يمكن فهمه بهذه الطريقة؛ فالإغريق القدماء لم يكونوا **"أوروبيين"** وكذلك فإن العلم الإغريقى قد تـــأثر بالثقافـــات الشرقية؛ لذا فإنهم استعاروا بدورهم من الإغريق مـــشاركاتهم فـــى تطـــور المعرفة (انظر Gershevitch 1964, Fakhry 1965, Hourani 1976).

كانت الفروق الأساسية الثقافية التى لا يمكن اختزالها بين "**العصور الوسطي**" و"**العصر الحديث**" أو بين "الحضارة الأوروبية" والحضارات الأخرى موضع نقاش طويل فى هذا الفصل. وتساءل آيزنشتاين عن الفهم الشائع عن عصر النهضة على أنه عصر "فريد"؛ مما يشير إلى أنه كان أقل خبرة بتأثير القوى المحافظة الجديدة فى الطباعة على نحو غير مسبوق (1969: 27, 45). وهكذا يمكن القول: إنه لم تكن هناك فروق كيفية بين عصر النهضة وعصر الإحياء الكارولينى الأسبق أو عصر النهضة فى القرن الثانى عشر، وكذلك لم يكن هناك فروق كيفية بين عصر النهضة ومحاولات تجديد دراسة كلاسيكيات الكونفوشيوسية التى نمت فى منطقة يانجستى بالصين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر (Grafton 1991: 44-45). إنما كان يوجد عملية طارئة تاريخيًا أحدثت ناتجًا كان مختلفًا كميًا وكان له آثار نوعية أيضًا إلى أقصى حد. مع ذلك؛ فقد كانت المشكلة هى أن الآثار الكيفية تعتبر فى معزل ومستخلصة من روابط داخلية أوسع، وتعتبر كعملية تحدث بسبب التطورات الداخلية فى عقول الأوروبيين أنفسهم. وعلى النقيض، يمكن القول: إن المذهب الإنسانى والتحول الثقافى الذى كان معروفًا بأنه عصر النهضة عادة لا يكون معنى ما لم ندرس مضمونه، وتأثيره الأساسى للخصائص المحفوظة للطباعة. والذى يرجع فى جزء منه إلى ظهور هذا الاختراع نفسه فى الصين الذى نقل إلى أوروبا فى العصور الوسطى بواسطة العرب (Gilmore 195: 187). والتحول المقابل من ثقافة النسخ إلى ثقافة الطبوغرافيا التى سهلت الإحياء المستديم وأنتجت إلى أقصى حد تغيرات جوهرية فى النماذج الفكرية السائدة ذات الاستمرارية والتغير.

وإذا انتقلنا لدارسة الفنون، نرى أن السفر كان يعتبر جانبًا مكملا مساهمًا في تميز عصر النهضة، كما أنه قام بتحسين الأساليب الفنية وتقنياتها. ومع ذلك؛ كان الفنانون يسافرون داخل - ما يطلق عليه الآن أوروبا- وعند مناقشة أين كانت تحدث هذه التغيرات ذكر هال Hall - على سبيل المثال- إنها كانت تحدث في إيطاليا، وفرنسا وألمانيا، وهولندا، وإنجلترا وإسبانيا وبولندا وكذلك روسيا (263 :1971). ومع ذلك تبدأ الدراسات الحديثة بمناقشة هذا التاريخ الانعزالي، "ومحررو المجموعات الحديثة للطبعات يؤكدون أنه بين أعوام ١٤٠٠، ١٧٠٠ كان هناك ما يزيد عن ٢٥٠ وصفًا لمصر من قبل الرحالة الغربيين يشير إلى أن السفريات إلى مصر كانت على الأقل شائعة مثل السفريات إلى اليونان (Bernal 1987: 157). وليس هناك دراسات حديثة، كالتي قام بها فروتنجهام Frothingham (1895) والذي أشار أيضًا إلى انتشار حركة الأساليب الفنية والفنانين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين المدن الإيطالية، ومصر، والمراكز الإسلامية في أوروبا - على سبيل المثال- إسبانيا، وأبعد من ذلك وكذلك الحضارة البيزنطية. والأعمال الفنية في عصر النهضة التي تلقى الإعجاب كثيرًا حاليًا، وكانت في عصرها ذات قيمة مماثلة داخل ما يطلق عليه جاردين Jardine (1996) السوق العالمي المتطور المبني على التبادل متعدد الأطراف والانتشار؛ حيث كان يُتَاجَر في الأعمال الفنية كسلعة وتبادلها وكإلهام؛(١١) وهو ما يخالف الفكرة الشائعة أن ظهور وتطور فن عصر النهضة كان أساسًا ظاهرة أوروبية داخلية المنشأ دون تأثير أو استلهام من أماكن أخرى.

وقد استمر العلماء والفنانون والتجار في التعاون والتبادل للسلع والأفكار وكذلك المنتجات، حتى في حالة حدوث تصادم بين الإمبراطوريات البيزنطية والرومانية. وتحليل التعاملات المستندة إلى الأعمال الفنية بواسطة

جاردين وبروتون Brotton "**أسفر عن وجود مساهمة براجماتية بين الشرق والغرب فيه اعترف الطرفان اعترافًا تامًا بمشاركة الطرف الآخر**" (61 :2000). أدى ذلك بالمؤلفين إلى القول: إنه كان ينبغى النظر إلى التبادل عبر الثقافى على أنه القاعدة وليس الاستثناء –علاوة على ذلك؛ اقترحوا أن الفهم السائد لتكوين الهوية الثقافية كظاهرة داخلية خالصة يجب إهماله؛ فعلى الأغلب "إنها تكونت من المواجهات المباشرة بين المنتجات اليدوية المتبادلة بين المجتمعات الدولية كمواقع جغرافية متميزة (233 :2000). وعن طريقة تحليل طريقة تداول السلع الفاخرة وغيرها من السلع خلال فترة الانفصال الثقافى عن أنشطة أوروبا؛ فإن أماكن، مثل: إسطنبول، وفارس، والصين، واليابان، والهند كانت مرتبطة بالفعل بطريقة معقدة من خلال المصالح السياسية والتجارية المشتركة (انظر أيضًا Boker 1984, Scammell 2000). مع هذه الاحتمالات ومضامينها حسب رأى جاردين وبروتون، "**يأتى الاعتراف الحتمى أن التواريخ الثقافية متميزة تمامًا، ومنفصلة، وتصلح لإعادة كتابتها على أنها تفاهمات مشتركة بين الشرق والغرب**" (8 :2000).

ومع السلع بأنواعها والأفكار والمفاهيم العقلية التى تدفقت عبر الحدود السياسية – حتى لو وجدت لها تعبيرًا محليًا– فإنها تمكننا من إدراك أنها تتعامل معه ليس منفصلا وقابل للمقارنة؛ لكنها تواريخ مترابطة (Subrahanyam 748 :1997). وإدخال تجارة الأسلحة النارية وغيرها من السلع بين اليابان والبرتغال فى القرن السادس عشر مثلا صاحبه مناقشات حول خلود الروح (ومحاولة التحول للمسيحية) بين اليسوعيين البرتغال، مثل: فرانسيس كزافييه Francis Xavier، والزعماء الدينيين المحليين، مثل: زين بونز Zen Bonze، ونيشتسيو Ninshitsu (انظر: Laures 1952, Pacheco 1974,Boxer 1984).

علاوة على ذلك؛ يجادل بيرلين Perline: إن فى القرون الوسطى وجد تبادل قوى – بين الهنود والمسلمين الأوروبيين– للأفكار الخاصة بعلم الفلك وعلوم الكون، وتكررت بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر عندما صاحب تجارة المخطوطات تجارة المواد الكيميائية والتنجيمية والفلكية فى أوروبا (198 :1994).

يذكرنا ذلك بتقسيم العالم إلى شرق وغرب الذى نقرأ عنه خلال التاريخ وسبب إشكاليات الثنائيات الثقافية المرتبطة ببعض التحليلات فى العصر ما بعد الاستعمارى لخطاب المستشرقين (Brotton and Jardine 2000: 61) وهى المشكلة التى ظهرت عبر هذا الكتاب.

كان تطور "**العلوم الغربية**" عاملا رئيسيًا آخر فى نشر "التقسيم" بين العصور الوسطى والعصر الحديث. وعند التركيز على إحدى الشخصيات التى تذكر عادة فى الثورة العلمية نرى أنه – حسب رأى مارى بولس Marie Boas– أن كوبرنيكس Copernicus لم يكن فى الواقع رائدًا، وأنه حاول فى شيء لم يحاوله أحد من قبله؛ لأن العديد من علماء الفلك استخدموا الرأى القديم لدحض آراء بطليموس (69 :1962). ولقد ذكر كوبرنيكس نفسه أنه لم يكن مهتمًا بإحداث ثورة فى علم التنجيم ولا فى إيجاد "**سماء جديدة وأرض جديدة**". بالنسبة له كان الأفضل تفسير طبيعة الظواهر القديمة على نحو أدق (Boas 1962: 89). ومن ثم فإن إنجازاته كانت مبنية على نحو أقل على الملاحظات الجديدة وأكثر على القدرة على مراجعة للنصوص بطريقة منظمة والعمل مع مجموعات المعرفة غير المتناسبة. وشمل ذلك نصوصًا من مصادر "**غير أوروبية**" مثل أعمال العلماء المسلمين ناصر الدين أتاسي، وابن الشطير، والذين ذُكِرَتْ أسماؤهم مؤخرًا فى دراسات علم الفلك

الرياضي لـــ كوبرنيكس (Bernal 1987: 156). والفـشل فـي الاعتـراف بمساهمات الثقافات "غير الأوروبية" همـش إنجـازات تقاليـدهم العلميـة والتكنولوجية واستدامة أسطورة أن العلوم الأوروبية والتكنولوجية تقع كاملا داخل أوروبا(Harding 1998: 31, 36).

علاوة على ذلك؛ مقابل فهم الثورة العلمية في ضوء وجود تحول فـي الفكر الصرْف، ربما كان من الأفضل التفكير في ذلك في ضوء التحول فـي عدد وجود النصوص المتوفرة للتشاور. وبسبب التطورات التـي تـتم فـي الطباعة - كما ناقشنا سابقًا- توصل كوبرنيكس إلى المزيد من النـصوص حول الموضوع ذاته أكثر من سابقيه، ولم يعد العلماء في حاجة إلى الـسفر للبحث عن فتات المعرفة الموجودة في مكتبات متفرقة، وفي الأديرة، وسائر الكتب والمخطوطات؛ لكن المتوقع أن يكون لديهم مجموعات خاصة بهم، أو على الأقل فرصة الوصول إلى المجموعات، وتجميع النصوص المتفرقـة، والتفسيرات، والتعليقات، سمحت بتحديد أوجه التناقضات والتشابه على نحو أسرع ثم العمل على دراستها بطريقة منظمة. وحسب رأى آيزنشتاين؛ لعـل أهم إسهام قام بها كوبرنيكس ليس معالجة نظرية "الحق" كمـا فـي إنتـاج نظرية جديدة بديلة وبذلك مواجهة الجيل التالي بمشكلة يجب حلها ولا يعلـم تعلم الحل (Eisenstein 1983: 228). وبالتركيز على القـدرات والمواهـب الأوروبية في ضوء تفسير تطور المعرفة العلمية عبر العصور؛ ليس أفضل وسيلة لفهم ما يحدث حتى لو كان البحث عن تفسير لهذه الظاهرة في قدرات سلالات معينة ليس مشكلة في ذاته؛ فإن هذه المواهب يمكن تحديـدها بنـاءً على نتائج العمليات مقابل طبيعة العمليات ذاتها.

وبعد دراسة التواريخ البديلة العديدة والتحديات النظرية للافتراضات الرئيسية اعتبر أنه قد جعل النهضة الأوروبية فريدة داخل تاريخ العالم، وأعود الآن لدراسة أفكار أوروبا ذاتها. ولقد اعترف مايكل مان Mickel Mann: إن الصعوبة الأساسية فى توضيح تواريخ معينة هى أن الدول والثقافات نادرًا ما كانت مستقلة ذاتيًا؛ الإسلام – مثلا– كان على اتصال بالعديد من الثقافات الأخرى وأثر وتأثر بهم بدوره. وثمة عقبة أخرى فى طريق القول: إن التغير الاجتماعى كان منظمًا، ويقترح هل مصادر التغيير "**مختلطة**" جغرافيًا واجتماعيًا – إنها لم تنبثق من داخل المساحة الاجتماعية والمادية لمجتمع معين. بعد أن قال مان هذه الآراء، أشار إلى أن الديناميـة الأوروبية كانت منظمة وهى تصف أوروبا ككل، وأدمج تنوعاته فى حضارة واحدة (504 :1986). رغم إمكان وجود فروق بين شمال أوروبا وغربها، ومنطقة حوض البحر المتوسط، ويتابع: "**إن الروح نفسها سادت القارة**" (1986: 504). ومدى كون هذا الفهم المنتشر لظهور "**أوروبا السياسية**" هو تفسير ملائم للعصر وهو ما سنناقشه الآن.

تعتبر اللاتينية كمستودع وأداة للثقافة السائدة، جبهة لغوية واضحة ميزت بين الدولة المسيحية اللاتينية وجيرانها من السلفيين، والسلاف، واليونان، والمسلمين، وحسب رأى مور؛ فإنها أوجدت فرقًا بين الصفوة والجماهير (1997: 596).

ويمكن القول: إن التوترات التى أسفرت عن نفسها عبر مساحات واسعة من القارة لها علاقة محدودة بالمشاعر الوطنية والمشاعر العرقية وعلاقة أكبر بإيجاد ونشر ثقافة راقية بواسطة النخبة الذين تجاهلوا القيم المحلية والتضامن فى العملية (Moore 1997: 597). كذلك؛ فإن وجود اللاتينية كلغة

شائعة عبر أوروبا لم تستبعد التبادل الثقافى مع الدول غير المتحدثة باللاتينية، وأكثر أن قدرة الحاكم المغولى جلال الدين محمد أكبر فى الحوار مع أنطونيو مونسيرات الجزويتى Jesuit Antonio Monserrate البرتغالى فى منتصف القرن السادس عشر (عام ٩٨٩ هجريًا) حول الأمور المتعلقة بالألفية القادمة "تشير إلى نفاذية ما يفترض غالبا أنه "**مناطق ثقافية مطلقة**"، ووجود المفردات التى تتقاطع مع التراث الدينى المحلي" (1997: 746-748).

وفضلا عن ذلك؛ فبينما نُظِرَ إلى العالم المسيحى ومن ثم المسيحية كونها جانبًا رئيسيًا للوحدة الثقافية لكثير من أوروبا عبر القرون؛ فإن ذلك حدث فى سياق الوجود التاريخى غير المعترف به إلى حد كبير للعدد الكبير من الأوروبيين غير المسيحيين (Salgado Rodrigez 2005). ومع العدد الكبير من السكان اليهود؛ فإنه من الضرورى الأخذ فى الحسبان تاريخ إسبانيا، التى كانت مسلمة لعدة قرون. وكذلك المسلمون الأوروبيون فى البلقان، وجنوب شرق أوروبا، وربما تركيا شأنها شأن روسيا- والوحدة الجغرافية الكبيرة الأخرى، التى تتحمل الاستدماج والاستبعاد المستمر مع أوروبا، وكانت تركيا جزءًا من النظام السياسى لأوروبا تاريخيًا. حتى ولو لم يعترف بها على أنها أوروبية ثقافيًا (Yapp 1992). شكل ذلك أيضًا جانبًا مستمرًا للمناقشات الأوروبية (والإسلامية) حول طبيعة حدود أوروبا. وبقدر اعتبار تركيا - كما كان الحال مع الإمبراطورية العثمانية من قبل- تشكل مرآة تعكس فهم عودة أوروبا لذاتها (Yapp 1992) كذلك الغرب وغيرهم استخدموا كلمة أوروبا لأغراض مشابهة (Azmeh-Al 1992 ، وانظر أيضًا: Raychaudhuri 2002 [1988]).

وَفُهِمَ الإسلام على أنه يمثل "الآخر" لأوروبا وذلك فى سياق تاريخ التوسع الإسلامى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر والذى امتد من إسبانيا والبلقان فى الغرب إلى الهند وإندونيسيا فى الشرق وعبر كثيرًا من إفريقيا إلى الجنوب (Lewis 1990). لذا يرى ياب Yapp (1992) أنه عندما انحسرت المخاوف المسيحية تحديدًا بدأت الدلائل العلمانية للهوية الأوروبية تحديدًا فى الظهور. ويعد مان: أن طرد الفايكنج، والمسلمين، والهنود قطاع الطرق من القارة جانب أساسى فى بناء أوروبا (377 :1986). لكن كيف يمكن للمرء أن يكون على يقين ممن كانوا قطاع الطرق ومن كانوا هناك بفضل الغزو "المشروع"؟ وقد ذكر بارتليت Bartlett[١٢] فى كتابه **"تكوين أوروبا"**؛ ولكن كيف كان النشاط التوسعى منتشر فى العصور الوسطى، وكان يُنظر إلى الغزو والاستيطان كفترات تكوينية، غالبًا ما يضفى عليها الصبغة الأسطورية بوصفها أوقات تأسيس فى تاريخ المجتمع (92 :1993). هل يمكن تعريف قطاع الطرق فى ضوء من لم ينجح فى الغزو؟ لقد كتب جيلنر **"أود أن أتصور ما كان يمكن أن يحدث لو انتصر العرب فى معركة بويتيرز وواصلوا الفتح وجعلوا أوروبا متأسلمة. لا شك أننا لابد وأن نشعر بالإعجاب بكتاب فيبر "أخلاق الخارجين" وروح الرأسمالية"** (نقل عن Mann 1986: 503).

فهمت خاصية مميزة أخرى لأوروبا على أنها حركتها نحو الاندفاع السياسى والإدارى للوحدات المنقسمة المحلية فى السابق داخل مركب ثقافى أوسع والمعروف باسم أوروبا. مع ذلك يرى مور: أن الأحداث والتطورات التى يُعتقد عادة أنها أسهمت فى تكوين أوروبا كحضارة مستقلة كان لها سياق أوراسى أساسى (599 :1997 انظر أيضًا Braudel 1997). وعند مناقشة ظهور المراكز الحضرية فى شمال غرب أوروبا - على سبيل المثال-

يرى مور: أن ذلك "**كان جانب التعافى أو الانتعاش العام بعد التـــدهور فـــى العصور القديمة**" والذى أسرع به التوسع المتزامن، والتقاء العالمين الصينى والإسلامى (1997:599). والتغيرات التى يظهر أنها حـــدثت فـــى القـــرنين السادس عشر، والسابع عشر داخل أوروبا لم تكن تغيرات حدثت مرة واحدة ولم تقتصر على أوروبا. "**تداول الأساطير القوية والمفـــاهيم الأيديولوجيـــة المرتبطة بتكوين الدولة التى وجدت فى أوراسيا الحديثة فى بدايتها والتـــى تجاوزت الحدود عُرفت لنا بأنها الدولـــة القوميـــة**"(Subrahanyam 1997: 759). هذا طرح سؤال لـــــمور عما إذا كان الواجب بـــدلا مـــن مناقـــشة التطورات الحادثة داخل غرب أوروبا على أنها شأن محلى أو إقليمي، وعلينا اعتبارها جوانب داخل إعادة تشكيل الحضارة فى نطاق أوراسيا بعد انهيـــار إمبراطوريتها القديمة (600 :1997). ويرى مور: أن التغيرات طويلة الأجـــل التى تؤكد على روايات مثل تلك التى ناقشها مايكـــل مـــان Mann Michael - أعلاه- يجب اعتبارها تكثيفات متكررة وليست تغيرات حدثت مرة واحدة ارتبطت بالفئات التى فيها مالت النظرية الاجتماعية الكلاسيكية إلى مناقـــشة التاريخ المقارن (600 :1997). وعند مناقشة "**تكوين الدولـــة**" فـــى القـــرنين الحادى عشر والثانى عشر ثم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر يكتب مور أن الاختلافات التى تعزى عادة إلى تلك الأحداث هى "**اختلافـــات فـــى الدرجة وليست نوعية**" (600 :1997).

(٤)

ويمكننا أن ننظر إلى أن الخطاب السائد الذى يضع فترة عصر النهضة على أنها ميلاد أوروبا الحديثة والعصر الحديث- رُفض على نحو متزايـــد بواسطة علماء العصور الوسطى، وكذلك مؤرخى أوائل العـــصر الحـــديث،

والمهتمين بثورة الطباعة، ومؤرخى الفن العالمي، ونقاد التــاريخ المقــارن، وغيرهم. ولقد بدا واضحًا أن التفاهمات السائدة لعصر النهضة التــى بنــى عليها غالبية أصحاب النظريات الاجتماعية فهمهم للعالم، هى فــى أفــضل الحالات غير ملائمة، وأمثلة جزئية للفترة التاريخية محل النقــاش. لــذا لا نقترح أن هناك فهمًا كاملا ودقيقًا؛ لكن بالأحرى هناك تفسيرات مقبولة أكثر لما حدث. وقبول أن هناك تفسيرات جماعية للأحداث لا يتضمن بالضرورة أن جميع التفسيرات متساوية، كما قيل سابقًا فى المقدمة وفــى أوائــل هــذا الفصل؛ لكن من الضرورى دراسة المعقولية المعاصرة للروايات التاريخيــة داخل المجتمعات المشتركة معهم. والرجوع للقراءات الأقدم لا "**يزيــف**" مــا كان يُعتقد فى السابق، أو استبداله وصف "**أكثر صدقًا**" به؛ لكنه يعمل على كشف السياسة التى بواسطتها أصبحت تهيمن على فهمنا فى الوقت الحاضر. هــذا إذن يتيح لنا أن ندرك كيف ولماذا كانت جوانب معينة من التــاريخ باديــة أو مخبأة. وكما ذكرنا آنفًا: لا يشير ذلك إلى أن هناك تاريخًا "**كاملا**" يمكــن أن يكون معروفًا بل هو فى سبيله أن يكون معروفًا، أى أن المنهج الانعكاسى للتاريخ يزودنا بفرص أكبر لتمييز التفاهمات المعاصــرة الملائمــة؛ حيــث – كما نوقش فى المقدمة– تتحدد الملاءمة فى ضوء الحاضر بدلا من محاولة إرساء قراءة أكثر دقة للماضي.

> *وعلينا أن نعترف بالأغراض والجــوهر والفئــات التــى نــستخدمها، وعلينا التقييم بأفضل مــا نــستطيع: كيــف تــتلاءم هــذه الأغــراض مــع أغراضنا(Carrier 1995: 26).*

وكما كتب سعيد فى *الاستشراق*؛ فإن نمو المعرفة ليس مجرد إضــافة أو تراكم؛ بل "**إنه عملية تراكم انتقائى وإحلال، وحذف، وإعــادة ترتيــب، وإصدار داخل ما نطلق عليه الإجمــاع البحثــي**" (176 :(1978)1995). وإذا

طبقنا نقد سعيد عن "الدراسات الشرقية" على البحث التاريخي بصفة عامة؛ فإن ذلك يزودنا بطريقة واحدة لإمكان إعادة دراسة التاريخ اليوم على وجه الخصوص؛ فإن نقد سعيد "**للدراسات الشرقية**" على أنها قامت بتكوين صورة ذهنية للشرق تستند إلى افتراض: أنها مختلفة تمامًا "**ونظام مغلق**" غير قابل للتغيير بصرف النظر عن النتائج الإمبريقية أو وقائع الشرق الحديث (177 :1978) ويمكن تطبيقها فى مجالات بحث أخرى. وعند دراسة عصر النهضة، ندرك كيف أن الفهم السائد الراسخ فى القرن التاسع عشر وضع المؤشرات الثقافية لما كان مفهومًا أنه حديث وأوروبي. وتحديد عصر النهضة كفترة مؤقتة ذات موقع محدد عقد أكثر الحدود الفكرية التى رسمناها على قراءة تاريخية معينة. وعزو جانب العصر "**الحديث**" لأوروبا بعينه - على سبيل المثال- جعل مهمة الدراسة اللاحقة هو برهنة اختلافها المطلق وتماسكها الداخلي. علاوة على ذلك؛ فإن وفقًا لسعيد تعيين شيء على أنه حديث يتضمن حكم تقييمى معلن حول الذات والآخر إلى من نتحدث (1978: 207).

والتصنيف بناءً على افتراض الإشارة الملموسة يجعل "**الآخر**" يبدو فى حاجة للتفسير ويصرف الانتباه بعيدًا عما هو مفهوم، وما هو موجود بالفعل. وحيث يوجد الاستشراق؛ فإن خطاب الغرب حول الشرق يكون حول فهم "الآخر"، وما يتجاهل فى هذه العملية هو الافتراضات حول الذات مقابل ما يتميز به الآخر؛ وذلك أنه يفشل فى دراسة افتراضات متعلقة بنزعة التغريب Occidentalism التى كانت موجودة أيضًا (انظر Venn 2000, Wang 1997). وفى ضوء عصر النهضة؛ فإن إقامة فهم ثقافى مشترك "**لأوروبا الحديثة**" يمكن أن نرى أنه صرف الاهتمام عن هذا المشروع، وكان التركيز بدلا من

ذلك على تشكيل أمثلة أو مظاهر على أساس الاختلاف. هذه الاختلافات لا تقع فحسب داخل إطار مشترك؛ بل إن الاختلافات النسبية ترمى إلى مكانة الكليات – كذلك– كما لاحظ كارير Carrier فى سياق الأنثروبولوجيا، رغم الأوصاف المتقابلة أو المتطابقة للغرب والمجتمعات الحديثة فى عصور وأماكن أخرى، المستخدمة فى داخل هذا الفرع من العلوم. والنصف الغربى من هذه العلاقة الجدلية يكون خفى (عادة) (4-3 :1995). وتغريب الأنثروبولوجيا وسائر العلوم الاجتماعية، يقبل نسخة أخرى من الغرب بوصفها مثالا صادقًا لمضمونه (Carrier 1995: 13). إنه من المقبول الذى يُرفض هنا عند إعادة دراسة عصر النهضة.

ولإعادة التأكيد على الرأى الأساسى فى هذا الفصل: وهو أن الطرق التى نفهم بها الماضى لها مضامين للنظريات الاجتماعية التى نطورها للتعامل مع المواقف التى نحياها حاليًا. وبواسطة توسيع سياق هذا الفهم التاريخي؛ فإننا نوسع ما هو متوفر لنا فى تطوير النماذج النظرية المعاصرة. إذن كانت النظرية يمكن التنبؤ بها حول تفرد أوروبا، والتى من ثم تستمد من فهم عصر النهضة على أنها داخلية المنشأ، وحدث تاريخى ذو أهمية معينة؛ إذن فالشك فى ذلك يطيح بمعظم النظرية. ومن هنا يمكننا أن نبدأ دراسة العالم مرة أخرى ونبدأ فى تخيل صور جديدة للمستقبل، وترى كيث جنكنز Keith Jenkins: أن فشل المنهج التاريخى لابد أنه معروف؛ لأنه يتيح للآخرين الظهور، وللتصورات الجديدة أن تظهر (5 :2003). وهذا غير مقبول – بالأحرى– من المؤكد أنه فقط من خلال الاعتراف "بالآخر" على أنه موجود دائمًا، وبالفعل فى التاريخ، لكنه كتب بعيدًا عنه، يمكننا أن نبدأ فى التحرك

نحو تطور المجتمعات البشرية التى تزود مساحة للتعبير الكامل عن الإبداع الإنساني؛ مع ذلك فإننا نختار أن نعرفه. وكما قال جــاردين وبروتــون: إن **"تواريخنا المشتركة تعنى أننا نسكن بيئة ثقافية غنية بإمكانــات للتعــاون والتنافس المثمر فى المــستقبل"** (185 :2000). وعنــد دراســة تفاهمــات الشرق/الغرب اليوم، من المهم أن نتذكر كليهما، وهذا لــيس المثــال الأول للمشاركة وأن الغرب لا يأتى لهذه المواجهة الثقافية كونه شريكًا بارز حتميًا (Jardine and Brotton 2000: 184). هذا التفسير الخاص ينشأ مــن لحظــة تاريخية محددة وهى التى ناقشناها فى هذا الفصل.

الفصل الخامس

أساطير الدولة – الأمة الحديثة – الثورة الفرنسية

لا تستثنى الحالة الأيقونية للثورة الفرنسية كونها واحدة من أعظم الأحداث المثيرة للجدل داخل التاريخ، وفى الواقع؛ فإن الوضع الأخير متطلب أساسى للأول(١). وتكون نقطة الاتفاق الظاهرى بين المنظرين والمؤرخين على دور الثورة الفرنسية فيما أطلق عليه فوريت Furet، "إبداع الشكل السياسى لمجتمع الحداثة" (18 :[1986] 1988)، و "الكيفية الإمبريقية التى شكل خلالها عالم الأفراد الأحرار المتساوين ظهورهم فى تاريخنا" (1990: 798-799)، يتمثل هذا الإبداع فى الدولة الحديثة – الأمة. ويشكل تأريخ الثورة الفرنسية المركز لتأسيس عام "١٧٨٩"، أو الفترة من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥ كتاريخ ميلاد فترة تاريخية جديدة وهى الحداثة. وكما يذهب فوريت ([1978] 1981)؛ فلم تُدرك الثورة كحدث داخل أحداث معقدة؛ لكن رؤيت مكونًا أساسيًا لمجيء عصر جديد، تأسس على فكرة المساواة والتعبير من خلال تأسيس المؤسسات السياسية الحديثة. ويلقى هذا ضوءًا على الإحساس بالحاضر كونه شيئًا فريدًا وغير مسبوق ونتيجة، وإشكالية لأسلوب تنظير للعلاقة بين الماضى والحاضر (Furet 1981 [1978], Crossley 1993, Foucault 2002 [1969], Baehr 2002).

ولقد كانت الفكرة عند العديد من المؤرخين تنحصر في أن تشكل الماضى عن طريق المؤسسات والقوى الاجتماعية السابق وجودها أفسح المجال بشكل متزايد لفكرة ظهور أحداث نتيجة للفعل البشري(٢). إن التغير العام فى أسلوب التمثيل – ومن ثم الشرعية- قاد الماضى إلى أفكار تبطل الوجود المتصل برواية عن القطيعة والحاجة إلى تفسير تلك القطيعة (انظر Ford 1963). وقد حاول جيزوت Guizot ([1846] 1997) – على سبيل المثال- تفسير الطبيعة التقدمية للمجتمع الأوروبى مقارنة بالأشكال الراكدة للحضارة التى اعتقد بوجودها فى مكان آخر وسابق على العلاقات المتبادلة للمؤسسات التى ترسخت أثناء الثورة الفرنسية. وقد وصفتها ميكيليت Michelet ([1847] 1967) أيضًا على أنه حدث استثنائى وانحراف راديكالى عن كل ما سبقه وأنذر بحدوث اضطراب. وتفترض فوريت Furet: أن بهذا الأسلوب ([1978] 1981)، كان إدراك الثورة أساس للمستقبل وحدث فريد. وقد قدمت محاولات لفهم هذه الفترة من عدم الاستقرار فى سياق انعكاسات تعميمية عن طبيعة الوعى التاريخي، وأصبحت الثورة عنصرًا تأسيسيًا للسرد التاريخى للعالم الذى يصور بدقة نشأة عالم الحداثة.

ويمكن القول: إنه بإنشاء تاريخ الثورة الفرنسية على أنها قصة لأصول العالم الحديث؛ قد أدى إلى أن يصبح هذا التاريخ أيضًا خطابًا للهوية الأوروبية بوصفها حديثة (انظر woolf 1992). وقد تطلبت إعادة التعريف للعلاقة بين السياسى والاجتماعى فى هذه المحاولة أن يرافقها إعادة تفكير فى أفكار السيادة والقومية التى رسخت الدولة كونها هدفًا للبحث الإمبريقى (Bartelson 1995: 221). وأحدثت المقاربة التحليلية بين الدول – الأمم امتدادًا مع إدراك انفصالهم الإقليمي، ودمجهم مع فئة من "الناس"، سواء

انتظموا حول لغة، أو ثقافة، أو عرق. إن رؤية وجود الدولة – الأمة تجسيدٌ للمشروع السياسى للحداثة، الذى أصبح برمته مشروعًا عالميًا؛ على أنه تفكير إما فى الحداثة أو الدولة – الأمة، وكما يذهب تشاكرابارتى Chakrabarty، "فقد كان البحث عن تاريخ يكون موضوعه النظرى هو أوروبا" (2000: 34).

ومن ثم يناقش هذا الفصل، تلك الجوانب للثورة الفرنسية التى أدت بالعلماء لرؤيتها – كما تكتب فونتانا Fontana– كـ"دراسة حالة فريدة فى تاريخ التقدم لمجتمع حديث" (1985: 12)، ومن المفترض أن لديها دلالة تاريخية عالمية. ويوجد حتى ذلك الحين جوانب مختلفة أمكن أن نأخذها فى الحسبان – أعني: نشأة الديمقراطية؛ وفكرة أن الجماهير masses استطاعت تغيير العالم، والانتصار المفترض للعلمانية، وتراث الاستبداد Tyranny– ويركز هذا الفصل أساسًا على الوسائط الحكومية التى عُدَّت فيما بعد تأسيسًا للدولة – الأمة الناشئة. و يحلل الفصل دلالة نشأة المؤسسات الجديدة وأنماط العلاقات الاجتماعية التى صاحبت الثورة الفرنسية (ومن خلال استجابات الدول للغزو النابليونى اللاحق). وسوف تناقش الأهمية المتزايدة لنظريات "**القومية**" لإثارة تساؤلات عن تشكل الدولة، وأيضا إخفاق هذه النظريات فى تقديم فهم ملائم لعلاقة الاستعمار بأمثاله. ويفند هذا الفصل – من ثم– التصورات المهيمنة للدولة التى تنسب أهمية خاصة فى نشأتها للثورة الفرنسية – أعني: تقديم اختلاف بين "**الأصل**" و "**التقليد**" – ومن ثم يختلف مع تصور التقدم الثقافى الذى يضع "**الآخرين**" داخل التاريخ؛ حيث الإطار النظرى الذى يُنَبَّأ به يكون فى الخبرة الأوروبية. إننا فى هذا الفصل بصدد توافق الأبعاد السياسية للحداثة مع فترة الثورة الفرنسية بصفة خاصة.

(١)

تتكامل الفكرة الحديثة للسيادة مع تشكل الدولة، وكما يناقش كرانستون Cranston؛ تُرَى كونها "واحدة من أعظم الابتكارات الرائعة، والباقية للثورة الفرنسية" (97 :1988). وقد تخلى هذا الجدل عن طبيعة وحدود القوة السياسية – من ناحية ثانية– على الأقل بقدر ما يكون الإصلاح البروتستانتى (انظر Elton 1963) وسلام ويستفاليا Westphalia التى تابعت حرب ثلاثين عامًا (انظر tes-chke 2003)[٣]. ولقد أثارت هذه الأحداث تساؤلات جوهرية حول تحدى الالتزام السياسى والإذعان، كما فعلت، حتى الآن الطبيعة الثيوقراطية الدينية للسلطة السياسية. إن التحرك نحو خلق تماهى بين الملك وفكرة شرعية الحكومة قد مكنت الدول المركزية فى نطاق القرن ١٧ من محاولة الانفصال عن الادعاءات البابوية بالسيادة، التى – عاجلا أو آجلا– أسست الفكرة للسيادة الإقليمية المرتبطة بالحق المطلق للملك[٤]. تحول هذا – فيما بعد– من خلال عمل روسو Rousseau 2004[1762] وآخرين، إلى سيادة مطلقة للناس وكانت رؤيتها أنها تمد بالإلهام لأحداث الثورة الفرنسية[٥].

إن تفسير روسو ([1762] 2004) للعقد الاجتماعى social contract وتأكيده أن أى حكومة لا تضمن الحقوق، والحرية، والمساواة لجميع الذين يعيشون داخل نطاق سلطتها يستحق الاستبدال بما عُدَّ تكاملا مع شكل وتطور الأحداث فى فرنسا أثناء الفترة الثورية. ويذهب كرانستون – مثلا– إلى القول: إنه حدث فى هذه الفترة أن "ادعى القادة الجمهوريون أن سيادة الأمة مُنِحَت للشعب؛ بينما هم – أى القادة– مارسوا الحكم فقط" (103 :1988). وبقدر ما كان هذا تقييما دقيقًا للموقف؛ فإنه لم يكن اهتمامًا

أوليًا هنا رغم أنه – أيضا- ملاحظة لكرانستون الذى يدعم وجهه نظر: أنه رغم "تنفيذ اليعقوبيين ذوى الوجه الجمهورى أفكار روسو عن الإرادة العامة والسيادة الشعبية،... [فإنهم] رفضوا الأبنية والإجراءات السياسية التى عدها روسو ضرورية لإدراكهم" (1988: 104). ولا يمكن تجاهل: أنه رغم الطابع المجرد لنظريات العقد الاجتماعى والسيادة الشعبية؛ فإنها – على الأقل- ألهمت الثورة الفرنسية، والحروب النابليونية التى تلتها، ونشرت الممارسات المرتبطة بهذه المفاهيم بطريقة أكثر اتساعًا خلال أوروبا، ومن ثم؛ العالم الأوسع(٦).

كما تراجع التماهى بين شخص الملك والدولة تدريجيًا فى مقابل الدولة التى حددت تبعا للشعب، الذى اعتبرناه الأمة، وتركزت مشكلة السياسات حول اكتشاف – كما يكتب بارتلسن Bartelson- "الاهتمام العام الحقيقى وسط الجماهير بالمصالح الخاصة" (1995: 211). وكان يوجد أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين، تفسيران متنافسان لطبيعة "الاهتمام العام الحقيقي"، بمفاهيم حرية الإرادة القومية المتنافسة، وتلك التى ترتبط بتضامن العمال والثورة سواء فى الممارسة أو فى النظرية(٧). وقد أسهم كل من تطور النظريات المتنافسة للقومية ونمو النظريات الاشتراكية فى خصوصية نشأة الدولة الحديثة. وتحول الاهتمام، إلى المجتمع فكانت تقود المسئولية لنشأة الفكرة الحديثة عن تدخل الدولة. لقد قوضت السيادة الشعبية الاختلاف بين الدولة والمجتمع المحلي؛ لكن دمج الاثنين أيضًا أكد الاختلافات بينهما وجعل المجتمع المحلي، أو المجتمع كما أصبح معروفًا بشكل أكثر عمومية، يحدد موقع المسئولية للدولة.

وفى الخلاصة: ارتكزت أهمية سيادة خطاب الحداثة فى ثلاثة نطاقات: **الأول**- يجسد التغير من "**الحق الإلهي**"(*) إلى "**الإرادة الجمعية**" التى أسست اكتشاف "**الاهتمام العام الحقيقي**" للشعب كونه مسألة مركزية داخل الفكر الاجتماعي. **الثاني**- تأسيس الشرعية لتدخل الدولة فى "**المجال العام**" وأن يكون عنصرًا أساسيًا لعمل الدولة الحديثة، **والثالث**- يضع الدولة كونها هدفًا للبحث الإمبريقى مع الداخل والخارج؛ حيث الخارج (على سبيل المثال، المستعمرات) والذى لا يُرى أن لديه علاقة بالداخل(٨). أما الجزء التالي؛ فسوف يناقش مسألة الحكم داخل فرنسا مع الانتقال للقرن ١٩ وبحث مضامين نشأة مؤسسات الدولة فى كل من فرنسا وفى بلدان أخرى. كما يقول أوجين ويبر Eugene weber:

> أدت الأمة السياسية للنظام البائد وظيفة جنبًا إلى جنب مع المجتمع المحلى والأبنية الاجتماعية التقليدية. وتنافست الأيديولوجية الثورية للأمة مع هذا. ولم يكن اختراعها هذه الأبنية؛ لكن تضمن اختراعها تفكيكها. (1976: 113).

(٢)

تثير رؤية السنوات السابقة على الثورة جدلا واسعًا ومناقشات للتساؤل حول تشكل الحكم الشرعى فى فرنسا، وهو جدل اشتمل أيضًا على مناقشة الحكم الملكي. وقد أدى الصعود السريع للبرجوازية (ربما التحديد بدقة أكثر كطبقة ذات ممتلكات) أثناء القرن ١٩ إلى نشأة جماعة قوية اجتماعيًا واقتصاديًا بدأت الاهتمام بأساليب ممارسة التأثير داخل المجال السياسى - الذى ما لبثت أن وجدته.

(*) يدل هذا على أن الملوك كانوا يستمدوا سلطتهم وشرعيتهم من الله وليس من الرعية (المترجمة).

لقد أدى الازدياد الدائم للإنفاق العسكرى إلى إجهاد نظام مالى غير فعال؛ إضافة إلى معارضة هؤلاء المسئولين عن الدولة ليباشروا أى مجهود جاد أو على الأقل دعم الإصلاحات البنائية، بما شكّل نوعا ما من الانهيار [للنظام البائد] وهو انهيار - كان- حتميا (Doyle 1980: 194).

فقد انهار النسق الاستبدادى أخيرًا - عقب نشر ميزانية الدولة - واتفقت القوى المعارضة - ما بعد انعقاد مجلس الطبقات(*)- على اقتراح زيادة طفيفة، وبعد شهور قليلة ظهرت مناقشات مضنية لأساليب إصلاح أنساق الموارد المالية، والإدارة، والعدالة وإلغاء الامتيازات المالية (1980: 195).

وقد ترتب على الثورة نتائج مباشرة لفرنسا متمثلة فى دستور، ومؤسسات ممثلة، ووثيقة لحقوق الإنسان والمواطن، وقرار الحادى عشر من أغسطس بإلغاء الإقطاع. وفى العامين التاليين "عملت البرجوازية المعتدلة المنتصرة - من خلال ما أصبح الآن مجلس النواب التأسيسى- وبدأت تحقق هدفها بالترشيد الضخم والإصلاح لفرنسا" (Hobsbawn 1977: 85). وكان اقتراح التغييرات، وتنفيذها، فى مجالات القانون المدني، والضرائب، وإعادة تنظيم القوانين الإقطاعية. وقد شكل التعليم والبحث مهام الدولة، وربما الأكثر أهمية؛ حيث أُوقِفَ الدور المسيطر للكنيسة فى هذه الأمور. وكانت علمنة التعليم وتقويض القوة المؤقتة للكنيسة أساسًا مهد لإصلاحات كنسية مختلفة (Woolf 1991: 239-43). وبدأ اعتبار وجود المؤسسات الأكاديمية لأغراض عامة وارتبط الإنجاز العلمى بالهيبة القومية. وفى عام ١٧٩٤،

(*) مجلس طبقات الأمة الثلاث؛ طبقة النبلاء، وطبقة الإكليروس، وطبقة الشعب فى فرنسا قبل الثورة (المترجمة).

ونتيجة لتفويض من قديس دومينجو موجهًا لمجلس النواب التأسيسى فى باريس، مدعومًا بالعصيان المسلح عبر الكاريبى الفرنسي، استحدثت مادة إلغاء العبودية فى الوثيقة الفرنسية للحقوق - وأسقطت فى عام ١٨٠٢ مع استعادة العبودية فى المستعمرات (انظر Dubois, 2004, Fischer 2004)

وقد تغيرت الحكومة راديكاليًا، وتمركزت خلال الإلغاء للامتيازات الإقليمية، والمحلية، والبلدية، وإلغاء فساد الوظائف أيضًا، وكانت النهاية للامتياز بالميلاد، وأصبح الامتياز - الآن- يُكافأ على المهارة والخصائص المميزة. كما يناقش فوريت Furet؛ نتيجة للثورة "حررت البرجوازية المجتمع المدنى نفسه من قيوده الإقطاعية، وحققت الحرية للأفراد وللسوق" ([29 :1986] 1988). ووقفت بهذا جانب القرويين الذين اكتسبوا - من خلال مقاومتهم، المزيد بالممارسة- فى سياق إلغاء الإقطاع، أكثر مما كان بواسطة أى من الإجراءات "الثورية" التى أسسها مجلس النواب. واستمرت حتمية إنجازات الثورة، ومما جعلها أكثر احتمالا أن تكون حدثت هكذا نشأة شخصية نابليون ونشوب "الحروب النابليونية".

كانت المبادئ التى صيغت فى عام ١٧٨٩ بلغة عالمية - فى ظل نابليون- قومية وجاءت لتخدم بصفة خاصة نظام الإمبراطورية الفرنسية. وكانت توجد داخل البلدان الخاضعة للسيطرة المباشرة لنابليون - على سبيل المثال إيطاليا- محاولات لإعادة بنائها على صورة فرنسا. وكانت الأنساق الإدارية، والمتطلبات العسكرية، والإجراءات الضريبية انسيابية، وأُنجزت مبادئ المركزية، وإصلاح الجماعات ذات الامتيازات، واتساق مجموعة القوانين المفروضة، وقوة الدولة الممتدة على حياة ومصادر مواطنيها (Broers 137 :1996). وقد أُعِيد تنظيم الدويلات الصغيرة، فى الأراضى الألمانية،

وتحويلها إلى اتحادية تتألف من دويلات أقل اندماجًا وحتى فى مناطق مقاومة الوجود الفعلى للجيش الفرنسى - على سبيل المثال إسبانيا- كان القبول لمثاليات الفترة الثورية والاندماج فى بنية حياة الدولة.

كانت رؤية الدولة النابليونية تمثل نظامًا ناجحًا، ومن ثم حُكِيَت (انظر Woolf 1992). ويذهب فورد (1963) إلى: أن كل حكومة أوروبية عظيمة، نشأت فى الفترة النابليونية الثورية مع التحول العميق لتنظيمها الإداري، وتغير تصورها للحرب (وما الذى احتاجته للتجهيز لها)؛ إضافة إلى الزيادة الراديكالية فى مستوى المشاركة الشعبية فى الشئون السياسية. وكما يكتب هوبسبوم:

> منذ كان ذلك واضحًا للخصوم الأذكياء لفرنسا فقد هُزِموا بتفوق النسق السياسى الجديد، أو على حال بفشلهم فى تبنى إصلاحات متكافئة، وأحدثت الحروب تغيرات ليس فقط من خلال الغزو الفرنسي؛ لكن بالتفاعل ضدها. (1977: 115)

تناول منظرون سابقون البناء المميز للدولة فى هذا الوقت، والتأسيس لمؤسسات خاصة مذكورة آنفا؛ ليشيروا للتحول للحداثة. وقد تشكل مفهوم قوة الدولة ليدرك كونه نتيجة للثورة الناجحة للجماهير؛ حيث كان فهمها أنها مسار حديث عارض التكيف للدولة الاستبدادية التقليدية. ومن أهم عناصرها الحديثة على وجه التخصيص "الولع بالتدخل فى عمل المجتمع الذى تحكمه... [بصفة خاصة] من خلال محاولات سيطرة الدولة على التعليم العام" (Broers 1989: 492). لقد أصبح التعليم ذا أهمية متزايدة، فى "بناء" الهوية القومية كما سوف نناقشها فيما يلي؛ لكن أيضًا لأنه يخدم الظروف الجديدة، والظروف التى "لم تكن محلية منذ عهد بعيد؛ لكن قومية، وحضرية،

وحديثة" (Weber 1976: 10). وكان التأسيس للدستور المدنى محاولة لتنظيم إدارة الدولة الجديدة التى "كانت رغم ذلك فاشستية، [ومازالت] تمثل دحضًا حاسمًا مع أى نظريات مترسبة عن الاستبدادية التعسفية" (Broers, 1989: 492). لقد اضطلعت الإصلاحات الإدارية بمهام جديدة أدت إلى تطوير للطبقة البيروقراطية الكبيرة والمعايير الحديثة للفعالية التى حددت، ويتوقع من الدولة الآن المحافظة على النظام المدنى وحماية الملكية الخاصة. إن أحد الملامح المميزة للدولة الحديثة إنها لم تكن فقط قادرة على احتكار الشرعية لاستخدام العنف داخل مقاطعة خاصة؛ لكن أصبح هذا واحدًا من وظائفها التأسيسية. وأخيرًا: واكب تطور مؤسسات الدولة الحديثة ظهور أنماط جديدة للعلاقات الاجتماعية التى أمكن تصور أنها تجعل المجتمع متصل بأساليب جديدة. ونشأت هذه المؤسسات، التى أمكن رؤيتها أولا فى فرنسا وتطورت فيما بعد عبر القارة فقط، وتناولها منظرون سابقون كونها دلالة على التحول للحداثة. وكان هذا أحد جوانب القومية ويتحول الفصل الآن لبحث هذه الظاهرة.

(٣)

شهد القرن ١٩ نشأة وتطور تصورين مختلفين للقومية. **الأول**- أن الأمة تتكون عبر الوعى والقبول الطوعى للتعريف الذاتى للسكان الذين رغبوا أن يعيشوا فى ظل نظام إدارى خاص، **الثاني**- خطوة راعى القطيع، الذى اعتبر الأمة كائنًا حيًا استند على "الروح" غير الواعية للناس. وقد تطور كلا التصورين بعيدًا عن مواصفات الثورة الفرنسية أو التفاعل مع آثارها النابليونية. ورغم ذلك يوجد منظرون يضعون نشأة أصول الأمم

فى ماضى أكثر بعدًا (انظر – على سبيل المثـال– Smith 1986)، وقـد اتفقت الأغلبية من العلماء مع تعبير كار carr: أن الأيديولوجيـة الـسياسية للقومية بدأت تتخذ شكلا حينما عبر روسو عن، "رفض تضمين الأمـة فـى السيادة الشخصية أو الطبقة الحاكمة، وتحدث بوضوح عن "**الأمة**" و "**الشعب**" (Carr 1945: 7) . ويذهب كرانستون إلى أن قبل روسـو كـان عـزو الوضع الأنطولوجى للأمة، مستقل عن وضع المملكة، وكانت السيادة لمـن "شكّل" فرنسا، الذى وحد الشعب المنقسم بولاءات متصارعة (1988: 101). وأدت الأيديولوجية الناشئة للقومية – من ثم– هذا الدور الزائد لسيادة الأمـة التى تدرك على أنها تتشكل عبر الإرادة العامة، وهى قد تتجاوز حدود الدولة التى كانت موجودة فى الماضى .

بالنسبة لروسو ([1762] 2004) – فقد سبقت الأمة الدولة– لكن ما إن تشكلت، كانت رؤية الدولة أن لديها الإمكانية لتقويـة المـشاعر القوميـة. ولتحقيق هذا الهدف؛ فإن التعليم والثقافة لهما أهمية حيوية، خاصة فى المناطق الريفية، ولقد كان النظام النابليونى هو النظام الأول الذى اسـتخدم المـوارد للتصرف فيها "**لتشكيل**" الشعب. وكانت رؤية الدولة للوحدة، والتجانس، كونه شيئًا ما فى الكفاح من أجلها، وكان تصور اللغة بوصفها عاملا مهمـا فـى إنجازهـا. وكمـا يفتـرض أوجـين ويبـر Eugene weber (1976) فى كتابه – من الفلاحين إلى الرجال الفرنسيين– إذا لم يستطع النـاس فهـم أعمال الجمهورية فلن يستطيعوا المشاركة داخلها، وهكذا فى حين أن التنوع اللغوى السابق لم يكن نقطة خلاف؛ فقد أدرك الآن كتهديد للوحدة الـسياسية والأيديولوجية للجمهورية. ولتحقيق هـذا الهـدف؛ "عمـل الميثـاق علـى إلغاء اللهجات المحلية، وإحلالها بلغة الجمهورية، "**لغـة وثيقـة الحقـوق**"

(Weber 1976: 72) ويمكن الاعتقاد أن بتعليم الشعب الفرنسية يمكن الإسهام فى "تحضرهم" والمساعدة "بتكاملهم فى عالم الحداثة المتفوق" (1976: 72-3): العالم الذى تمثل فى الميتروبوليتانيات الحضرية فى باريس.

قدم هيردير Herder اللغة أيضًا (1969) كونها من الظواهر الثقافية الأكثر أهمية فى المعنى الثانى للقومية؛ الذى أصبح مهيمنًا فى هذا الوقت. ولم تكن الاختلافات اللغوية، قد صُورت فى مصطلحات سياسية أو أيديولوجية؛ لكن بدلا من ذلك تُناولت بوصفها تشكل الأساس للتقدم العضوى للشعوب والأمم، وتكون رؤيتها مع كل أمة بوصفها تمثل الحقيقة من جانبها. وكما يفترض بارتلسن Bartelson؛ فإن تنوع اللغات فيما يتعلق بهيردير كان نتيجة طبيعية للتنوع البشرى" ويتوافق اللاتكافؤ للغات مع اللاتكافؤ المشابه للثقافات" (1995: 205-6). ولقد ذهب هيردير إلى: أن اللغة برهنت على عدم ملائمة رؤية الأمم "كاستفتاءات يومية"، وكمجالس نواب يستطيع الشخص الارتباط بها وتركها وفقًا لإرادته. ويذهب أنتونى سميث Anthony smith - بدلا من ذلك- إلى أن هيردير دافع عن فكرة الأمة كشمولية عضوية، وافترض أن الأساس الطبيعى والمميز للدولة الإقليمية تمثل فى روحها ومجتمعها الفريد (1996: 187). وكان التصور أن هذه الروح الفريدة لذلك الشعب جعلته يشعر أنه مجبر على حمايتها فى مواجهة محاولات نابليون لفرض نمط متماثل على أوروبا.

وقد ألهمت المقاومة الشعبية التى نشأت كرد فعل للغزو عن طريق جيوش نابليون عددًا من المفكرين ليبدأوا التفكير فى الدولة بمصطلحات قومية. وقد قويت لغة التماسك القديمة وَدُعِّمَتْ والمجتمع المحلي، والدين وحدث عقب هزيمة نابليون تأكيد على الولاء للملكيات والحكومات التقليدية. وشهدت

السنوات التالية لهزيمة نابليون تورط أوروبا بأكملها في صراع بين الأيديولوجيات الليبرالية، والقومية، والاشتراكية وممارسات قوى الرجعية. وفي حين ارتبطت الحركات الأولية الداعية نحو الاستقلال القومي ارتباطاً لا ينفصم بالأيديولوجيات ذات الطابع العالمي، والاشتراكية، وخلال ثورات عام ١٨٤٨ " كانت الحقيقة البديهية للوحدة في صدارة نضال الأمم من أجل الحرية ضد فئة الملوك" (Talmon 1967: 192-3) التي ضعفت الثقة بها أخيراً وكان إنجاز الوحدة السياسية من خلال صدى الوعي بالاهتمامات الاجتماعية. وقد أدى رد الفعل العام نحو نابليون في البلدان المحتلة - من ثم- إلى تحول النخبة العالمية في عصر التنوير إلى لغة أكثر شعبية للرومانتيكية السياسية[٩].

نحن نشاهد تلك المثاليات للثورة الفرنسية، بالنظر إلى إيطاليا على سبيل المثال - أعني تلك السيادة للدولة الكامنة في شعبها - وتشكل الوعد في عرف "الإخاء والمساعدة لكل الشعب الذي يرغب في إعادة الانتزاع لحريته"، الذي أيقظ الوطنيين الإيطاليين للعمل في سياق تأسيس الدولة - الأمة الخاصة بهم. وبدأ نشر تواريخ "**القومية**"، ونشرت الكتب وافتتاحية الصحف الصورة عن إيطاليا؛ ليصبح المتعلمون الإيطاليون مدركين بشكل متزايد لأنفسهم "كإيطاليين" (Woolf 1979: 330). وأصبح التساؤل حول الاستقلال القومي حاداً بصفة خاصة، حينما احتلت فرنسا إيطاليا فيما بين سنوات ١٧٩٦ و ١٨١٥. وقد أكد النزاع بين المبدأ السياسي الفرنسي والسياسة الخارجية الفرنسية الموقف المتناقض؛ فبينما شجعت فرنسا التصور للأمة المتحدة المستقلة، وكان وجودها في إيطاليا عقبة لإدراك هذا التصور (رغم أن نابليون أبدع مملكة لإيطاليا، تلك الكينونة التي لم تكن موجودة من قبل كونها وحدة سياسية).

وقد أعلن مازينى Mazzini أحد قادة حركة من أجل تقرير المـــصير القومى فى إيطاليا: أنه رغم أن الثورة الفرنسية قد حررت الشعب من هيمنة الملوك والكهنة؛ فإنها لم تقدم مبدأ جديدًا للتكامل. كان هذا - كمـــا ينـــاقش تالمون Talmon- بديلا "قدم فكرة الأمة، التى مثلتها إيطاليا" (117 :1967). ولم يرفض المفكرون الإيطاليون تمامًا الثقافة السياسية الفرنسية - آنـــذاك- برغم الكراهية المترسخة للاحتلال الفرنسي. وكما يذهب بروريس Broers، فحتى الراديكاليين، مثل: مازينى وجاربالـــدى "Mazzini and Garibaldi اعتبروا الجمهورية الموحدة، المتمركزة [التى احتذت بنموذج الدولة الفرنسية] كشكل وحيد للحكم استطاع تشكيل الدولـــة - الأمـــة" (492-1989). وقـــد تزايدت الإثارة التى حدثت فى منتصف القرن ١٩ من أجل تقرير المـــصير - ومن ثم- كانت رؤية القومية على أنها تعمل كقوة جاذبة إلى المركز فـــى الاندماج للحدود الإقليمية للدول الإيطالية والألمانية، وكقوة طاردة من المركـــز أدت إلى التفكك النهائى للإمبراطورية الأسترالية - المجرية (Droz 1967: 170). وقد تشكلت الدول اللاحقة - فى كل الحالات- عبر مخططات النموذج الذى استخدمته الثورة الفرنسية وامتداد تأثير الاحتلال الفرنسى الذى أمكن رؤيته فـــى "الدولة الإيطالية الموحدة التى نشأت فى عام ١٨٦١ والتى احتذت فعليا نمـــوذج مؤسساتها بتلك التى أنجزت فى فرنسا النابليونية (Broers 489 :1989).

لقد أصبحت الأمة أو الشعب أثناء القرن ١٩ طبقة اجتماعية تدل علـــى وفود الجماهير masses. وبصرف النظر عن "صدق" أى مـــن الـــرؤيتين للقومية؛ فإن كليهما كان ضروريًا لتأسيس الأمـــة كوحـــدة مكونـــة للحيـــاة الاجتماعية والسياسية. وكما يناقش هوبسبوم - فى هذا السياق- فقد أصبحت

القومية تجسد مبدأ مفاده أن الوحدة السياسية والإثنية ينبغى أن تكون متطابقة، ومن ثم تصبح الأمة مجموعة من المواطنين لديهم سيادة جمعية تجعلهم يؤلفون دولة؛ حيث تمثل الدولة تعبيرهم السياسى (18 :1994). وتستند أهميتها أيضا فى ما صاحبها من خطاب التحديث الذى وفقًا له – كما يناقش سميث Smith– "أسطورة الأمة الحديثة" التى تشير بالرجوع إلى عصر ما قبل الحداثة حيث ظهرت "اللا أمة" nationless، و[بالتالى تمثل]... جزءًا من الانقسام الراديكالى بين مجتمعات تقليدية، وزراعية، ومجتمعات حديثة، صناعية" (192 :1996). وقد شكلت نشأة الأمة – الدولة جانبًا مركزيًا لنظرية الحداثة على حد سواء، فى سياق تحديد وضعها الانتقالى الذى استقر فى نتوء للحركة من التقليدية للحداثة وبوصفه دالا على الشكل السياسى الحديث.

يُستخلص من هذا الجزء؛ أننا نرى أن السؤال عن الحكم الشرعي، الذى سيطر على النظرية السياسية فى القرن ١٨، يمكن إدراكه جزئيًا من خلال الحدث المذهل للثورة الفرنسية. لقد أدى التغير من استبداد ملكى إلى سيادة شعبية؛ إضافة إلى مبدأ تقرير المصير القومي، إلى تحول المشهد السياسى لأوروبا الغربية، وكان ذو نتائج للكثير من بقية العالم أيضًا. وكان إعلان ميلاد المجتمع المحلى السياسى الحديث فى شكل الأمة – الدولة، رائدًا للثورة، وكان تعزيزه من خلال شخص نابليون الذى ألف أوركسترا ناجحة أحد أعظم مشروعات التنظيم والعقلانية. وإضافة لذلك كان الانتقال لأيديولوجيا القومية، وتطوير نموذج الدولة الحديثة "كمنطقة متماسكة إقليميًا ومتواصلة مع الحدود المحددة بوضوح، وتلك الدولة التى تحكمها سلطة فعالة متميزة وفقًا لنظام جوهرى متميز للإدارة والقانون "كل ذلك يمكن عده التراث الأكثر أهمية للثورة الفرنسية (Hobsbawm 1977: 113).

ولم يُنفَّذ هذا النموذج فقط علـــى الـــنظم الحكوميـــة المختلفـــة أثنـــاء الحروب النابليونية؛ لكن تجاح تمركزه وتحديثه الإدارى أدى إلى محاكاتـــه وتكييفه فى معظم أوروبا، بما أدى إلى العقلانية الشاملة للخريطة الـــسياسية الأوروبية وجماعاتها السياسية. وقد تضمنت الثورة تحولا جوهريـــا للبنـــاء الاجتماعى والسياسى لفرنسا، وتضمنت الإمبراطورية التالية تـــأثيرًا علـــى البلدان التى شنت الحرب عليها من خلال تقدم جنودها وتقديم أفكار وأساليب جديدة لتنظيم الدولة. وظلت التغيرات الأساسية - وفقًا لتصور بزوغ- عصرًا جديدًا فى أوروبا: العصر الحديث، أو الحداثة. ويمكن اعتبار التغيزات التى حدثت - أيضًا- نتيجة لعمليات داخلية لها تفسيراتها المستقلة داخل المجـــال الجغرافى - الثقافى لأوروبا. وكان التصور المهيمن على أمثلة التحول داخل هذه الحدود المحددة للذات أنها ذات خاصية متماثلة فى حين أن إدراك أمثلة التحول خارج هذه الحدود يكون غالبًا فى سياق وجود "**فجوة**" ثقافية. وينتقل هذا الفصل الآن إلى بحث هذه التفسيرات، وإلى أى مدى إمكانية تبريرها.

(٤)

يمكن رؤية الحداثة السياسية - التى يكون توجيهها بمؤسسات حديثـــة للدولة- الأمة- على أنها نشأت فى أوروبا عقب الثورة الفرنسية، ومن ثـــم أصبحت عالمية بمرور الوقت. إن هذا الاتجاه نحو كلية الوجـــود العـــالمى يمكن أن يفهم فى ضوء دمج النزعة الاستعمارية مع عمليات التحديث الأمر الذى ترتب عليه نشأة الدول فى الأجزاء غير الأوروبية للعالم التـــى تعتبـــر جزءًا من التقدم "**الطبيعي**" لتاريخ العالم. وكثيرًا ما يوجد شكل للنضال لتأكيد الهوية القومية فى هذه المناطق فى مواجهة الاستغلال الاستعماري. ويذهب

تــشاترجى chatterjee إلــى أن ثمــة إمكانيــة لفهــم مــسألة القوميــة فى العالم غير الأوروبى كانــصهار تــاريخى مــع النزعــة الاســتعمارية (30 :1986). وتحتاج مسألة الاستعمار - من ناحية ثانية- أن تؤخذ فــى الاعتبار كمكملة لتطوير الدولة ليس مجرد خارج أوروبا؛ لكن داخل أوروبا أيضا. فكما بزغت الدولة-الأمة كدولة استعمارية؛ فإن الكتابة عنها من خلال العلاقة الاستعمارية منذ فهم نشأتها الأولي؛ قد أدى إلى إفقار تحليلنــا لهــا. ويكون الإخفاق فى تناول هذه العلاقة المعقدة هو مفتاح الاستمرارية للفهــم الخاطئ بشان "خصوصية الحداثة" وانتشارها عالميًا من أوروبا إلى الخارج. ولا يستند هذا الفهم الخاطئ فقط على العلماء "**الأوروبيين**"؛ لكنه موجود أيضا بين علماء العالم الثالث - على سبيل المثال- لــدى أشــيس نانــدى Ashis Nandy، الذى يذهب إلى أن القومية فى الهند كانت "نتاجًا مباشرًا للماضــى الغربى وبهذا فهى مقولة مستوردة" (89 :1994). وقد اعتُرِض على ملائمة افتراض هذه المقولات بوصفها "**أوروبية**" فى بداية هذا الكتاب. والآن سوف تناقش دلالات خصوصيتها فى سياق تشكل الدولة- الأمة والقومية.

إن نشأة "**الحوكمة**" governmentality - على ســبيل المثــال- وهــو مصطلح استخدمه فوكو Foucault (1991) لنــشأة شــكل جديــد للحكــم - أصبح ممكنًا من خلال التطــوير "**بمعــارف الخبــراء**" واســتهداف الرفاهيــة للمجتمع ككل- ارتبط غالبا بتغير الحكومة من التشريع إلى الإدارة الذى حــدث عقب الثورة الفرنسية وغيّر طبيعة الدولة الأوروبية(١٠). وقد ناقشنا هذا - تباعًا- لارتباطه بالتحول من الوجود الاجتماعى إلى التطبيب، والصحة لتكون السيطرة من خلال "**رؤية ومعرفة**" (Joyce 2002: 97, 105)، أو لاستخدام مــصطلح

ذى رنين أكثر، وهو المراقبة. وقد أبدت أغلب التحليلات لهذا التغير قليلا من الاهتمام بالنزعة الاستعمارية فى رسم صورة فهمهم للحوكمة، ولا يزال الكثيرون يرون المستعمرات "**كمعامل**"، غالبًا قمعية، للسياسات الاجتماعية التى تأسست فى بلدان "**الموطن**". انظر (Cohn and Dirks 1988, Mitchell 1991). ويفترض بيلى Bayly (1993)، من وجهه نظر مختلفة أن حكم الإمبراطور المغولى أكبر Akbar، فى الهند فى القرن ١٧ - إضافة إلى خلفائه- وكان مدعوما بأنماط للمراقبة تنسب عموما فى النشأة الأولى إلى داخل أوروبا. إن عملية جمع المعلومات الاستخباراتية، فى شكل كتابة تقارير، والمراقبة للسكان عمومًا تشكل أنماطًا للحكم ليست خاصة بأوروبا، ولم تنشأ فقط فى مكان آخر بعد تأثير النزعة الاستعمارية؛ لكن استخدمتها إمبراطوريات أخرى لأغراضها الخاصة، وارتبطت الأغراض بتلك الإمبراطوريات الأوروبية اللاحقة (انظر أيضا: Fischer 1993).

ويدلنا التراث البحثى المعاصر، وبصفة خاصة فى مجال تاريخ العلم والطب "**الاستعماريين**" (Prakash 1999, Arnold 1993, 2000 Kumar 1995, 2003). على اهتمام بتأثير أى سياسات وممارسات أُدخلت وتطورت فى المستعمرات - ومن ثم- تصديرها "**لترجع**" للمدينة الكبرى المؤثرة بتطوير أنماط للحكم هناك. ويذهب براكاش - على سبيل المثال- إلى أن سكان المستعمرات بوضوح "وقد شكلوا كموضوعات تابعة، تمثلت فى الصحة، والموارد، والإنتاجية، والتنظيمات، وأهداف للحكم" (1999: 126). وقد أصبح استخدام بصمة الأصبع - على سبيل المثال- "عالمى الانتشار كوسائل "**علمية**" لتحديد الهوية كفرد، وكان الاستخدام الأول لهذا الغرض فى الهند للحكومة الاستعمارية فى البنغال" انظر (Cohn and Dirks 1988:

226, Viswanathan 1988). ويتحدث فيسواناثان Viswanathan فـــى سياق مختلف؛ لكنه مرتبط عن ظهور الأدب الإنجليزى كموضوع فى المنهج الدراسى للمستعمرات منذ عهد بعيد قبل أن يتأسس فى ذلك الحين فى بلـــده الموطن وذلك تنفيذاً لقانون صدر فى عام ١٨١٣ "فرض على إنجلترا مباشرة التعليم لموضوعات عن الفطرة، وهى مسئولية لم تكن تتحملها رسميا حتـــى نحو شعبها" فى ذلك الوقت (1989: 3,23).

وقد دعم التوسع الاستعماري، الاتحاد بين العلم والدولة، ومن ثـــم أدى أيضا إلى نشأة مفهوم "**الدولة/العلم/ الطب**" (Kumar, 2003) الـــذى وفقـــا لبراكاش: "كشف ميدان جديد ضخم من الممارسات المرتبطة بـــه للـــسكان" (1999: 157) وزود الحكومات بنموذج للمصطلحات للتعامـــل مـــع شـــعو بهم كما يستنتج تشاكرابارتى Chakrabarty،

> بما أن اللغة البريطانية لم تمتد للهند بحثا عن المعرفة الخالصة، برزت كل هذه الدراسات بموجب وبعملية الهيمنة على الهند، وتخلـــل هـــذا الـــزواج (الاتحاد الحميمي) بين الحكومة والتدابير التى تناولتها بوصفها شيئًا ما يمـــس البناء العميق للخيال الذى وُظِّفَ فى النظم السياسية الحديثة (2002:84).

لقد أُدْرِكت الحكومة داخل الخطاب الليبرالى على أنها أداه لتحقيق التوافـــق وضمان حرية المصالح المستقلة فى العلاقات المدنية – الاجتماعية عبر القانون والحرية، وقد اضطر النظام الاستعمارى لانتهاك هذا الخيال الليبرالي، كما كان "[غير] قادر على وضع معرفته وتنظيماته كفروع للمعرفة الذاتية والتنظيم الذاتى لرعيته من الهنود" (Prakash 2002:88). إن المبدأ إلى هذا الحد لـــ"التـــدخل فى مصالح الرعية بأكملها" يمكن رؤيته تطور فى مبررات الهيمنة الاستعمارية فى الوقت الذى دمج فى الخطب الحكومية داخل أوروبا – علاقة، مـــع ذلـــك، تُجُهِلَ، من قبل فوكو نفسه وآخرين .

بدأ علماء، أكثر حداثة، إدراك أهمية النزعة الاستعمارية في تشكيل الدول الغربية تبعًا لكابلان Kaplan – على سبيل المثال– الذى يذهب إلى "أهميه قراءة تاريخ الأمم الأوروبية كنتاج للعلاقات الاستعمارية" (1995:94). وبالمثل يفترض كوهن وديركس Cohn and Dirks أن النزعة الاستعمارية متضمنة فى المشروع المطلق للدولة – الأمة للمدى الذى "لعب دورًا فعّالا فى المشروع الثقافى للشرعية، وفى التطور التكنولوجى للأشكال الجديدة لقوة الدولة" (229 :1988). إنهما يفترضان: أن مشروع الدولة – الأمة، كلاهما تشكل وتمثل عن طريق أشكال للمعرفة أبدعت وجُمِعَت عن طريق الدولة فى محاولتها وضع علامة ودرجة لواجهات مواطنيها (225 :1988). وقد دعم آخرون، مثل: إستولير Stoler، ضرورة بحث "السياسات الثقافية للمجتمعات المحلية التى عاش فيها المستعمرون" للتقدير الأفضل للأساليب المختلفة التى شكلت الهوية القومية وحافظت عليها بعيدًا عن "**الوطن**" (136 :1989).

وقد ذهب بحث أنتونى سميث Anthony Smith (1986 ,[1971]1983)) عن القومية – بمزاج مختلف– إلى إعادة توجيه دراسة القومية بعيدًا عن اهتمامها بصندى أوروبا كموقع للنشأة التاريخية لهذه الظاهرة، وهو ينشد بحث ما إذا كانت توجد نماذج مختلفة للقومية. إنه يفكك – بفعل هذا– بحوث المنظرين الآخرين عن القومية، ويذهب إلى أن خطأهم الرئيسى فى تبنى التمثيل "لرؤية منتشرة بشكل واسع، وتعتبر أن الأصل "غربى" أو نسخة " وأن تمركز القومية فى أوروبا" قد قدم معيارًا للنماذج اللاحقة" (11 :1983). وهو معيار يضع تفسيرًا عامًا كعملية انتشار أصول القومية فى إنجلترا وفرنسا، ويرى أنها تنتشر إلى الخارج لألمانيا وإيطاليا – ومن ثم– إجمالا، أصبحت

الأمثلة التاريخية التى منها يقتبس، ويقلد، ويتكيف الآخرون. لقد ميــزت هــذه الرؤية التمركز حول النزعة الأوروبية وفقًا لسميث Smith، الــذى يؤكــد أن أصول انتشار القومية غربية، وأن هناك "اغترابًا" لمحتواها عن فكــر الــسكان وعواطفهم والأراضى التى دُفِعَتْ إليها" (29 :[1971]1983). وســوف نهــتم بتحليل هذا النموذج فى أبحاث اثنين من المنظرين البارزين للقومية، ومــن ثــم نتأمل فى انتقادات سميث لتمركزها حول النزعة الأوروبية بمزيد من التفاصيل.

يرى إيلى كيدوريه Elie Kedourie ([1960] 1994)- على ســبيل المثال، مذهب القومية على أنه مشتق من خصوصية الظــروف الفلــسفية والسياسية الموجودة فى أوروبا فى القرنين ١٨، ١٩ ومن ثم يُــستَوردِ لبقيــة العالم عن طريق الصفوات المتعلمة فى تلك المناطق من خــلال المحاكــاة والتكييف للنموذج الأصلي. وتكون القومية "إثنية ethnicized" ويصبح فيها تكييف الظروف الاجتماعية والتقاليد المحلية للموقع المحلى الذى سُيِّسَ مــن خلال عدسة القومية. يرى كيدوريه؛ أن هذا تحريف ماكر للثقافات المحليــة من خلال التحايل عن طريق الصفوات؛ رغم ذلك، حينما حدثت عملية مماثلة فى أوروبا لم يكن هذا مفهومًا ضــمنيًا. ويــذهب تــشاترجى Chatterjee - بهذه الطريقة- إلى أن "بتمييز كل تلك الحالات التى لم تتطابق مع الشكل الكلاسيكى كمنحرفة"، من الممكن المحافظة علــى نقــاء النمــوذج الوحيــد (1986: 3).

إن التأسيس لهذا التمييز، بين نموذج طبيعي، أرثوذكسى راشد للقوميــة ونموذج متحــور، ومتكيــف، أو أكثــر شــذوذًا عــن المــألوف، "صُــمِّمَ ليفسر كيف أمكن تشويه الفكرة الليبرالية العميقة [القوميــة] لإخــراج هــذه الحركات والنظم غيــر الليبراليــة بكــل مــا فــى الكلمــة مــن معنــى"،

(Chatterjee 1986:3). ولقد كان ذلك أحد الخصائص التى رسمت نهاية القرن العشرين المنصرم. وقد تشكل التمييز من خلال المنظرين لتلك الحركات التى رؤيت على أنها تنطلق من تصور "مدني" للقومية، اهتم فى المقام الأول بإحراز حقوق لهؤلاء داخل إقليم له خصوصية؛ بينما صُوِّر النمط غير الليبرالى على أنه شوَّه هذه الصياغة الأولى. ويستند هذا الفهم - من ناحية ثانية- على فكرة خاطئة للمشروع الأول للقومية الذى لم يحى قط فى عزلة عن أنواع الوحشية التى ارتبطت به. ويكون الاختلاف الوحيد، فى المثال الأول؛ أن تنفيذ الأعمال الوحشية كان ضد "**الآخرين**" الذين يعانون الإقصاء جغرافيا وثقافيًا، فى حين أمكن رؤية القومية الحديثة أنها أبرزت المشكلات المرتبطة الأقرب "**للوطن**".

يتبع بنديكت أندرسون Benedict Anderson (1996)، فى كتابه المجتمعات المحلية المتخيلة، خطأ مماثلا لكيدوريه Kedourie فيفترض أن نشأة العامية المطبوعة كانت جوهرية لنشأة القومية والأمم فى أوروبا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وتعتبر هذه القوميات قوميات معدلة ونسخ متأخرة، مثل تلك التى تطورت فى إفريقيا وآسيا، والتى يعتقد أنها اغتصبت هذه الأشكال الأصلية. وكما يذهب تايلور ففى سياق الحداثة؛ فإن جميع من يطلق عليهم "هم" (بمعنى، غير الأوروبيين) " رغبوا فى فعل [ما يكون] أو ما تم بالفعل فى الغرب" (233 :1999). ويتساءل تشاترجى Chatterjee حول هذا التشكل النظرى لنشأة الدول -الأمم والحداثة:-

إذا اختارت القوميات فى بقية العالم مجتمعها المحلى المتخيل من أشكال معينة "معدلة" تشكلت بالفعل وكانت متاحة لهم عن طريق أوروبا والولايات الأمريكية، فما الذى تركوه للتخيل؟ (216 :1996).

ويستمر فى المناقشة بالقول: "إننا إذا أخذنا هذا الوضع فى الحسبان؛ فإن هؤلاء الذين يعيشون فى عالم ما بعد الاستعمار قد اتهموا على أنهم مستهلكين فقط للحداثة؛ وليسوا قط مبدعيها، أو مؤلفيها: "حتى تخيلاتنا يجب أن تظل إلى الأبد استعمارية" (1996: 216).

وقد أسس سميث Smith (1986) نظريته على "أصل إثنى للأمم" كنقطة مضادة لهذا النموذج للتمركز حول النزعة الأوروبية وبمناقشة ذلك كوجود إثنى حيثما تكون كل أمة لديها أصلها فى حد ذاتها وليس مشتقًا من أى وجود آخر. ولم يستطع سميث الفرار حقا - برغم هذا- من تقديم تفسيرات متمركزة حول النزعة الأوروبية لنشأة وانتشار القومية. ويتناول سميث رغم ذلك نقطة بديلة لشرعية وجود الدول، يتبع نموذجه حول *تشكل* النمط التقليدى الذى عرضه المؤرخون كوصف مبكر فى هذا الفصل (1986: 138-49) . ويعكس سميث - بهذه الطريقة- صورة فالرستين Wallerstein (1997) فى مناقشة لإعادة تقييم الأهمية المنسوبة للنتائج بدون تفنيد الشكل المميز لتفسيراتها.

فيما يتصل بالافتراض السائد عن خصوصية نسخة الدولة التى ظهرت فى أوروبا القرن ١٨، ومن ثم أصبحت نموذجًا أو نسخة لمحاكاتها من قبل الآخرين، ولا يوجد هنا اختيار؛ ولكن يوجد تنظير للآخرين فيما يتصل بالنموذج الأصلى الذى يعد النموذج الذى يُتحدث عنه هنا تقليدًا له. وبغض النظر عن محاولات سميث لتجاوز رؤية القومية بوصفها "أوروبية" كلية، ومحاولة فهمها بوصفها شيئا ما موجودا فى العالم بشكل دائم؛ فإنه لم يستطع الفرار من اتهام بناء قوميات لاحقة كمحاكاة لتلك الأصلية. إن إدراك تعبير

هذه القوميات عن ذواتها على أنها "مختلفة" عن تلك الأوروبية، تدل على أنهم مازالوا ينظرون بمصطلحات تعبر عن ذواتهم باختلاف عما كانوا من قبل – وقد أصبح ما يتعلق بما كانوا من قبل مُدركًا بوصفه أصلي. حتى إذا كان الوجود *الإثني* " مستقل وعالمي؛ فإن الأسلوب الذى عُبِّر به فى العالم، ولفت الانتباه إليه، وفقا لسميث، يصاغ نظريًا بمصطلحات "النظم السياسية الإثنية الأصلية لإنجلترا، وفرنسا وقشتالة الإسبانية" (139 :1986).

تصبح هذه الفكرة عن الجوهر الإثنى للأمم التى منها تطورت الهوية القومية غير مستدامة لعديد من الأسباب[١١]. تاريخيًا، كما يناقش رودريجيز – سالغادو (Rodriguez – Salgado) 1998 فى سياق إسبانيا؛ يكون مفهوم الهويات القومية فى القرون المبكرة إشكاليًا؛ لعدم وجود امتداد لأشكال الوجود القومى التى ترتبط بها. أثناء القرن السادس عشر – على سبيل المثال– يناقش رودريجيز– سالغادو: إن الهوية الإسبانية "كانت كوزموبوليتانية، وتشكل على نحو جمعي" يعكس مزيج الممالك الأيبرية التي، رغم أنها معروفة بالتعبير العامى كإسبانيا، فهى لا توجد هكذا بأى أسلوب ذى مغزى (233 ,251 :1998)[١٢]. كما يذهب رودريجيز – سالغادو – فى الواقع– أنها نتجت عن "خبرة الحرب خارج الحدود"، بصفة خاصة فى الولايات الأمريكية، والصداقة الحميمة التى نشأت "وشكلت روابط أدت لترابط الإيبيريات العدائية فى "إسبانيا" (1998:251)، وهكذا، وفقًا للمضمون؛ فإن النزعة الاستعمارية ذاتها، ليست إثنية الأصل إلى حد ما. ويكون هذا الرفض للاعتراف بتأثير النزعة الاستعمارية كمكمل لعمليات من نوع آخر يُعتقد أنها تحدث نموا داخل أوروبا ويخضع ذلك للبحث فى هذا الكتاب.

(٥)

بينما حدثت تطورات خاصة فى فرنسا فى نهاية القرن ١٨ وبداية القرن ١٩ أدت بالعلماء لتفسيرها كنقطة انطلاق لنشأة الدولة – الأمة الحديثة، بوصفها تطورات أصلية فى حين تفسر التطورات الأخرى بوصفها نسخة مقلدة – ومع ذلك– فإن هذا ليس الأسلوب الوحيد لفهم الظواهر. لقد حدثت نشأة الدولة – الأمة فى سياق نشأة الدولة الاستعمارية، أما التطورات التى ارتبطت بأحد هذه الدول؛ فإنها تعزى إلى ظواهر مجردة الظواهر بعيدًا عن العلاقات والترابطات بينها. ولا يمكن فهم سياق الأحداث بوصفها تبدأ مع الثورة الفرنسية ومن ثم تنتشر خارجيًا؛ لكن يصبح الفهم أفضل بوصفها تحدث فى سياق روابط أوسع؛ حيث الأحداث الخاصة تكون جزءًا. يثرى هذا تصوراتنا لأحداث معينة إضافة إلى إدراك السياقات الأوسع التى حدثت فيها.

وسوف أناقش الفهم الأفضل للأحداث، بوصفها مستقرة فى نسيج تاريخى خاص ومؤسسة له؛ حيث النسيج نفسه مترابط، وبأسلوب سعيد Said (1975)؛ فإن "**البدايات**" الممكنة تظهر على أنها تقابل أصول أحداث المستقبل. يذهب سعيد إلى أنه فى حين تفترض ضمنًا فكرة "**الأصل**" التى تطورت منها، تلك "**البداية**"؛ إلا أنها تطورت كمركب للعلاقات يسمح بالتشكل وإعادة التشكل، وهكذا يسمح بتغيرات فى المنظور والتصورات المعرفية (1975: 372). وبهذا، رغم وصفها المستقر واللافت للنظر كحدث للتناسبات التاريخية للعالم المتميز، استطاعت الثورة الفرنسية وما ارتبط بها من نشأة "**نموذج**" للدولة – الأمة الحديثة أن ترى كونها حدثًا بديلا فى عالم الأحداث التى واكبت معًا تَشَكُّل عالمنا الحديث.

ومنذ درج الفكر الاجتماعى والسياسى على نطاق واسع على القبول غير النقدى للافتراضات التى اعترضنا عليها هنا؛ فإن استدعاء تلك الافتراضات للبحث يستلزم إعادة التقييم لتلك النظريات. وقد أصبح هذا واضحًا بالإشارة إلى أن النظريات الحديثة للقومية التى أسست للتمييز بين "**الأصل**" و"**النسخ**" ذات مضامين للأسلوب الذى تُفْهم به التواريخ المختلفة وتُحلَّل. وبمتابعة فوكو، فى وصف الأصل الذى استحوذ عليه كأعظم ما يكون تاريخًا للتغيرات والتحولات، والأساليب التى تعمل على أشكال جديدة لتنتج التضاريس (السياسية) التى نعرفها اليوم؛ فإن تصور النسخ فى سياق الجمود، التراكم البطيء للماضي، ورواسب أشياء ترى معوقة عمومًا كمقاومة لما يكون متميزًا (8-157 :[1969] 2002). ويعمل ذلك على فتح الطريق نحو تقييم الأشياء، بكونها أصلية ورؤيتها على أنها أكثر سموًا من النسخة، التى تكون مجرد تقليد. كما يذهب فابا Bhabha (1994)؛ فإن فعل القوة التاريخية يتحول عبر عملية دلالية، وذلك بافتراض النسخ، المقلدة، التى يتمفصل وجودها مع وجود "**الآخر**". ويخلق هذا التساؤل عن التمثيل أيضًا مشكلة سلطة كتمثيل للهوية بمصطلحات "**الوجود**" و "**التشابه**" التى تجلب "**الآخر**" ليصبح "كموضوع للتمييز الذى يكون متماثلا تقريبًا؛ لكن ليس تمامًا" (Bhabha 1994: 86, 89).

يكون الفرق بين ما هو إنجليزى وما يصبح إنجليزيًا– على سبيل المثال– أو بين ما يكون أوروبيًا وما يصبح أوروبيًا، هو الفرق الذى ينتج معرفة كشكل للضبط الاجتماعى "حيث ما يصبح إنجليزيًا من المؤكد ليس إنجليزيا" (Bhabha 1994: 87, 90). يعيد *التقليد* بدلا من كونه يعيد التمثيل ومن ثم،

فإن ما يستحوذ عليه كونه نسخًا يمكن أن يكون معلومًا، ومُراقبًا، وموجهًا (Bhabha 1994: 88). ويمكن التنويه – على سبيل المثال– إلى أنه "حينما نشأت القومية فى بلدان أخرى فى الغرب، رغم حقيقة أنها كانت نتاجًا للإحساس بالمعوقات فيما يرتبط بمعايير التقدم التى حددها صناع التقدم [بريطانيا وفرنسا]، لم يوجد شعور أن الأمة لم تكن مجهزة ثقافيًا لأداء مجهود للوصول لتلك المعايير" (Chatterjee 1986: 1). وإضافة لذلك، حينما كان اتخاذ موقف مماثل من الأيديولوجيا القومية فى أجزاء أخرى من العالم، فمن المؤكد إلى حد ما أن "العصر التاريخى للتنمية والحضارة (السيطرة الاستعمارية والتعليم، لنكون محددين بدقة) انقضى قبل أن تستطيع (الدول المستعمرة) اعتبار نفسها مستعدة لهذه المهمة" (Chakrabarty 2000: 8). هذا الإحجام "**لا يزال**" ينبعث من تصور تاريخى للتقدم الثقافى يبرر التدخل الاستعمارى بمسمى التقدم، وبفعل هذا، ينكر أن يكون متوافقًا مع[١٣] الآخرين.

وكما ناقشنا فى فصول مبكرة، لقد بدأ المنظرون فى أعقاب الثورة الفرنسية يهتمون بالأساليب الجديدة لفهم العالم معتقدين أن المقولات والتشكلات النظرية للتنوير لم تعد كافية منذ فترة طويلة لهذا الهدف. إنها لم تفترض فقط أن الثورة الفرنسية غيرت بشكل جوهرى طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية؛ لكنها بشكل أبعد تصورت أن عمليات التصنيع أيضًا من المتعذر أن تلغى تبدل تنظيم الحياة ووضع علامة على التغير الكيفى لما حدث من قبل وأدى لما نشأ الآن. ويتحول الفصل التالى إلى الاهتمام بالحدث المفتاحى الآخر فى التأريخ العام للحداثة الذى يصور عمومًا أنه يمنحها ادعاءها بالتميز وأصلها الأوروبي؛ وهو الثورة الصناعية.

الفصل السادس

أساطير الرأسمالية الصناعية

"الثورة الصناعية"

مع ظهور وتطور المؤسسات السياسية للحداثة – وهو ما ناقشناه في الفصل السابق– والتي ارتبطت بشكل دائم بالثورة في فرنسا عام ١٧٨٩، كانت هناك ثورة أخرى يُعتقد أنها حولت تنظيم الأنشطة الاقتصادية في العالم، أي الثورة الصناعية. ويُنظر إلى القرن التقليدي للثورة الصناعية من ١٧٥٠ إلى ١٨٥٠، على أنه أنتج "تحولا راديكاليًا" في بنية الاقتصاد، وفي تكوين الناتج الإجمالي، و"**توزيع العمل**". ومن ثم أوجد نمطًا مختلفًا نوعيًا للاقتصاد (Hartwel 1965 : 1811)، وهذا ليس ببساطة أحد الانقطاعات في السجل التاريخي؛ لكنه نوع أنشأ – على حد تعبير هارتويل– انقطاعًا كبيرًا في التاريخ الحديث (1971:75)، بين التقليد – التراث والمعاصرة. ولا يُنظر إلى التصنيع على أنه كان سببًا في ظهور العالم الحديث؛ لكن يعتبره العديد من المنظرين مُساهمًا في ظهوره، كما كتب كريشان كومار Krishan Kumar – على سبيل المثال– "**كي تكون حديثًا معناه أن تجتاز عملية التصنيع بنجاح**" (1978:111) وأن عدم اجتيازه معناه الفشل.

أصبحت "**الطفرة**" في التصنيع داخل أوروبا الغربية (تحديدًا في إنجلترا في نظر بعض المنظرين) أساسية في بناء هوية أوروبا الحديثة، وأن تكون حديثًا معناه أن تجتاز عملية تقليد أوربا تشمل عبور عتبة نوعية. في هذا

الفصل، درست الخطاب السائد للثورة الصناعية، وعالجت العلاقة بين تصورات ما هو "**صناعي**" ونظريات المجتمعات التجارية والرأسمالية. مع توجيه اهتمام أقل بالمزايا النسبية لأى نظرية معنية بشأن التصنيع والرأسمالية مقابل بعضها البعض، واهتمام أكثر بدراسة المبادئ المركزية الأوروبية التى تقوم عليها النظريات، مهما كانت الفروق الأخرى. ثم قَيَّمْتُ ادعاءات العلماء بخصوص النظريات، مهما كانت الفروق الأخرى ثم يلى ذلك تقييم مزاعم العلماء جذورها الإنجليزية والأوروبية ودراسة نتائج تجريد هذا الوصف من السياق العالمى الأوسع، أى نتائج محو العلاقات الاستعمارية من التفسيرات السائدة. وسوف نختم هذا الفصل بإعادة التفكير فى هذه الأوصاف السائدة فى ضوء علم اجتماع تاريخى للعلاقات.

(١)

. فى ضوء التاريخ الاقتصادي، رأى دى فريس de Vries (1994) أن الثورة الصناعية، أو الثورة البريطانية هى أحد أهم المعالم التاريخية الجغرافية التى تضفى البناء والتماسك على الروايات التاريخية وتحدد الأسئلة البحثية. وكما ميزت النهضة بداية التاريخ الحديث؛ فإنه يجب النظر إلى الثورة الصناعية باعتبارها ميزت بداية العالم الحديث. وهذه الآراء لا جدال فيها أبدًا، ويرى فريز أن محور المناقشات حول جذور وأسباب وتطور الثورة الصناعية مشابه لمجالات دراسة عصر النهضة – "**تحولت من دراسة تفاصيل أجندة موجودة إلى الأجندة نفسها**" (1994:250).[١] على سبيل المثال: اقترح كاندين شأنه شأن كوهن، أن هناك نماذج بحثية معينة تصقل، ثم تضعف بواسطة بحوث أخرى، ثم يظهر تفسير جديد لا يلقى بالشك على البيانات المستخدمة سابقًا فحسب؛ لكن عن طريق الاعتراف بموضوعات

مختلفة يطرح أسئلة جيدة وأطر عمل تنظيمية جديدة كذلك. إذًا، كما لاحظ فيلن؛ فإن "**فكرة الثورة الصناعية قد تعرضت إلى بعض التحولات المذهلة**" (2 : 1966). سواءً كان من التطور الفجائى إلى التطور التدريجي، أو من المسئولية عن جميع العلل و(المزايا) للمجتمع إلى الاختزال الإحصائى لعدم الاعتداد التاريخي.

وعقب مناقشات فيلن السابقة لكتابات المؤرخين الاقتصاديين حول الثورة الصناعية؛ فإن مسح كاندين(1984) يعنى أيضًا "بأجندة" الثورة والأطوار المختلفة داخل التأريخ. خلال المائة عام كما افترض منذ محاضرة توينبى Toynbee حول الثورة الصناعية (التى نُشرت عام1884)، وبدأت بالفعل المناقشة الحديثة عن الموضوع (132: 1984) وحددت أربعة أطوار متميزة. وتعكس هذه الأطوار حسب رأى كاندين الموضوعات المختلفة للمؤرخين والمنظرين ذوى الاهتمامات والمشكلات الشائعة الخاصة بعصرهم، رغم أن النماذج الناتجة لا تدين إلا بالقليل لكوهن وتدين أكثر لفكرة فيبر عن الدراسات التاريخية المنظمة فى ضوء الهياكل المتغيرة للصلة بالقيم. هنا يتفق كاندين مع فيلن الذى يقترح أن أجيال المؤرخين الذين درسوا الثورة الصناعية "**كل منهم عكس – كما هى عادة المؤرخين– وجهة نظر معينة لعصرهم**" (14 :1966).

بدأت المرحلة الأولى بنشر توينبى لمصطلح الثورة الصناعية، التى ارتبطت بتواريخ تعنى أساسًا بالمشكلات الاجتماعية الناتجة عن عمليات التصنيع. وفى حين أن علماء الاجتماع الأوائل، أمثال: سان سيمون وكونت رأوا فى المجتمع الصناعى الناشئ فرصة لتحرر تدريجى من النظام الإقطاعى (انظر Baker 1989)؛ فإنه فى نهاية القرن التاسع عشر كانت هناك "**أزمة المجتمع الصناعي**" نفسه التى أصبحت الاهتمام الأساسي.[٢] وكان

ظهور الملكية الخاصة والمنافسة الحرة، مع نقص التنظيم الحكومي للظروف الاقتصادية من العوامل التى ذكرها العلماء لتفسير الفقر الواضح والانحطاط العام فى مستوى المعيشة فى القرن التاسع عشر. وتعزو مشكلات الفقر والاغتراب إلى انهيار المجتمعات التقليدية وتحلل الروابط الاجتماعية التى أعتبرت نتيجة للأشكال الجديدة للتنظيم الاقتصادى (Hirschman 1977 Polanyi 2001 [1944],). والأكاديميون من أمثال هاموندس Hammonds وويب Webbs – على سبيل المثال– استخلصوا علاقات واضحة بين الظروف السيئة فى الوقت الحاضر وأهوال فى الثورة الصناعية (Cannadine 1984:135 وانظر أيضًا Hartwell 1971).

إن المرحلة الثانية من التأريخ للثورة الصناعية التى افترضها كاندين كانت بالمثل تركيزًا تشاؤميًا على الطبيعة الشفافة للنشاط الاقتصادى والتقلبات قصيرة الأجل المرتبطة بالحروب الداخلية وفترات ما بعد الحرب مباشرة فى الخمسينيات والستينيات، مع الظهور غير المتوقع وغير المسبوق للرأسمالية الغربية؛ فإن الثورة الصناعية، بدلا من أن تمدنا بسياق تاريخى للمشكلات الاجتماعية المعاصرة، أصبحت فجأة "**المرشد السابق للجهود الحالية**"، أى ذات نجاحات (154، Cannadine 1984:149). أتاحت المناقشات السابقة لدور التجارة فى هذا الطور الثالث من التفسير، لنظرية النمو الاقتصادى وتطوير نموذج عام لعمليات النمو الاقتصادي. هذا نجده فى أعمال أصحاب نظريات التحديث، كما سبق مناقشته فى فصل سابق لدى علماء مثل: روستو Rostow (1960)، الذى رأى أن الثورة يُعترف بها على أنها أصل "**الانطلاقة**" الاقتصادية، والتى كان لها أهمية تاريخية عالمية.

مع ذلك، لم يستمر هذا التفاؤل – كما اعتقد كاندين (1984)، باستخدام عناوين جالبريث Galbraith – "**مجتمع الوفرة**" مما أتاح ظهور الطور الرابع الذى يوصف بأنه "**عصر الشك**". ومن الرفاهة فى السبعينيات فصاعدا، بدأ

المؤرخون الاقتصاديون وعلماء الاجتماع فى التركيز على قضايا " **المجتمع ما بعد الصناعي**" (Touraine 1971, Bell 1974)، والتناقض الثقافى للرأسمالية (Bell1976) وانحلال التصنيع (Bluestonean and Harrison 1982) ومناقشاتهم التى ظهرت فى سياق إعادة تفكير واسعة النطاق للثوابت السابقة والشك فى روايات الحداثة الغربية المسلم بها سابقًا. وبالإشارة إلى الدراسات التى كتبت بعد مقالة كاندين الأصلية، يمكن القول: إن هناك الآن طورًا خامسًا متميزًا. ابتداءً من التسعينيات فصاعدا، واستجابة لانهيار النظم الشيوعية فى أوروبا وإنشاء سوق عالمية، كان هناك إعادة ظهور للنموذج النظرى "لنظرية النمو" ونوقشت الثورة الصناعية على نحو متزايد فى سياق قضايا العولمة والتحرر الجديد (انظر Veltmeyer and Petras 2001، Greasley 1997، Oxley). نتيجة لذلك، سعى المنظرون إلى إعادة وصف تميز الثورة الصناعية على أنها نقطة حاسمة لانطلاق ظهور العالم الحديث (العالمي)، وكانت الثورة نتاج "**الحداثات المتعددة**"[٣]. وعلى الرغم من تعرض الثورة الصناعية للنقد، والترحيب بدرجات مختلفة، على مدى المائة سنة الماضية؛ فإنها تظل محكًا أساسيًا لكل من المؤرخين الاقتصاديين ومن يرغبون فى وضع أوروبا فى مركز تحليلات التغير الاقتصادى العالمي. والجزء التالى سيتناول على نحو أكثر تفصيلا الارتباط بين الثورة الصناعية بأوروبا ومناقشة العلاقة بين التصنيع والرأسمالية.

(٢)

فى حين أن معظم التواريخ العامة للثورة الصناعية تحدد ظهورها فى بريطانيا فى منتصف القرن الثامن عشر؛ فإن عددًا من المؤرخين رأوا أن جذورها ترجع إلى أقدم من ذلك، وهو ما لم يحدث فى بريطانيا فقط.

ورغم اختلافاتهم فى تحديد لحظات التغير فى إطار زمنى معين أو الاختلافات بخصوص طبيعة العملية (المتقطعة أو التدريجية) ولا يزال هناك افتراض عملى عام: إنه عند نقطة معينة من القرن السادس عشر فصاعدًا، حدث تسارع فى النمو الاقتصادى فى إنجلترا (بريطانيا، أو أوروبا الغربية) على نحو ظاهر. وتفسير هذا التسارع يوجد عادة فى الارتباط الفريد بالعوامل التالية: الاختراعات التكنولوجية، وماكينة الإنتاج - تركيز المصانع، ونمو المراكز الحضرية، والأرض الموحدة، وشبكات نقل الماء، والزراعة التجارية، وانتشار الأعمال المصرفية والمالية، وزيادة عدد السكان. وفى حين أن عديدًا من هذه الظواهر لم تكن جديدة بالضرورة؛ فأنَّهَا أثَّرَت على تطور المجتمع والاقتصاد بطرق غير مسبوقة.

كانت هذه الموضوعات على وجه الدقة سبب ظهور مناقشات حول "**سؤال فيبر**" (انظر مثلا Marshall 1982 ،Roth and Lehmann 1993) وهو "**ما إذا كانت هذه الظروف كافية فى ذاتها لإنتاج "التقطع"** فى الرأسمالية أو أنها فى حاجة لبعض التحولات فى نطاق عامل فكرى مستقل - أى الأخلاق البروتستانية - ليجدها تحفيز متقطع فى الاتجاهات نحو الفعل الاقتصادي. ورغم أن المؤرخين الاقتصاديين لم يكونوا مهتمين "بالمركزية الأوروبية" لوصف فيبر؛ فقد اتضح أن تركيزه على العامل الفكرى أو العامل الثقافى يساهم بشدة فى فكرة الأصول الأوروبية "**ذاتية**" المنشأ للحداثة الرأسمالية.

وكانت الاختراعات التكنولوجية الأكثر شيوعًا فى تلك الفترة، حسب رأى بريجز Briggs "**ماكينة صناعة النسيج، وظهور تقنية جديدة لصناعة الفحم والحديد، وإدخال طاقة البخار**" (1960:21) ويمكن اعتبار أن الاختراعين الآخرين وسيطان فى التحول فى الصناعات الأخرى. كانت هذه الاختراعات مع شبكة رجال الأعمال مهيأة لتحمل الأخطار والتى حسب

اقتراح بريجز مكنت من الانطلاق السلس من التجارة للصناعة (27 : 1960)؛ إلا أن هذا "الانطلاق" الذى حدث فى سياق كانت إنجلترا لا تزال دولة زراعية، ولا يزال التجار يقومون فيها بدورٍ مُهِم ويرى بريجز – مثلا– أنه فى حين أن ظهور نظام الائتمان مع إنشاء سكة حديد منظمة وشبكة قناة، سهلت عمليات التصنيع؛ فإن هذه التطورات ذات أهمية فى تحسين العمليات الزراعية. وكما اقترح كول Cole، ديان Dean (1962)، وأنه فى نهاية القرن الثامن عشر كان أكثر من ثلث القوى العاملة تكسب قوتها من الزراعة؛ ومن ثم فإن أى فهم للنمو الصناعى الوطنى يجب أن يأخذ هذا القطاع فى الاعتبار.

هذه الخصوصية للزراعة البريطانية – مع كفاءة إنتاجها التى أدت إلى ارتفاع الإنتاجية وتمكن العمالة من ممارسة أنشطة أخرى – قد اعتبرها العديد من المؤرخين أساسية للتحول من اقتصاد قائم على الزراعة – فى الغالب– إلى اقتصاد صناعى (انظر1999 Landes، O' Brien 1977). ومن كونه عقبة أمام النمو الصناعى فى التاريخ القديم للثورة الصناعية، يرى أوبرين O'Brien؛ أن مسائل الزراعة والتطور الاقتصادى تعد متشابكة على نحو متزايد. واقترح أن عملية التغير التنظيمى الطويلة التى استبعدت غالبية سكان الريف من الحصول على الدخل من الأرض أو الوصول إليه – تعرف بأنها **"سياج"** فصل أنماط الزراعة البريطانية عن تلك الموجودة فى باقى القارة ، وعلى حد قول أريك جونز Eric Jones **"أصبحت العمالة الريفية عمالة بأجور"** (O'Brien 1977:180). هذه العملية اعتبرها العلماء الماركسيون، من أمثال: روبرت برينر Robert Brenner (1976,1977) جزءًا لا يتجزأ من أى تفسير لظهور النمط الرأسمالى للإنتاج الصناعي. ويرى على وجه الخصوص، النمو الاقتصادى داخل إنجلترا "اعتمد على علاقة تكافلية فريدة فى الريف...

أتاحت لإنجلترا أن تصبح أول أمة تشهد التصنيع (68 : 1976) والعلاقة بين التصنيع والرأسمالية سنناقشها تفصيليًا في موضع لاحق من هذا الفصل.

ساهمت التنمية المستدامة للعمليات المذكورة أعلاه في إحداث تغييرات في توزيع السكان في جميع أنحاء البلاد؛ ودعمت نمو المدن الصناعية، والموانئ والمدن مما أدى إلى تحضر وتعمير من ذي قبل. هذا التحول المطرد في السكان من المناطق الريفية والزراعية إلى المراكز الحضرية المتطورة صاحبهُ اجتذاب النساء والأطفال إلى قوة العمل المجزية من المهن السابقة التي كانت عامة بدون أجر، والمهن داخل المنازل والاقتصاد الزراعي، وحسب رأى دى فريس (1994)؛ فإن تكثيف العمل لكل أعضاء الأسرة فكك روابط القرابة الصارمة وفتح الوحدة العائلية أمام **"الغرباء"**. كذلك؛ فإن ارتباط ذلك بانخفاض وقت الفراغ – في رأيه– جعل الاكتفاء الذاتي أقل احتمالا – على سبيل المثال – اقترح– أنه مع دخول النساء سوق العمل بأجر كان هناك انخفاض لسلع منتجة منزليًا تزودها النساء واستبدالها بسلع منتجة تجاريًا (262 : 1994). وكانت القوة الشرائية للنساء ينجم عنها – كما اقترح هارتويل– بدء **"الثورة الاجتماعية في مكانة النساء"** (1971: 96). ومع ذلك فإن امتداد ذلك لهو أمر مثير للجدل جدًا خاصة مع نموذج الاقتصاد العائلي الذي فيه يعمل جميع أفراد الأسرة ليحققوا بالذكر المعيل، ثم يعودوا للمنزل ما إن تنتعش الأسرة اقتصاديًا (Assassi 2007، de Vries 1994، Bythell 1993) .

إضافة إلى حركة السكان والهجرة؛ فإن عصر الثورة الصناعية ارتبط كذلك بزيادة في عدد السكان. ورغم صعوبة الحصول على بيانات دقيقة

حول هذه المسألة، أو القدرة على التأكد بثقة من مدى نمو المدن بسبب "الزيادة الطبيعية" مقابل حركة السكان. اقترح ديان Dean وكول Cole (1962) أنه فى القرن الثامن عشر: إن معدل زيادة السكان الطبيعي فى مناطق مختلفة داخل إنجلترا ارتبط ارتباطًا وثيقًا بارتفاع تطورهم الاقتصادي. وتحديدًا؛ فقد اقترح جولدستون Goldstone أنه كان تغيرًا فى ظروف العمالة – من التوظيف الذاتى إلى الاعتماد على توظيف بأجر– فى سياق اقتصاد تصنيعى وفر فرص عمل منتظمة على نحو متزايد للعمال بأجور فى مجالى الصناعة والزراعة؛ مما أتاح تكوين أسر ومن ثم زيادة نسبة الخصوبة (29 :1986).

هذه التغيرات الديموجرافية مع زيادة عدد المهن والتخصصات تتطلب وجود مهارات جديدة ومختلفة، يعتقد أنه كان لها آثار اجتماعية مهمة. واتسمت العضوية داخل الجماعات بأنها أكثر مرونة مع ضعف الحراك الاجتماعى والفيزيقى لروابط القرابة وتغيير أنماط العلاقات والأبنية الاجتماعية، وكذلك الأدوار (انظر de Vries 1994، Kumar 1978)، وأصبحت "**الغوغاء**" قبل الثورة الصناعية "**جماهير**" صناعية، وفيما بعد أصبحت طبقة البروليتاريا، مع انهيار المجتمع المحلي، وفكرة الجماهير الصناعية – كما يجادل كومار Kumar– هذه أحد أهم الخصائص المتفق عليها للمجتمع الصناعى الناشئ (9-78 :1978).[٤] والفكرة المقبولة قبولا عامًا أن فقد المجتمع المحلي، يتطلب تفسيرًا وحلا. وقد أدى ذلك لتطور العديد من نظريات الاغتراب والأنومى التى لا تزال رائجة. ونقطة الالتقاء لهذه النظريات المختلفة هى أن جميعها يستند إلى الاعتقاد بأن التحول إلى المجتمع الصناعى كان اللحظة الحاسمة للتغير. وكانت نقطة تحول النظام الاقتصادى التى عندها حدث فقد للمجتمع المحلي، وظهر مكانه المجتمع الجماهيري.

لم يكن ينظر إلى المجتمع الناشئ بالضرورة نظرة سلبية – ومع ذلك– كما فعل دوركايم ([1893] 1964) عن تقسيم العمل ودلائل التضامن الآلى والعضوي. ويرى دوركايم: أن تقسيم العمل داخل المجتمع الصناعى يعد مصدرًا للتضامن الاجتماعى فى الصور الناشئة للتنظيم الاجتماعى رغم أنه اعترف أنه يمكن أحيانًا وبخاصة فى لحظات التحول، أن تظهر صورة مرضية تؤدى إلى حالة من اللامعيارية (368 – 353 :[1893] 1964). ومع اتساع السوق والتصنيع حسب إيقاع الظروف الجديدة للمجتمع الصناعى يتطلب تطوير أشكال جديدة للتنظيم الاجتماعي. وكما ذكر دوركايم، هذه التغيرات تمت بسرعة فائقة، والاهتمام بالصراع لم يُتح له الوقت لإعادة التوازن (370 :[1893] 1964). وهكذا، اقترح دوركايم أنه لا ينتج عن تقسيم العمل ذاته حالة اللامعيارية المرتبطة بالمجتمع الصناعي؛ ولكن الفشل فى إقامة العلاقات الاجتماعية الضرورية لتنظيمه هى التى تؤدى لذلك.

هذا التركيز على الاقتصاد السياسى التنظيمى (ما سماه دوركايم الأخلاقي) يجعل التركيز فى نظريات المجتمع الصناعى أحد الارتباطات والتقسيمات الداخلية، رغم حقيقة أن "**النزعة التوسعية**" للثورة الصناعية كانت ملحوظة أيضًا. وأصبح مفهوم تقسيم العمل داخل التحليلات السوسيولوجية للمجتمع الصناعى إحدى الخصائص التى خلالها يمكن فهم المجتمع الحديث مع فكرة الطبقة. والتركيز على البناء الاجتماعى عالج تنظيم الحياة الاجتماعية فى ضوء المؤسسات الوطنية والعلاقات الاجتماعية وأنشأ فكرة المجتمع على أنه كل منظم مستقل. وأصبحت الخصائص البنائية للمجتمع الصناعى الأكثر أهمية، هى أن أصبح النظر إلى العامل كفئة اجتماعية جزءًا لا يتجزأ من تأويلات لاحقة لخطاب الحداثة؛ حيث إن المجتمع الحديث كان صناعيًا والمشكلات الحديثة كانت تلك الناتجة عن المجتمع الصناعى، ومن ثم يمكن حلها من خلال حل مشكلة العمالة.

بالطبع؛ فإن جوانب هذا البحث محل نزاع داخل أشكال أخرى من الفهم السوسيولوجي - مثل التفسيرات الماركسية، التي تشير إلى أنه حيثما يوجد تقسيم العمل، يكون هناك دائمًا صراع غير قابل للحل (أو تناقض) بين مصالح جماعات مختلفة. وأدى تطور الإنتاج الصناعي إلى ظهور طبقتين أساسيتين ذات مصالح لا يمكن التوفيق بينها - البرجوازية والبروليتاريا- ومع ذلك؛ فهي جزء لا يتجزأ من تزايد حجم الإنتاج الرأسمالي مما يجعل هوية العمال تتحدد من خلال الزي وفقًا لماركس، "**كطبقة عالمية**" (778 :[1867]1976) . ويمكن اعتبار ذلك إلى حد كبير تغيرات راديكالية نحو أوصاف نموذجية تاريخية وسوسيولوجية أكثر للمجتمع الصناعي، وهي تحتفظ بتلك الجوانب محل النقاش الآن، وأي تمثيل التاريخ في ضوء تطور تسلسلي لأنماط الإنتاج وعمليات داخلية المنشأ للتغير الاجتماعي داخل كل نمط. وهي تعزز هذه الخصائص عن طريق تحديد عامل واحد في التطور التاريخي عبر وسائل الإنتاج، أي الصراع بين الطبقات بصورته الرأسمالية كونه صراعًا نهائيًا للإنتاج مما يسفر في النهاية عن مجتمع لا طبقي.

وقد ساهمت الصناعة، والتحضر، وظهور المدن الحديثة، والطبقة الاجتماعية جميعها في فكرة أن نوعًا جديدًا راديكاليا للمجتمع كان جاري توحيده، نوعًا مستندًا إلى مبادئ التنظيم الاجتماعي. أنتج ذلك أشكالا جديدة من العلاقات الاجتماعية وكذلك المؤسسات والممارسات الاجتماعية الجديدة التي كانت تتطلب في ذلك الوقت نمطًا جديدًا من الفهم . ولم يُفْهم الحاضر فقط على أنه صناعي، بل المستقبل أيضًا، وأصبح يُتَعَّرف على المجتمع الصناعي بأنه نمط متميز من المجتمع الحديث (Kumar 1978 :55) كما أنه من الممكن أن يتيح لنا علامة مميزة يمكن من خلالها التمييز بين المجتمعات التي في مرحلة التصنيع، وتلك المجتمعات التي لم تدخل هذه المرحلة بعد.

(٣)

مع الأهمية الواضحة للتصنيع، كمحرك للتغير الاجتماعى السريع، أصبح من السهل لعدد من الفروق داخل تاريخ الفكر الاجتماعى أن تدمج – على سبيل المثال– فى كتاب حديث يتناول أفكار السوق فى الفكر الأوروبى الحديث، ينتقل مولر Muller (2002) من مناقشة المجتمع التجارى لدى سميث Smith، وبيرك Burke للمجتمع المدنى لدى هيجل إلى الرأسمالية لدى ماركس؛ مما يشير إلى أن المصطلحات المختلفة هى مرادفات بسيطة. هذا الفشل فى التعرف على الفروق التاريخية والنظرية بين كل شكل، وبخاصة استخدام فئة خدمات المجتمع المدنى التى تفيد فى إرساء سياق وطنى أولى قد حان الوقت لأن تؤخذ فى الاعتبار. فى هذا الجزء سندرس التحول التاريخى من المجتمع التجارى إلى الصناعى الرأسمالى والآثار المترتبة على الحركة النظرية بعيدًا عن النظرية القديمة لمراحل التاريخ، والتى وضعت المجتمع التجارى من ذروته الأخلاقية؛ إلى التقسيمات الثنائية العاملة داخل مراحل مختلفة. وقد أنتج ذلك فرقًا بين التقليد والحداثة؛ حيث الحداثة تمثل بواسطة التحول إلى المجتمع الرأسمالى الصناعي؛ وحيث لا يكون متاحًا وجود الأشكال المختلفة.

وكما رأينا ربط المنظرون الاجتماعيون الأوائل الحداثة بظهور المجتمع التجاري؛ رغم أنه لم يكن من الواضح كيف يمكن للعلاقات التجارية أن تمايز بين خبرة شيء جديد عما هو موجود من قبل داخل إمبراطورية تجارية على نطاق واسع (انظر Polany et al 1957). وبقدر إمكانية التعرف على هذا المجتمع التجارى بوصفه القمة الأخلاقية لنظرية المراحل للتاريخ، فُهِمَ على أنه الشكل الأقدم بين الأشكال الأخرى ولا يعد مسئولا أو متضمنًا فى تحولها. وكما

اقترح هيلبرونر Helibroner (1973) بالنسبة لسميث؛ فإن كل مجتمع يمر بظروف مواتية، ولابد أن يمر من خلال مراحل أربع بالترتيب المذكور. وما يجعل ذلك متوقعًا أنها ستتطور نحو مجتمع تجاري، وكان الباعث الإنسانى نحو تحسين أسباب تطوره على هذا النحو هو تخفيف حدة الفقر والبؤس وإنتاج حرية حقيقية كانت ممكنة فقط فى المجتمع التجارى (Helibroner1973:245). ويعد الطريق إلى ثروة الأمة الآن هو التجارة – وليس الغزو– لأن المعتقد أن الأمة يمكن أن تزيد ثروتها بالانغماس فى تجارة مفيدة تبادليًا. إذًا فإن فى دراسة سميث، يفهم التطور فى ضوء حتمية أخلاقية، رغم أنه يمحو من سماته علاقات الهيمنة الاستعمارية وتجارة الرق. وفى كتابه ثروة الأمم – على سبيل المثال– يرى سميث أنه ليس من المهم إقامة المستعمرات؛ بل منع تفاعلها مع المستعمرات الأخرى. "**والأمة التى تجد مستعمرة فى أرض غير محتلة، أو فى أراضٍ محتلة بواسطة المتوحشين فقط؛ تجعلها خاضعة لأغراض خيرية والتى أرسلتها إليها العناية الإلهية، وتمتد الإمبريالية الحضارية لأجل غير مسمى**" (1863 [1776]: 601)(*).

إن التعرف على الخصائص الفريدة للمجتمع التجارى كان يستهدف أكثر تشجيع الحكم الرشيد؛ وليس للتعرف على "**بروميثيوس(*) غير مقيد**" حسب تعبير لاندس Lands (1969)، أى خاصية فطرية داخلية، والتى من خلال انتشارها للخارج ستتسبب فى ظهور أشكال أخرى من المجتمع. ومع تطور التصنيع؛ فإن التمييز بين التجارة الحديثة والأشكال التجارية الأقدم أصبح أسهل، وفى الوقت نفسه – زود المجتمع التجارى "**بمبدأ**" يضمن هيمنتها. ونُظِرَ إلى مبدأ أو منطق التحول على أنه التطور التكنولوجى من

(*) بروميثيوس هو أحد الجبابرة فى الميثولوجيا الإغريقية، وهو يجسد فكرة العلاقة بين البشر وآلهتهم. ويمكن أن يترجم إلى العربية بالعارف قبل المعرفة والعالم قبل العلم (المترجمة) .

خلال منافسة السوق الصراع الطبقي. وبهذه الطريقة أتاح المجتمع التجارى "تلغائية" الطريق لتطور الرأسمالية الصناعية ونظرية التحديث.

وترى إلن ميكسينز وود Ellen Meiksins Wood (2002) أنه بقدر ما تُفهم الرأسمالية على أنها أرقى مرحلة لتطور المجتمع التجارى أو نسخة خاصة للمجتمع التجاري؛ فإن الحتمية وهى خاصية الرأسمالية (أى علاقات ملكية اجتماعية محددة وأساليب الاستغلال) تذهب دون الاعتراف بها أو فهمها. فى المقابل، وبالاستناد إلى دراسة أقدم لروبرت برينر Robert Brenner، رأت أن الرأسمالية أو السوق الرأسمالي، قد فُهِمت كشكل اجتماعى متميز ناشئ عن ظروف تاريخية خاصة بإنجلترا فى القرن السادس عشر. ويستند تمايز هذه الظروف إلى طبيعة الدولة الإنجليزية التى كانت مركزية سياسيًا وماديًا، وكان لديها شبكة كبيرة من الطرق ونقل المياه التى وحدت الدولة بدرجة غير عادية فى هذه الفترة (Wood 2002:99) وكذلك نظام حيازة الأرض، أو علاقات ملكية، شهدت عمل "**المزارعين المستأجرين**" فى الأرض مقابل الفلاحين الملاك. هذا النظام من علاقات الملكية، بوجه خاص، الذى ذكر وود أنه كان مهمًا فى انحطاط طبقة المزارعين الإنجليز، واستقطاب المجتمع الريفى ضمن ملاك الأراضى والجماهير منزوعة الملكية، وظهور ثلاثية شهيرة من: ملاك الأراضي؛ المستأجر الرأسمالي؛ والعاملين بأجور (2002:103). ويرى أن المجموعة الأخيرة تساهم فى ظهور سوق محلية ليس لها سابقة تاريخية، والتى توفر سياقًا تظهر فيه الرأسمالية الصناعية، وتتطور ثم تنتشر عالميًا(٦).

إن الجدل المثار حول شكل الرأسمالية خاصة بإنجلترا يجعل من الرأسمالية الصناعية على نطاق دولى غير متنازع عليها – حسب نظرية إيمانويل والرشتاين (1974,1980)– وتقدم نظرية النسق العالمى تفسيرًا

ماركسيًا بديلا لتطورها، والنموذج التجارى المرتبط بوالرشتاين مستند إلى الرأى القائل: إن الرأسمالية الصناعية الحديثة ظهرت من التقدم التكنولوجى واتساع الأسواق، وكلاهما كان من ملامح المجتمع التجارى سابقًا داخل أوروبا الغربية. ببساطة؛ فإن تركيز والرشتاين يكون أقل على علاقات منتجة داخليًا بالدول، وأكثر على شبكة العلاقات التجارية بينها. ورأيه يستند إلى مناقشة العلاقة بين أبنية الدول وعلاقات التبادل، وموقف المَلاك والمنتجين داخل الاقتصاد العالمى الرأسمالى الأوروبي. فى هذا النموذج – إذن– عرض والرشتاين (1974) منظورًا دوليًا لظهور الرأسمالية؛ رغم أنها تتبع جذور المرحلة الانتقالية من الإقطاعية إلى الرأسمالية إلى توسيع العلاقات التجارية فى بلدان أوروبا الغربية.

والمرحلة الانتقالية التى يشير إليها والرشتاين تغطى ثلاث ظواهر رئيسية: التحول المبدئى لأوروبا الإقطاعية إلى "**اقتصاد عالمى رأسمالي**"، والمؤسسات الناتجة للنظم غير الرأسمالية الخارجية إلى اقتصاد عالمى رأسمالى متوسع بالضرورة المستمرة وطبقة بروليتاريا عمالية ونزعة تجارية للأرض داخل الاقتصاد الرأسمالى العالمى (2:141 :1997). ورغم الاختلافات فى التركيز والتفسير أتاحت للجوانب المختلفة "**للتحول**" والفردية الممتدة للعملية الموصوفة – التوسع نحو الخارج كنواة أولية لما يطلق عليه أوربية – ومن المتفق عليه فى كلا الوصفين للتصنيع وكذلك الأوصاف الماركسية المختلفة. يرى وود – على سبيل المثال– أن التحدى الفعال للإهمال المتمركز على أوروبا للإمبريالية الغربية يحتاج دراسة "**الظروف الخاصة التى فيها الصور التقليدية للاستعمار تحولت إلى أنماط رأسمالية للظروف الإمبريالية، والتى حسب رأيها، لها أساسها فى أشكال معينة من علاقات الملكية الاجتماعية الرأسمالية**" (2002:33). ومع ذلك، وبالقول:

إن التحول فى علاقات الملكية الاجتماعية يمكن أن يفسر الثورة الدرامية فى القوي: المنتجة، وهى خاصة فريدة للرأسمالية الحديثة (2002:144)، وقد حددت تغير الأنماط الرأسمالية للإمبريالية خارج العلاقات التى شكلت الإمبريالية، واستمرت فى تقديم وصف محلى لظاهرة عالمية. وهو وصف ينظر للرأسمالية على أنها تظهر فى الغرب وفى إنجلترا تحديدًا، ثم تنتقل إلى باقى مناطق العالم. إن هذه الفكرة - إذًا- هى أن الرأسمالية الصناعية كانت شيئًا ظهر فى أوروبا الغربية، ثم انتشرت للخارج، وهو ما سنناقشه فى هذا الكتاب.

(٤)

أشار سدنى بولارد Sidney Pollard إلى أن الثورة الصناعية لا يجب اعتبارها مجرد تكرار للنموذج البريطانى عبر أوروبا؛ لكن بالأحرى هى عملية تشتمل تعديلا مستمرًا وتكيفًا للفرص على نطاق القارة (1973:644). ويواصل بولارد فيحدد الفرق بين التصنيع فى أوروبا وفى سائر المناطق القول: إن "**فيما يجاور أوروبا كان هناك حد فاصل بين المجتمعات التى على اتصال مع التصنيع الجديد وقادرة على تقليده، وأصبحت جزءًا منه، والمناطق التى تحولت بعيدًا عنه على الأقل لفترة طويلة، والتى أصبحت متخصصة**" (644 :1973). ورغم أن إيقاع التصنيع اختلف فى الاقتصاديات الاستعمارية بين بلدان أوروبا بما فيها إنجلترا أو بريطانيا بشكل مبدئي، يرى جول Joll أنها كانت خبرة مشتركة...... (ساهمت) أكثر من أى شيء آخر فى تضييق الصلة بين البلدان الأوروبية (13 :1980)[٧].

هذا السرد للتصنيع مع فكرة "**الفاعل الرئيسي**" والمقلدين أو "**الأتباع**" من الدول لم يكن معتادًا كما، هناك كذلك التسلسل الهرمى الذى يميز بين هؤلاء المقلدين داخل أوروبا الذين استوعبوا بشكل سريع السرد المهيمن، وأولئك الذين خارج أوروبا اعتبروا مختلفين بشكل مؤكد. وكما يتضح فى هذا التفسير؛ فإن الثورة الصناعية البريطانية تعتبر مكملة للتطورات الحادثة فى أماكن أخرى بأوروبا سرعان ما تحول ما كان داخل أوروبا إلى فكرة الارتباط الداخلي. كإن الأمر كذلك سواءً كان رد الفعل هو عدم التصنيع فى مواجهة توسع الصناعة البريطانية إلى أوروبا – مثلا- انحطاط صناعات النسيج والمعادن فى أستراليا وأجزاء من ألمانيا – أو تحفيز الصناعات المكملة للصناعات البريطانية – كما فى بلجيكا. (انظر Pollard 1973). وكما كتب بولارد فليس هناك معنى لمحاولة فهم تاريخ الثورة الصناعية داخل أى منطقة فى بريطانيا بمعزل عن التطورات فى مناطق أخرى – لأن إحدى المميزات المهمة للثورة الصناعية فى بريطانيا كانت علاقاتها الداخلية الإقليمية المعقدة (1973: 6381) وهو ما كان فى القارة أيضًا حسب رأيه.

فى الواقع، كما سنرى فى هذا الجزء؛ فإن محاولة إيجاد أدلة على أهمية أوروبية خاصة، مع كون بريطانيا قامت بدور الرائد والمؤسس، يرى بوميرانز Pomeranz (2000) – على سبيل المثال- أن هناك القليل من الدلائل تشير إلى أنه كان هناك تصنيع فى أوروبا الغربية قبل القرن الثامن عشر، يميز أى اختلاف لتلك الاقتصاديات غير الأوربية، فهناك عمليات مشابهة للنزعة التجارية، وهو ما أسماها العمليات المشجعة للتصنيع، التى كانت جارية فى مراكز رئيسية أخرى خارج أوروبا.

تعتبر هذه العمليات خارج أوروبا عجزًا (ثقافيًا) عن التقليد، ولا يفهم أنها داخلية الارتباط، حتى عند وجود إجراءات فعالة لتقويض الصناعات المحلية

فى أماكن أخرى وإعاقة تنافسها مع التصنيع الأوروبي. وعُلق إنتاج بريطانيا للأنسجة القطنية غالبًا على أنه مثال رائد لنجاح نمط المصنع فى الإنتاج. مع ذلك؛ فما كان مفقودًا فى هذه الرواية هو التدمير المتزامن لصناعة الأنسجة القطنية فى الهند (وفى غيرها)، والتى فتحت أسواق الهند لصادرات السلع البريطانية. ويرى موريس Morris (1963) – على سبيل المثال– وهو المنظر الرئيسى ضد **"الابتعاد عن التصنيع"** فى الهند: أن فشل صناعة النسيج الهندية كان له علاقة أقل "بممارسات الاستعمار البريطاني" مقارنة بالعوامل الداخلية بما فيها عدم إمكانية التنبؤ بأنماط الطقس الموسمي.

ورغم الاعتراف أنه قبل الحرب العالمية الأولى كان لدى الهند أحد أكبر خمس صناعات للنسيج القطنى فى العالم، وإحدى أكبر صناعتين للجوت، وثالث أكبر شبكة سكة حديد، وصناعة كبيرة لتعدين الفحم (1963: 614-15) ولا يزال موريس يفترض أن الهند فى القرن الثامن عشر **"كان مجتمعًا ليس لديه أى من الشروط المسبقة الأساسية للثورة الصناعية"**. وواصل القول: إن التطورات التى أحرزت فى الهند كانت جميعها نتيجة للتدخلات والجهود المبذولة للحكم البريطاني، أى إدخال بيئة حديثة مستقرة سياسيًا (1963:616). لكن الفشل فى التصنيع بصورة كاملة لم يكن له علاقة بالسياسات الاستعمارية عُزِى إلى سياق اقتصادى دولى عام، أى عدم إمكانية التنبؤ بالطقس وزيادة السكان.

وفى حين كان هناك جدل مستمر بشأن مدى مساهمة بريطانيا أو عدم مساهمتها فى **"الابتعاد عن التصنيع"** فى هذا القطاع فى الهند (انظر Morris 1963, Habib 1980, Simmons1985, Harnety 1991). والمهم: أن الدراسات حول هذا الموضوع نادرًا ما كانت تعالج نجاح التصنيع فى بريطانيا، ونادرًا ما نوقش أثر الابتعاد عن التصنيع فى الهند على نجاح

الصناعة البريطانية، باعتبار أن هذه النجاحات مستمرة بشكل طبيعي[٨]. في هذه المناقشات يرى ديفيد وشبروك David Washbrook أن ميكنة صناعات النسيج في بريطانيا يجب فهمها كجزء من تاريخ "عالمي" أطول من الصناعة نفسها (417 :1997).

أُدخل القطن – في رأى وشبروك– إلى بريطانيا للمرة الأولى من الهند، وكذلك معرفة كيفية التصميم والنسيج والصباغة. ولفهم الميكنة في ضوء التطور من نظم الإنتاج المحلية البريطانية دون التعرف على سياق علاقاته مع الأجزاء الأخرى من العالم يشوه تاريخه. وتبادل الأفكار والسلع، الذى أبرزناه فى الفصل السابق حول النهضة، مفقود إلى حد كبير من الروايات الغربية السائدة عن ظهور التصنيع. وكما ذكر بانيكار Pannikar، فى عصر الهيمنة السياسية لآسيا بواسطة أوروبا من ١٨٦٠–١٩٤٨، نسى الكتاب الأوروبيون بصفة عامة أن آسيا لم تستعر فقط من أوروبا؛ بل ساهمت بحرية فى نمو ما (عُد) حضارة غربية (301 :1959). يمكن القول: إن العالم خارج أوروبا أسْهَم أيضًا إلى حد كبير من الناحية المادية فى النمو التجارى الذى شجع التنمية الغربية. ويرجع هذا إلى حد كبير إلى استغلال الموارد فى الدول الأخرى وتنظيم العمالة من العبيد، والتجارة التى بمقتضاها سيطر الأوروبيون على تجارة من تعاملوا معهم على سبيل المثال: تجارة الفراء من الجونكنز (انظر [1982] Wolf 1997) .

وقد وفرت التجارة الثلاثية حسب وصف إريك وليامز Eric Williams (1994, 1944) الكلاسيكى بين بريطانيا وفرنسا وإفريقيا وأمريكا الاستعمارية تيارًا مهمًا لتراكم رأس المال الذى ساهم فى تمويل الثورة الصناعية (انظر أيضًا Solow 1987, Inikori 1987) . فهو يرى أن سفن العبيد التى كانت تبحر من وطنها مع بضائع مصنعة، يتم التبادل المربح على ساحل إفريقيا للزنوج، وللعبيد نظير السلع من الدول المستعمرة ليعودوا بهم للوطن

(51-2 :[1944] 1994). بهذه الطريقة؛ فإن التجارة الثلاثية وفرت حافزًا ثلاثيًا للصناعة البريطانية (وكذلك الفرنسية). ويرى جيمس James أيضًا أنـــه فـــى القرن الثامن عشر؛ فإن كل الصناعات تقريبًا التى تطورت فى فرنسا "**كان لها جذورها فى السلع أو البضائع المقرر إرسالها إمـــا إلـــى ســـاحل غينيـــا أو لأمريكا**"، وحتى لو تاجرت البرجوازية الفرنسية فى سلع أخرى؛ فإن نجاحهـــا أو فشلها يعتمد على تجارة العبيد (1938,1989). علاوة علـــى ذلـــك، ســـان دومينغو وهى مستعمرة فرنسية، أنتجت فى نهاية القرن الـــثامن عشر حوالى ٤٠%.من السكر فى العالم وأكثر من نصف البن (Geggus1981) وكانت أكبر سوق أجنبية لصادرات السلع الفرنسية؛ ومن ثـــم كانـــت حيويـــة للاقتـــصاد الفرنسي. وكانت الثروة المتولدة بواسطة العبيد ومزارع قصب السكر فى الهند الغربية تعود ثانية لبريطانيا، وكانت تستهلك السلع التى تنتجها فى بريطانيـــا، والمنتجات المصنعة من قبل بريطانيا... كانت تستهلك بواسطة العبيـــد الـــذين كانوا أنفسهم مستهلكين من أجل تكوين الثروة (Mintz 1986: 43).

وكما لاحظ بلاكبيرن Blackburn (1997)؛ فإن مستعمرات إنتاج السكر ساهمت فى زيادة جوهرية فى الثروة القومية بطرق ثلاث رئيسية: الأربـــاح الناتجة داخليًا لهذه التجارة، وتوسع الأسواق الخارجية للسلع البريطانية، ومن خلال توفير مواد غذائية أرخص، أساسها السكر[٩].

وحسب رأى باربارا سولو Barbara Solow (1987)، لا يشير ذلك إلى أن تجارة العبيد "سبب" الثورة الصناعية أو كانت العامل الوحيد فى ظهورها أو أنه دون تجارة الرقيق لم تحدث الثورة الصناعية، لكنها تشير إلى أهميـــة فهم تجارة العبيد الاستعمارية على أنها مكملة للتطور الناتج لعمليات التصنيع فعلى سبيل المثال: فى حين يرى ريتشاردسون Richaradson أن العلاقة بين تجارة العبيد والزراعة بالمزارع الكبيرة، والصناعة البريطانية أكثر تعقيـــدًا مما يشير إليه وليامز Williams وآخرون، يعترف أنه مـــع نهايـــة القـــرن

الـثامن عشر كان هناك ارتفاع جـوهرى فـى مـستوى تجـارة الرقيـق البريطـاني، وإنتاج السكر من المستعمرات من ناحية، وتسارع ملحوظ لمعدل نمو الإنتاج الصناعى البريطانى من ناحية أخـرى (1987:741) – بالمثـل– فإن إلتيس Eltis وإنجرمان Engerman (2000) شككا فى الأهميـة الـسببية التى تنسب لتجارة الرقيق، وفى الوقت نفسه قبل التعقيدات الاقتصادية طويلة الأجل لعمليات التصنيع. واستمروا فى القول بأهميـة الاعتـراف بالآثـار الأخلاقية لتجارة العبيد فى تطور الفكـرة الأوروبيـة عـن الحريـة، وأن البريطانيين يستطيعون فقط وصف مؤسساتهم الاجتماعية والسياسية على أنها "حرة" عن طريق تجنب "**حقيقة ما كان يحدث فى منطقة بحر الكاريبى على خلاف ما كان يحدث داخليًا**" (141 :2000)[١٠].

(٥)

وكما كتب جاك جودى Jack Goody (2004) وناقشناه أعـلاه؛ هنـاك القليل من الإجماع العام بين المؤرخين والعلماء الاجتماعيين بـشأن قـضايا التحديث والتصنيع والرأسمالية والقضية التى يبدو عليها اتفاق هى المساهمة المركزية لأوروبا فى ظهور وتطور هـذه العمليـات وانتـشارها اللاحـق خارجيًا. إن هذا الرأى الخاص بانتشار المركزية الأوروبية، أى الاعتقاد أن أوروبا تطورت خارجيًا، وتحدثت فى حين كان بقية العالم يـصارع للحـاق بها. يرى جيمس بالوت James Balut (1993) فى كتاب النمـوذج العـالمى للمستعمر أنه فى حين من المعتقد عادة "**أن التحديث الاقتصادى والاجتماعى لأوروبا جوهرى نتيجة للخصائص الداخلية لأوروبا**"؛ فإن ما لم يؤخذ فـى الاعتبار هو التأثر الشاسع، والعلاقات الداخلية لهذه المناطق على التطورات الحادثة داخل الحدود الجغرافية لأوروبا (2-1993). هـذا التفـسير، مـثلا،

لا يأخذ فى الاعتبار تدفق الثروة من المستعمرات التى ساهمت إلى حد كبير فى "الانطلاقة" المبدئية للثورة الصناعية، والمساهمة الإجبارية للعبيد فى هذه العملية، ولا الطريقة التى قُضِيَ بها على التصنيع فى مناطق، مثل: إفريقيا، وأمريكا اللاتينية، والهند والتى أُفقرت عمدًا من أجل ضمان تفوق السوق للسلع البريطانية والأوروبية.

رفض منظرون، مثل: سمير أمين (1997)، وأندريه جوندر فرانك Andre Gunder Frank (1975,1998) فكرة أن الرأسمالية، لها تميز عن التصنيع، وكانت نتاج استثمار أوروبى بالأحداث. ويرى فرانك – مثلا– أن ظروف ظهور الهيمنة الغربية والتحول للرأسمالية فى أوروبا لا يمكن أن يتواجد داخل أوروبا وحدها؛ لكن فى العالم ككل (390 :1990). فى حين أن علماء، مثل: بالوت، وأمين، وفرانك، قد يختلفون حول نقاط تحليل معينة بشأن طرف فهم مجتمعات ما قبل الرأسمالية؛ فهناك اعتقاد شائع أن أى تحليل يجب أن يقوم على دراسة السياق العالمى الذى تظهر الرأسمالية داخله. وإذا كان النسق العالمى كذلك، إذًا لماذا يجب علينا أن نفترض أن أوروبا – وهى جزء من العالم– تشكل دون شك مشاكل مركز العالم؟ والتركيز على أوروبا، فى رأى بيرلين (1994) هى نتيجة قراءة خاطئة للتطورات التاريخية التى تفاقمت بسبب الإهمال واسع النطاق للكتابات عن آسيا وإفريقيا ما قبل الاستعمار (انظر Grovogui 1996). هذا هو جانب لمعظم التحليلات، التى يشتمل تساؤل بيرلين أدناه: وذلك أيضًا محل تساؤل هنا:

تقدر أهمية الميزان التجارى وميزان المدفوعات؛ فإن الأسئلة الجوهرية تبدو هى ما سبب وكيف كانت المعادن النفيسة تصديرًا من أوروبا، مع الاهتمام قليلا بمشكلة سبب وجود طلب ثابت بل متزايد عليها؛ مما يجتذب تحركها إلى المناطق الآسيوية (92:3 :1994).

وإذا درسنا نقطة العرض وتجاهلنا مسألة الطلب؛ فإن ذلك يؤدى إلى تركيز غير واجب على أنشطة الوعى الذاتى للمنتجين ويستبعد مجموعة كاملة من التشجيع التى تأخذنا لداخل هذه المناطق، والتى اعترف بها القليل من العلماء على أنها مساهمة فى التجارة العالمية (Perlin 1994: 94).

تضع نظرية والرشتاين (1974 ، 1980) عن النسق العالمى -- على سبيل المثال- جذورها فى أوروبا وتطورها فى اتساع الاقتصاد الأوروبي، والذى ضم بعد ذلك كثيرًا من مناطق العالم. وقبل القرن الثامن عشر - كما يثبت وشبروك Washbrook (1988)- كانت هناك شبكات إقليمية مختلفة ذات خصائص نسبها والرشتاين لأوروبا- مثل العلاقات بين المركز والأطراف- وبما فيها أوروبا إما أنها لم تشارك أو عضو هامشى (انظر أيضًا 1997 Subrahmanyam، Abu-Lughod 1989، Perlin 1983). ويرى وشبروك: ما إن ترتبط المراكز التجارية عبر المناطق بدوائر التجارة، وسنرى أن جنوب آسيا كانت قبلها الكثير من هذه الدوائر. وكانت مسئولة عن النصيب الأكبر من التجارة العالمية من أى منطقة مقارنة أخرى ذات ثقل اقتصادي، مثل المكسيك (60 :1988). إذا؛ فإن تفسير هيمنة أوروبا اللاحق الذى اعتمد على وصف داخلى لظهورها غير مناسب فى وجهة النظر الأوسع. والقضية ببساطة ليست قضية امتداد وسد الثغرات فى الأنماط الموجودة بالفعل على أساس دراسة التنمية الاقتصادية الأوروبية؛ لكن مع دراسة مجالات التفاعل الأخرى المعقدة بالمثل (Subrahmanyam 1997، Perlin1994، Habib1980، Amin1972). والعمل البحثى حول الشبكات التجارية التى جعلت المحيط الأطلنطى منطقة متميزة، وخليج البنغال، والمحيط الهندى الغربي، بحر إفريقي- كما تشير إلى الروابط بين هذه المناطق- وهو ما يصور التاريخ الطويل للعلاقات الداخلية المعقدة والمفاوضات بين الشعوب عبر البحر والبر

(de Silva 1985, Subrahmanyam 1988, Perlin 1994, Das Keita2002) Gupta 1999, Mann and Law 1999, والإشارة إلى الصلات الداخلية بين هذه المشاكل النائية، يكتب ألفاريز Alvares – على سبيل المثال– أن "**الحديد الذى كان يستخرج من شرق إفريقيا كان يُصهر فى جنوب غرب الهند ويُصنع فى بلاد فارس والجزيرة العربية، وتُستخدم فى نهاية المطاف كأسلحة ودروع من زرد الحديد**"، والقضية ليست فقط قضية شبكة مراكز تجارية ونقاط تجارة موجودة فى أماكنِ أخرى؛ بل أيضًا الحاجة للاعتراف بالتطورات فى نطاق الزراعة والتصنيع. ويشير بيرلين – مثلا– (1983) إلى نمو التصنيع الحضري، وزيادة إنتاج المزارعين فى الهند فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وتوجد هذه التطورات فى سياق عالمى أوسع، ومثله، يرى سوبرمانيام فى وصفه التاريخى لنمو الصناعة الريفية والزراعة التجارية فى منطقة كرشنا – جود فارى بالهند، والتى فى نهاية القرن السابع عشر كانت فى هذه المناطق "**اقتصاد مراكز الإنتاج**". تعززه شبكة تسويق؛ حيث الواردات، والصادرات والسلع مختلفة الإنتاج جميعها توجد فى مكان واحد (1990: 110).

والاحتفاظ بالاعتقاد فيما أسماه بالوت (1993) الانتشارية المركزية الأوروبية، أى الإيمان بفكرة أن العمليات الثقافية تتدفق من أوروبا للخارج أى لباقى مناطق العالم، وهى مشكلة لعدة أسباب: أولا– أنها تحدد إطارًا نظريًا لفهم يكمن فى جوهره فكرة: أن التطور فى الحضارة الأوروبية واتساع هذه الحضارة فى المساحة كانت أبعادًا مختلفة للقوة التاريخية نفسها (Blaut 1993:26). وتعتمد نظريات التحديث – كما ناقشناها فى الفصل السابق– على قبول النمو الأوروبى للتنمية باعتباره "أوروبيًا" وطبيعيًا تحديدًا، ولافتراضى ذلك لابد أن يكون المسار المستقبلى لجميع الدول غير الأوروبية.

وعدم رواج هذه الافتراضات، خاصة فى سياق إنهاء المستعمرات، أدى إلى ظهور مجموعة عامة من الأفكار سعت للبرهنة على الدور المحورى للعالم خارج أوروبا فى عمليات التصنيع والتحديث (Blaut 1993). وعرضت أبحاث الفترة ما بعد الاستعمارية النقطة النظرية التى تجعل الرأسمالية أساسية لفهم تجانس العالم مع التواريخ التى ظلت غير متجانسة داخله (Prakash 1997: 495).

ويؤسس الخطاب الذى ينظر إلى الرأسمالية باعتبارها عملية، تصبح بمرور الوقت عالمية، لاعتبار الفترة التاريخية مقياسًا للبعد الثقافى (على الأقل فى تطور المؤسسات)، التى يفترض وجودها بين الغرب وغير الغرب (Chakrabarty2000:7) وأضفى ذلك الشرعية على ثنائية الحضارة والبربرية وأتاح ظهور التاريخ الأممى لأوروبا باعتبارها موقع الحدث الأول. لقد كنا جميعًا نسير فى الاتجاه نفسه، وقدمت أوروبا النموذج الذى يجب أن يكون عليه باقى دول العالم. ويرى شاكرابرتى Charkrabarty أنه إذا درسنا الافتراضات المعرفية، التى تؤكد على استخدام ماركس لفئات، مثل: "**البرجوازية**" و"**قبل البرجوازية**" أو الرأسمالى وما قبل الرأسمالي؛ حينئذ ندرك أن "قبل" هنا ترمز لعلاقة ذات تسلسل زمنى ونظرى (1992: 1493).

يمكن من خلال الرأسمالية التى تعتبر فئة فلسفية شاملة معرفة التاريخ والمعرفة حول باقى مناطق العالم فى ضوء الاختلافات بينها. هذا السرد للتحول التاريخى إذًا يعتبر سردًا لتاريخ العالم الثالث حاليًا والذى كُتب فى نطاق هذا السرد - سواءً كان عن التطور والتصنيع والرأسمالية أو الحداثة.

وفى سياق تاريخي، يرى بيرلين (1994) رأيًا فى صالح مسألة التغير الاقتصادى فى جنوب آسيا (وفى مناطق أخرى) الذى يعتبر أنه يتضمن إطارًا وثيق الصلة يتجاوز الحدود السياسية والقارية، بدلا من ذلك يحدد موقع

التجار والمنتجين والمراكز التجارية، والصناعات التحويلية، والمواقع الزراعية عبر العالم باعتبارها جزءا من مجموعة عمليات مركبة، وكذلك التطورات والهياكل المتغيرة. وعلى وجه الخصوص؛ فإن رأيه ضد الفهم السائد لهذه العمليات، باعتبارها ناتجة عن تأثير وكلاء رأسماليين أجانب دخلوا المناطق غير الأوروبية، ويقترح بدلا من ذلك أن ندرس إعادة تركيب الطرق التى فيها "الرأسمالية المحلية تعرضت للتفكيك لصالح تزايد وجود المدن الأوروبية الكبيرة المتروبوليتانية" (83 ,1994:59). أتاح لنا ذلك إعادة التفكير فى بناء الحدود والنظام داخل العالم ما بعد الاستعمارى وللمراجعة.

الدور المهيمن للشركات الأوروبية فى تقويض أسس النشاط التجارى الآسيوى ومؤسساتها، وتدمير الهياكل التجارية داخل آسيا متعددة الأطراف لصالح زيادة التدفقات الثنائية وتقسيم العمل الدولى المتمركز فى المدن الكبرى فى غرب أوروبا ذاتها (Perlin 1994:59).

وتؤدى مقارنة التطورات "**الداخلية**" وتلك التى بدأت من "**الخارج**" إلى استدامة "**الفئات الأوروبية**" وفى هذه الحالة "**آسيا**" – وهو ما عالجناه فى الفصول السابقة– قد عملت للتفكك. ويجب فهم الفاعليين الأساسيين الأوروبيين والآسيويين باعتبارهم يعملون داخل مسرح عام للتطورات، والذى فيه أدت المشاركة الأوروبية المتزايدة إلى إحداث تغيرات فى توزيع سمات المصنع والتجارة فى جنوب آسيا (Perlin 1998: 86,7)، ويمكن أن نضيف أنماط وأشكال الصناعة والتجارة فى أوروبا. وذكر "**الآخريين**" وهو ما أغفلته الأبحاث التقليدية الخاصة بتنظير الرأسمالية، والتصنيع والحداثة، يجبرنا على إعادة دراسة التفهمات النظرية المطورة بناءً على تفسيرات تاريخية سابقة.

تشير المناقشة السابقة عن عمليات التصنيع - على سبيل المثال- إلى اقتصاد سياسي؛ ولكنه ليس اقتصادًا ليبراليًا أو شكلا ماركسيًا متغيرًا منها. إنه اقتصاد سياسى ذو نزعة استعمارية كمحور له؛ مع ذلك فإن هذا على وجه الدقة هو ما حذف فى كل من: الاقتصاد السياسى الليبرالي، والماركسي. وأى منطق للتصنيع يمكن عزله ثبت أنه موجود فى أماكن أخرى وفى عصور أخرى، ولذا لا يمكن اعتباره فريدًا أو سببيًا فى ذاته. المسألة ليست مسألة كفاية، مثلا التصنيع الهندي؛ ولكن الضغط الاستعمارى الممارس عليها من أجل الحصول على امتيازات ومصالح لبريطانيا. والجانب المفقود من تفسيرات مهيمنة، إذًا هو العلاقة بين التصنيع و القدرة على استخدام "**القوة**" سواء فى ضوء إقامة شكل من "**العمالة**" "**غير الحرة**" وكذلك توسيع نطاق السوق لسلع معينة. والنزعة الاستعمارية كانت جزءًا لا يتجزأ من كليهما.

وإذا جمعنا القضايا العديدة التى عالجناها فى فصول الجزء الثانى من هذا الكتاب؛ فإنى أرى أن الزعم بوجود هوية أوروبية حديثة تحديدًا أو حداثة أوروبية لم يعد قابلا للبقاء. والخطاب السائد لعصر النهضة، والذى يطرح باعتباره ساعة ميلاد أوروبا الحديثة يرفض بشدة حاليًا لأنه يُطرح الثورة الفرنسية والثورة الصناعية كل على حده، وكذلك الأحداث الأوروبية داخلية المنشأ ذات الأهمية التاريخية للعالم. كما أثبتنا كيف أن أفكار الحداثة تؤدى إلى "**حياد**" التاريخ من خلال مظاهر القوة والسيطرة، وكيف أنها راسخة الجذور فى القهر عن طريق التفكير فى العالم، وترجمته خلال فئات استعمارية أوروبية حديثة (Chakrabarty 1994: 87). وفى حين رأى شاكرابرتي: أنه يجب على العلماء "**محاولة كتابة الاختلافات فى تاريخ حداثتنا على نمط يقاوم استيعاب هذا التاريخ للصورة الذهنية السياسية للمؤسسات الأوروبية**" (1994:88). واقترح أن كتابة الاختلافات فى التاريخ ليس كافيًا. لا يكفى ذلك كى تكون نقدًا للحداثة، أو التعرف على عيوب الممارسات التنظيمية أو حتى على حد تعبير

تشاترجى Chatterjee كتابة تواريخ أخرى تناقش الصفة الفردية وتتيح مناقشة العلاقة بين الأجزاء والكل (1994:48). عند إعادة كتابة التاريخ فى لب التفاهمات المتعلقة بالحداثة، وتلك الخاصة بالتطور التاريخي، علينا أيضًا إعادة بناء فئات الفهم فى هذه العملية.

إن ظهور فكرة الحداثة باعتبارها فكرة حديثة يتطلب افتراض وجود فاصل زمنى بين ما قبل الحداثة وبين الحداثة – تعكس مكانيًا. وقد حدث ذلك مكانًا حين أصبحت المناطق الاستعمارية مكانا "**غير ملائم**"، وتاريخ الحداثة – كما رأينا إذًا– يستند إلى "**الكتابة من واقع العصر الاستعمارى وما بعد الاستعماري**" (Bhabah 194:243,246,250). علاوة على ذلك، مع تحديد زمن الحداثة عرضت نظرية معينة للاختلاف الثقافى "**جعلت الهيمنة الثقافية علامة على الحداثة**"، وبرهنت على وجود قيود متمركزة حول الإثنية للمفهوم (Bhabah 1994). وتحول الإطار الذى من خلاله يجبرنا النظر إلى إحداث "الحداثة" على دراسة مسألة الوكالة، ونتساءل أكثر، ما الحداثة "الآن"؟ من يعرف هذا الحاضر وهو ما نتحدث عنه؟ (Bhabha1994:244)(١١). والبحث فى عصر ما بعد الاستعمار، كان جزءًا لا يتجزأ من ممارسة الرفض والشك فى الافتراضات الضمنية للخطابات السائدة، قد وفرت أساسًا يمكن من خلاله أن نعالج "**سلسلة من المفاهيم السياسية التنظيمية، وقد تمت الكتابة فى أماكن أخرى عن الروايات المفترضة عن مالك الإنتاج**" (Spivak1990:225) ومهمتنا هنا – على حد قول سبيفاك Spivak– وهو ما سنناقشه بشكل أكثر تفصيلا فى الجزء الختامي، كانت على نحو أقل حول الكشف عن الأساس الفلسفى وليس استبدال أو مصادرة أدوات شفرات قيمة الترميز ذاتها (1990: 228)، ومن ثم قبول احتمالي، فى أوقات ما بعد الاستعمار، للتوازى المهم للقوة الاستعمارية والمعرفة من خلال منهجية "**التواريخ المترابطة**".

خاتمة

علم الاجتماع والنظرية الاجتماعية
فيما بعد الاستعمار– نحو تاريخ مترابط

يُعد الاهتمام الأساسي لهذا الكتاب هو علم الاجتماع وإحساسه بالماضي. وكما أوضحت: أن المقولات المفاهيمية لعلم الاجتماع، تعتمد على خصوصية الفهم التاريخي، وإن كانت قد قدمت على أنها ثابتة، أو عالمية، بشكل ملائم. ولقد برهنت على أن المقولات ليست عالمية؛ لكنها تجسد شكلا من التمركز حول النزعة الأوروبية. وقد أشرت إلى أن الاختلاف بين الخطاب عن المشروع الحديث والممارسات ومؤسسات المجتمع الحديث غير ملائمة لاهتمام العالم الذى نعيش فيه، والمشكلات التى نشترك فيها. وفى الواقع؛ فإن هذا الانفصال ليس فقط غير ملائم؛ ولكنه يساهم بفاعليه فى تخليد اللامساواة والظلم الذى يحتاج بشدة للبحث والحل. إن التمييز بين الخطاب والبناء الذى ينفذ إلى الفهم السوسيولوجى – كلاهما فى أشكاله المسيطرة وما بعد الحداثية – يسمح بتخليد المفاهيم غير الملائمة والتسليم بتعددية أشكال عدم الملائمة وتحويل الاهتمام بعيدًا عن مشكلة الكفاية ذاتها. ويمكن رؤية هذا بوضوح فى نطاق نظرية التحديث التى منحت طريقًا لنظرية الحداثات المتعددة، تباعا، وأضيف إليها بحداثات بديلة، وتعددية، ومعقدة. وأؤكد أن هذه الاختلافات على موضوع؛ حيث الموضوع دائمًا هو الأولوية الضرورية لأوروبا، أو الغرب، فى أى فهم للعالم.

وفى حين كان تميز أوروبا والغرب فى سـياق تـاريخ الإمبرياليـة، والنزعة الاستعمارية، والعبودية التى شملت تقريبًا الكرة الأرضية كلها قابلا للفهم؛ فقد فشل أغلب المنظرين الذين ميزوا أوروبا والغرب –أيـضاً– فـى الاهتمام بتواريخ الإمبريالية، والنزعة الاستعمارية، والعبودية التـى مكنـت أوروبا، والغرب من إنجاز هذه السيطرة. ولا تتعلق عملية "أقلمة أوروبا" فقط بتقديم التواريخ والخبرات الأخرى لكى تكون فى المقدمة؛ ولكنها تتعلق أيضا بإدراك وتفكيك – وإعادة تشكيل – المواقف العلمية التى تميز جـزءًا مـن العالم بدون أى تصور للحياة (والموت وحياة الموت للرق) التى أسهمت فى أن يصبح ذلك الجزء من العالم متميزًا. إن توجيه الاهتمام لتشكِل "أوروبـا الحديثة"، يكون ضروريًا للارتباط الملائم مع التاريخ، والحاضـر، للعـالم، ويتحقق ذلك فقط بفهم كيف وصلت أوروبا لتمثيل العالم ككل وتقديم تفـسير أكثر ملاءمة للروابط التى حدثت لتشكله هكذا، هنا يكون من الممكن التفكير فى تاريخ عالمى وعلم اجتماع عالمي.

وقد قدم تشاكرابارتى Chakrabarty (2000) رأيًا مفاده: أننا (أصـحاب نزعة ما بعد الاستعمار) لا نستطيع التفكير فى أنفسنا خارج الغرب، خارج المقولات التى تشكلت فى ارتباط الغرب ببقية العالم، وذلك التفكيـر حـول السياقات الأخرى التى سوف تعيدنا حتميا لتواريخ الغرب. وبينما أنا لا أتفق تماما مع هذا الموقف؛ فإننى أدرك الحاجة لارتباط أوروبا والغرب والتراث الذى افترض كأوروبى أو غربي. وكما أوضحت مبكـرًا؛ فـإن المفـاهيم والتراث ليس أوروبيا؛ وتكون المسألة ادعاءً أن هـذه المفـاهيم والتـراث ووصفها بأنها أوروبية. تطمس التواريخ والوقـائع المعاشـة لكـل هـؤلاء الآخرين الذين فكروا وفعلوا، ووضعوا أوروبا بوصـفها موطنًـا متميـزًا بالابتكار، والإبداع، والتفكير، والفاعلية. وتكون بقية العالم هى بقية العالم مع

دلالة اللقب السلبية؛ فهو عالم غير غربي، غير أوروبي، العالم الثالث على النقيض من الأول، المتخلف فى العلاقة بالمتقدم. إننا هنا سوف نحتاج للارتباط نقديًا مع أوروبا والغرب، وحتى عمليات إنتاج وإعادة إنتاج هذه التشكلات التى أصبحت واضحة عن طريقها (انظر Hall 1992).

إن الرأى الذى قدمه ديرليك Dirlik (2002) والذى يذهب إلى أنه حتى الأصوات الناقدة لأوروبا أيدت شكل التمركز حول النزعة الأوروبية، نتيجة لتركيزهم على أوروبا، وتزايد الصدى داخل الجدل العلمي. ويعكس الانتقاد لأوروبا إلى هذا المدى النموذج المهيمن، ويقدم خصوصية على النقيض لتلك العالمية عن طريق حجج قوية. وقد حاولت- فى هذا الكتاب- من ناحية ثانية، عمل شيء ما مختلف. حاولت فهم الإطار التصورى للخطاب السوسيولوجى عن الحداثة، الذى يفكك ادعاءاتها للعالمية من خلال فهم ما تمتلكه من خصوصية إضافة إلى خصوصية الآخرين، ومن ثم أعيد إنشاء إطار للفهم على أساس "**التواريخ المترابطة**". وأشير إلى أن هذا يقدم لنا أسلوبًا أكثر ملاءمة لمخاطبة خبرات الشعوب عبر العالم بدون اختزال خبراتهم لخصوصية "**منحرفة**"؛ ويبحث ارتباطات أوسع تسمح بتشكل بناء عام للتفكير يتنبأ بوضع مشروط لأى ادعاء بالكفاية.

يتابع ويليام جيمس (1904)، القول بأن الفعل ينبثق من معتقد؛ حيث المعتقد لا شيء آخر أكثر من فكرة ساكنة. كما يفترض هولمود Holmwood (2007b)، ويحدث الفعل- من ناحية ثانية- كلا من الاشتباك بالمحاورين الآخرين، وأيضا إحداث نتائج غير متوقعة. ويستلزم هذا- من ثم- تفكير إضافي، وتفكير يأتى للسكون فى معتقدات جديدة تمد بسياق جديد للفعل. ويكون من الصعب الفعل بدون اعتقاد فى صدق أفعال الشخص؛ لكن يغير

الفعل تلك الظروف التي ظهر فيها الفكر الأولـــى. ولا تحتـــاج الظـــروف المتغيرة تحديد الفعل لتكرار ما اعتقد فيه أولا؛ لكي تحـــافظ علـــى ســـلامة المعتقد؛ نظرًا لأن المعتقد ليس فى حد ذاته ذو أهمية؛ لكن بالأحرى علاقـــة المعتقد بالظروف التى وجدنا أنفسنا فيها. ويمكن أن يـــؤدى التفكيـــر حـــول الظروف الجديدة إلى أفعال جديدة، مختلفة، أو مماثلـــة. ولا يكـــون هـــدفى تفضيل التغير على الاستمرارية أو العكس؛ لكن تكون القضية افتراض تقديم هذين الاثنين بوصفهما متعارضين. وحالما قبل الوضع المـــشروط للكفايـــة، أصبحت "**التواريخ المترابطة**" الأسلوب الأكثر ملاءمـــة لتوجيـــه الاهتمـــام للمسائل بدون انزلاق إلى نسبية ما بعد الحداثة أو المأزق السياسي.

وما أن سعى المعيار الفلسفى للعلـــم لمعـــايير خارجيـــة ضـــد تلـــك الادعاءات الاجتماعية المحتملة التى أمكن اختبارها؛ فقد اعتبرت كثير مـــن الفلسفات الحديثة، من ناحية ثانية، بشكل متزايد هذا الفهم موضوعًا للبحث. وأصبحت رؤية المعرفة بوصفها متأصلة اجتماعيًا – تلك تكون "اشـــتراكية، مترابطة، ذو اعتماد متبادل، ونسبية للمجموعات الأكبر من الأشياء المعروفة والمشروعات التى بُوشرت" – وهكذا؛ نتجت شرعية المعرفة وتقييدها مـــن خلال هذه الأشياء ومن خلال المعايير المتشكلة اجتماعيا للمجتمعات المحلية التى نكون أعضاءً فيها (Nelson 1993: 141, 150). ومن ثم؛ فإن أى نـــسق للتمثيل، يتضمن من الداخل، ادعاء السواء – الطبيعـــي، أى التوافـــق مـــع المعايير المعتادة للمجتمع المحلي. ومع الاعتراف بأن هذه المعـــايير بـــشكل متكرر يقاوم معاييرها المهيمنة وأشكال القوة والتمثيل للاعتراف بإمكانيـــات تشكيل تلك المعايير وأشكال التميز. ولقد أثار هذا للكثيرين– كمـــا ذكرنـــا– شبح النسبية، لكن– كما سوف أشير– أن هذا الأمـــر يتـــضمن ســـوء فهـــم

للعمليات الخاضعة للمناقشة. ولا تكون النسبية نتيجة ضرورية لقبول التشكل الاجتماعى للمعرفة، والدعوة للعودة للفهم الفلسفى الناقص للماضـــى الـــذى بالتأكيد لن يفى بالغرض.

إن القول: إن المعرفة تتشكل اجتماعيًا وأنها تتصف بإعادة التشكل بما يحتم أهمية إلقاء ضوءٍ قوى على أهمية سياسات الحاضر، (والماضي) فـــى تفسيراتنا. ولا يحتمل هذا الافتراض- من ناحية ثانية- القول: إن المعرفـــة بشكل مطلق سريعة التأثر بالاكتشاف المعاصر فيمـــا يتعلـــق، كمـــا نـــاقش أبادوراى Appadurai في سياق مختلف، بوجود مجموعات من المعايير داخل المجتمعات، وتتصل بالسلطة، وترتبط وتكون ذات اعتماد متبادل، فى ضوء شروط" (1981:217). ويذهب ترويلـــوت trouillot (1995)، إلـــى أن هـــذه المعايير، متأصلة فى كل المجتمعات ومن ثم بينما أى شيء يمكن أن يكـــون ممكنًا؛ فإن بعض الأشياء فقط يكون مسموحا بها. وكان هذا الجانب لما هـــو مسموح به، أو مقبول، هو الذى يعمل بمثابة الحماية مـــن الانـــزلاق إلـــى النسبية. ولم يتم منع النسبية- هكذا- عن طريق استدعاء المعايير العالميـــة؛ لكن عن طريق استدعاء معايير التفاوض للعلاقات داخل المجتمعات المحلية وبينها. إن الحكم على التاريخ، قد تم فى ظل فلسفة العلم المبكرة، فى ضوء دقته فقط (توافقه)؛ حيث ترتبط الدقة بمساعى محاولة التحقق من كيف **"كانت حقيقة"** الأشياء فى الماضي، ولكن- من ناحية ثانية- فإن هـــذه الادعـــاءات بالتمثيل المنضبط (الدقيق) تظهر فقط فى علاقتها بالمعايير الجمعية للكفايـــة والتى يتم الاختلاف حولها فى الواقع المعاصر.

على سبيل المثال، ربما يكون صحيحًا فى ظل وضع الخصوصية لفهم تمثيل نشأة نسق دولة العالم الحديث فى سياق سلام وســـتفاليا 1648، علـــى

أساس مناقشات على السلطة والحقوق، كنتيجة لوجود مفكرين، مثل: هوبز، ولوك، وروسو، وآخرين ممن فكروا مليًا فى مشكلات وثيقة الصلة باليوم. ويعتبر من النادر أن ينظر إلى هذه التفسيرات على أنها ظهرت عبر "التداخل الطويل بين الأوروبيين والسكان المحليين الآخرين خلال العالم (Persaud and Walker 2001: 375) ومن ثم فإن هذه التفسيرات المبكرة ليست أقل ثقة إذا فهمت فى سياقها الخاص. إن ذلك- من ناحية ثانية- يكشف عن أوجه قصورها، ويكون الوصف الخفى لخبرات وادعاءات "الآخرين" عبر أشكال السرد المهيمنة على ما حدث. ويُعد هذا الخطاب- على سبيل المثال- بشكل ملحوظ غير قادر على التكامل "ثورة Haitian وهى معروفة بالثورة الهايتية(*)، التى حدثت خلال عشرين عامًا عقب الثورة الأمريكية، وكانت الأولى

(*) الثورة الهايتية: هى ثورة للعبيد فى المستعمرة الفرنسية فى سان دومينجو حدثت ما بين ٤ أغسطس فى عام ١٧٩١م و ١ يناير ١٨٠٤م. وهى الثورة الوحيدة فى التاريخ التى أدت إلى تأسيس دولة. ويجرى الاحتفال بها فى عدة دول فى العالم ومنها (موريتانيا). و"هاييتي" هى إحدى بلدان البحر الكاريبي، وكانت مستعمرة إسبانية حتى احتلتها فرنسا فى عام ١٦٢٦م، وتتمتع بالاستقلال منذ عام ١٨٠٤م خضعت خلال معظم تلك الفترة لحكام مستبدين؛ فابتليت بأعمال العنف السياسي. هذه المستعمرة الجديدة أطلقوا عليها اسم "سان دومينجو"، وجلب إليها الفرنسيون أعدادا كبيرة من الأفارقة للعمل فى مزارع البن والتوابل. وبحلول عام ١٧٨٨م كان عدد الأفارقة يصل إلى نصف مليون نسمة، أى ما يعادل ثمانية أضعاف المستعمرين الفرنسيين، وفى عام ١٧٩١م خلال اشتعال الثورة الفرنسية، ثار الأفارقة على الفرنسيين، ودمروا المزارع والمدن، واستولى "توسان لوفتر" أحد زعماء الأفارقة على زمام الأمور. وتعد "هاييتي" واحدة من أفقر الدول فى النصف الغربى من الكرة الأرضية، إذ تولى حكمها ٣٢ حاكمًا خلال الفترة من عام ١٨٤٤م حتى ١٩١٥م. انتخب "جان بيرتراند أريستيد" وهو قس سابق، رئيسًا للجمهورية. ولكن سرعان ما استولى العسكريون على السلطة، ولكن أريستيد تمكن من العودة إلى الحكم ١٩٩٤م بعد أزمة عنيفة اجتاحت البلاد، وتدخل مباشر من الولايات المتحدة الأمريكية. وأعلن العبيد استقلال سان دومينجو عام ١٨٠٤م معلنة أمة "هاييتي" الجديدة لتصبح البلد الوحيد الذى استقل عقب ثورة للعبيد وأصبحت تحت حماية الولايات المتحدة بين عامى ١٩٠٥م و١٩٣٤م. وتعد تضاريسها جبلية وعرة فى معظمها، مناخها مدارى تغطى الغابات معظم أراضيها، يبلغ حوالى ٩٥% من السكان زنوج أفارقة جُلبوا إلى "هاييتي" فى ظل العبودية فى القرنين ١٧ و ١٨، وهناك أقلية من الأفارقة والبيض. ولغة السكان الرسمية هى الفرنسية؛ إضافة إلى اللغة الكريولية الهايتية التى نتجت عن اختلاط الزنوج وهى

فى إلغاء العبودية"، فى أشكالها المهيمنة للسرد (Grovogui 2001:436). كما يناقش جروفوجه Grovogui، أنه رغم امتلاكه لمجلدين مكتوبين عن الحرية الإنسانية؛ فإن الفلاسفة والمنظرين الغربيين قاوموا تنظير نشأة أول دولة "زنجية" كواحدة من الأحداث بالغة الأهمية التى تنبأت بالحداثة-436 :2001). (7 فليس ممكنًا لفترة طويلة، عقب نزعة ما بعد الاستعمار، مناقشة نسق الدولة الحديثة بدون الاعتراف بالاستعمار.

اعتبر أغلب كُتاب التنوير الراديكاليين أن أحداث الثورة الهايتية، كما حدثت، لا يمكن تصورها، واعتقد المعاصرون أن الثورة "مستحيلة" مع صمت إضافى من المؤرخين الذين أهملوا الاهتمام بها. وكما يقول ترويلوت Trouillot؛ فإن الثورة التى كانت معاصرة لا يصدق أنها أصبحت، فى التاريخ، أشبه بلا حدث (6-95 :1995). وها هو بك – مورس – Buck

---

تعتبر خليطا من عدة لغات. ويعيش معظم سكان "هاييتي" فى الريف، ومعظم مساكنهم من الأكواخ، ومستوى الدخل منخفض، والمستوى الصحى متدهور؛ بسبب انتشار الأمراض، والنشاط الاقتصادى يعتمد على الزراعة. وأغلب السكان من المسيحيين الكاثوليك حوالى ٨٠% من السكان؛ بينما البروتستانت ١٦%، وأيضا توجد ديانة الفودو، إضافة إلى أقلية من المسلمين. ويعيش ٨٠% من السكان تحت خط الفقر، و ٥٤% فى فقر مدقع. يعيش الإنسان على زراعة الكفاف. انتعش الاقتصاد فى السنوات الأخيرة منذ عام ٢٠٠٥م. وفى عام ٢٠٠٨م حدثت أربع عواصف مدارية دمرت بشدة البنية التحتية. وقد زادت حركة صادرات الملابس والاستثمارات بعد ارتباط الاقتصاد الهاييتى بالاقتصاد الأمريكى فى عام ٢٠٠٦م، وقد ساعدت هذه الاتفاقية حرية وصول المنتجات الهايتية إلى الأسواق الأمريكية برسوم جمركية قليلة. وتعانى من ارتفاع معدلات التضخم وقلة الاستثمار الأجنبي؛ بسبب انعدام الأمن، وفقر البنية التحتية والعجز الحاد فى الميزان التجاري. وتوقع إلغاء جزء من ديونها من خلال مبادرة الدول الفقيرة المثقلة بالديون، فى منتصف عام ٢٠٠٩م. وتعول الحكومة على المساعدة الاقتصادية الدولية الرسمية من أجل تحقيق الاستدامة المالية فى البلاد. وأهم الحاصلات الزراعية البن وقصب السكر والأرز والذرة البيضاء والكاكاو والبطاطا والقطن. ويزرع الفلاحون المحاصيل على منحدرات شديدة الانحدار؛ حيث يربطوا أنفسهم فى الجبال لتجنب السقوط. ولا توجد قوات عسكرية نظامية، وقد أنشأت الأمم المتحدة بعد فترة من الصراع المسلح فى "هاييتي" بعثة متعددة الجنسيات فى عام ٢٠٠٤م لبسط الأمن والاستقرار. الشعار الوطنى "لهاييتي" (حرية، مساواة، إخاء).

Morss (2000)– من ناحية ثانية– يحذر بأن ثمة خطرًا فــى دمــج شــكلين للصمت هنا: صمت الماضي، وصمت الحاضر. وقد تميزت الثورة الهايتيــة – بتحرير الذات من عبوديتها، وإلغاء الاستعباد، وتأسيس التــصويت عبــر اللون المحظور –ونوقشت فى ذلك الوقت، سواء كإلهــام لثــورات العبيــد اللاحقة عبر البحر الكاريبى والبــر الرئيــسى الأمريكــى (Sidbury 1997, Dubois 2004)، أو الشجب فــى قاعــات الاســتقبال والــصالونات للعــالم 'المتحضر' أو التحول إضافة لذلك إلى لغة استئجار العبيد والنضال الطبقــى فى الكتابات المبكرة لماركس (Buck- Morss 2000). ويعد الأكثر حداثــة– من ناحية ثانية– ونتيجة لــ "أشكال الخطاب العلمية التــى ورثنــا خلالهــا المعرفة بالماضى" أصبحت الثورة الهايتية بدرجة كبيــرة غيــر منظــورة (Buck- Morss 2000: 845). لقد كان اهتمامى فى المقــام الأول فــى هــذا الكتاب بهذا النوع الأخير للصمت العلمي.

وقد استطاع تراكم الأصوات "**الأخرى**" فى ميادين تمت الهيمنة عليهــا سابقًا بأصوات الخصوصية– تعزيز نظريات أسسناها من ثم على أساس هذه المعرفة. تصورنا– من ناحية ثانية– أن هذه الأشكال للصمت لا يمكن الاهتمام بها بإضافتها للتصورات السابقة فى الوجود؛ وكما يقرر ترويلوت trouillot، فليس كافيًا "إضافة مواطن ذات إثارة ونواصل مــاهو معتــاد" (1991:44). فنحن لا نستطيع المعرفة التاريخية الجديدة إضافة إلى تلك ســابقة الوجــود بدون طريقة ما لخلق تساؤل عن شرعية وسريان المؤشرات المقبولة سابقًا – على المستويين التاريخى والأخلاقي. وكما تناقش كيتا Keita (2002)؛ فإن "**استعادة الأصوات**" لا يعنى أنها كانت مفقودة من قبل؛ إنها أصوات ارتبطت بأنشطة تاريخية لم تكن رؤيتها ذات أهمية داخل التقديرات الغربية المهيمنة.

وهكذا فإن ما نوقش هنا ليس، نتيجة مثل الثورة الهايتية؛ ولكن ينبغى رؤيته كأحدى النتائج التأسيسية للحداثة؛ وليس تعديلا للتجاهل الذى أضفناه منذ لحظات للقائمة السابقة. وعلى العكس، أن ذلك الصمت الذى يحيط الثورة الهايتية (والنتائج المماثلة له) يؤسس فكرة حقيقية عن الحداثة واستخدامها فى التفسيرات السوسيولوجية للعالم المعاصر.

يستلزم الاهتمام الحقيقى بهذه الظواهر إعادة التفكير بشكل راديكالى لمفهوم الحداثة نفسه أيضًا؛ ولكن ليس فقط، إعادة التفكير فى تمجيد خصوصية المسارات التاريخية والنصوص الضيقة (Grovogui 2001: 437). وقد ظهرت الدولة الحديثة والنزعة الاستعمارية معًا فى القرن السادس عشر ووضعا معًا التساؤلات الجوهرية عن النظام وشرعية القوة التى مازالت تحظى بالاهتمام اليوم. ولا تستند كفاية تصوراتنا لهذه العمليات فقط على دقة تمثيلاتنا؛ كما نوَّه، وتلك التمثيلات التى تكون فى النهاية دائمًا جزءًا من القصة. ولكن كفاية هذه التصورات تعد أيضًا مسألة مسئولية للمجتمعات المحلية التى تنتشر فيها هذه القصص وأشكال المعرفة، وتدعم القواعد السياسية هذه الاعتبارات التى تستند على تمزيق الاستمرارية بين صمت الخاضعين فى التاريخ والنظرية وخضوعهم فى الحاضر (انظر Nandy 1987).

وقد شكلت العلوم الاجتماعية، وعلم الاجتماع بصفة خاصة، خصوصية "**مشهد البحث**" الذى استدمج الجانب الأعظم منه، والعلاقات الاستعمارية التى تكاملت مع نشأة مجتمعات الحداثة والأشكال الحديثة لتفسير تلك المجتمعات. ومن تصنيف لفهرسة، ومن مراقبة باردة لآخرين إلى مراقبة جيراننا، ومن إبادة الجدرى إلى إبادة الحصبة، والغدة النكفية والحصبة الألمانية، ولا يمكن فصل أشكال الخطاب والممارسات عن خصوصية أى إقليم أو بلدة أو مجتمع،

أو عرق، أو موقع جغرافي. وكما أوضحنا خلال هذا الكتاب: فليس السؤال هو ببساطة سؤالا حول ما فعلته أوروبا، وأنه يحدث أيضًا في مكان آخر، ولا أن ما حدث في محيط المستعمرات نتج عن هؤلاء في أوروبا. ولكنه سؤال حول المشكلات التى تولدت في عمليات الترابط والتمييز بين الأماكن والشعوب؛ حيث تُصَوُّر خصوصيةُ الحلول، وتُنَقُّل، وتَحَوُّل، وتَنَفُّذ.

ويكون البحث عن الأصول الحقيقية- من ثم- مهمة إضافية، كل ذلك من الممكن أن ينسب للأصل، وذلك شأن سياسي. إن المؤلفين يروقهم أن يبحثوا عن أصل الإبداع لشئ ما. حينما تمت "البرهنة" أن شخصًا ما آخر اخترعه، مستندين على الأصل في تطبيق الشيء (على سبيل المثال يُنسب الاختراع لآلة الطباعة للصينيين؛ لكن هناك ادعاء بوصفها أوروبية بسبب نسختها المطابقة). وحينما تمت "البرهنة" أن شخصًا ما آخر استخدمها أيضًا، ومن ثم استند الأصل على التطبيق الجماهيرى للشيء (على سبيل المثال: مصنع إنتاج القطن). حينما "بُرهِنَ" أن شخصًا ما آخر لديه أيضًا إنتاج بالجملة، استند أصل الادعاء إلى الذى فعله في البداية أولا ودون غيره. وتكون هذه حقيقة الممارسات الفكرية بوصفها مادة للجدل حول الأصول التى تشير للحداثة. ومن محاولات كوزموبوليتانية أو كونية لمفكرى التنوير الفرنسيين والأسكتلنديين إلى المسار التطورى لنظرية التحديث إلى تعدد مساراتها المنتشرة، خبرة أوروبا قبل أى شيء آخر، تميزت واستمر هذا الإحساس بالتميز ليشكل أحاسيسنا بالحداثة وما بعد الحداثة. وقد سمح كل ذلك بشكل جناس تكرارى للحداثة، وذلك يكون الحداثات المنتشرة- على سبيل المثال- التعددية اللاحقة، والتكييف، والتدجين للعمليات التى ترى بوصفها نشأت في أوروبا. ولا يمكن رؤية أحد آخر لديه أى شيء للإسهام به في العمليات التى رؤيت بوصفها تاريخية – عالمية.

ذهب الاتجاه السوسيولوجي المهيمن للحداثة إلى تمييز نماذج تطورية للمجتمع، وأشار إلى أن التساؤل عن احتياجات التطور الاجتماعى التى تكون مقاربةً بمصطلحات علم الاجتماع التاريخى المقارن الذى جعل الحداثة نقطته المرجعية. يعالج علم الاجتماع المقارن هذه النماذج المختلفة للمجتمع بوصفها متميزة ومتصلة؛ كما أوضحت، وتنشأ عن طريق منهج للتجريد النموذجى المثالى من ارتباطات أوسع وظروف معقدة. ويُصَمَّمُ هذا التجريد لتصير هناك ارتباطات معينة "**منظورة**" وقابلة للخضوع للبحث التصنيفي. كان ما تُجوهِل إلى المدى الذى يدعم ذلك البحث التصنيفى "**لحجب**" الروابط الأخرى التى ربما كانت هدفًا للبحث. لقد كان "**محجوبًا**" عمومًا فى معظم بحوث الحداثة تلك العلاقة الاستعمارية التى شكلت جانبًا مهمًا للحداثة من بدايتها، ولم تكن أقل تصنيفًا من الترابطات التى تمثلت بطريقة أخرى داخل الاتجاهات السوسيولوجية المهيمنة. وبينما قبلت فمن المستحيل الاهتمام "**بكل شيء**"، وقد شكلت الاختيارات الحاجة إلى التبرير بمصطلحاتهم ومصطلحات الآخرين الذين أصبحوا مهتمين بها. وقد اعتبرت الاختيارات غير كافية؛ ولكنها ضرورية ليس فقط لتشكيل اختيارات أخرى؛ لكن لفهم لماذا تشكلت خصوصية اختيارات أولا وكيف أمكن تعزيزها وإعادة تشكلها من خلال انشغال آخر.

وقد أردت بتقديم هذه المناقشة القول إن التشكلات السوسيولوجية للحداثة– سواء فى بنائها المعرفى وأسسها الميثودولوجية – كانت هى نفسها تأطيرًا لخصوصية التأريخ، ومنه التمركز حول النزعة الأوروبية فى التميز. إذا استطعنا الآن فهم الاتجاهات المهيمنة، مثل: التمركز حول النزعة الأوروبية؛ فإنه على الأقل جزئيًا، كان ذلك بسبب ظهور أصوات جديدة فى الميادين

السياسية الأوسع وفى الأكاديمية نفسها. وقد أدى زوال الاستعمار، كتشكل سياسى واضح، إلى فهم نزعة ما بعد الاستعمار، وربما تصور ساخر متزايد لدور الاستعمار فى تشكيل الحداثة فى هذا السياق. ومن ثم؛ فمن غير الكافى رؤية نزعة ما بعد الاستعمار بوصفها تتضمن أساليب جديدة لفهم الحداثة ومستقبلها (وجمع مستقبل). ويحتاج أيضًا إسهام نزعة ما بعد الاستعمار لإعادة تشكيل ماضى الحداثة (الحداثات) إلى الاعتراف به. ويستلزم أيضًا، لعمل الأخير- من ناحية ثانية- إعادة تشكيل أشكال الفهم -للمفاهيم، والمقولات، والمناهج - التى بداخلها خصوصية النتائج تصير ضئيلة بوضوح. وقد حاولت؛ لهذا الهدف، إعادة التفكير فى علم اجتماع تاريخى مقارن خارج تأطير التأريخ المهيمن، وداخل تأطير جديد "**للتواريخ المترابطة**". وضعت الحداثة، بهذه الطريقة، فى تأطير للترابطات، أو الشبكات للشعوب والأماكن التى تجاوزت الحدود الراسخة داخل الاتجاهات المهيمنة.

وقد وجهت اهتمامي- فى هذا الكتاب- إلى مجموعة الافتراضات المتضمنة بعمق داخل التشكلات السوسيولوجية للحداثة؛ حيث المقولات التحليلية و "**الحقائق**" المرتبطة بها والتى يمكن رؤيتها كمكونات أساسية مشتركة. واعتراضًا على هذه الافتراضات، التى بُرهنت بمرونة على نحو رائع فترة التطور الاجتماعي، وكان من الضرورى الانشغال بنقد مفصل لنشأة وتطور كل من المقولات التحليلية و "**حقائق**" الحداثة. وقد حاولت فى الجزء الأول من الكتاب، تشكيل بناء مفاهيمى واضح وأسس منهجية للأفكار السوسيولوجية للحداثة، ومناقشة أن هذه النظرية مستمرة فعليا مع علم الاجتماع نفسه، خاصة التفكير الماكرو - سوسيولوجي. ووجهت اهتمامى فى الجزء الثانى من الكتاب "**لحقيقة**" الأصول الأوروبية

للحداثة. وقدمت، فى الاعتراض على التصورات المهيمنة للحداثـــة وعلـــم الاجتماع، و"**التواريخ المترابطة**" بوصفها طريقًا بديلا للتفكير حول التـــاريخ وعلم الاجتماع.

وبتشكيل هذه المناقشة، من المألوف أن تنتج استجابتين: **الأولـــى**– تُعـــد المناقشة مُلحة للمقولات التى أُعتُرضَ عليها. وتكون رؤيـــة تلـــك المقـــولات بالعقلية الاجتماعية وأن الاعتراض عليها، من المفترض، غيـــر عقلانـــى (أو باستخدام مصطلح ديلانتى Delanty(2004, 2006) مرتبك confused) وسوف يؤدى لمشكلات النسبية المرتبطة بما بعد الحداثة. وتكون الاستجابة **الثانيـــة**– لمناقشة أن افتراضات التمركز حول النزعة الأوروبية شيدت مقولات تحليلية ليس لديها مضامين واقعية. ومن المفترض أن هذا جانبا محتملا للمقولات ذات التبرير الحر الذى يعكس عدم إنكار "**حقيقة**" الحداثة الأوروبية وأصولها. وكما أوضحت فى الفصل الثالث: إن هؤلاء الذين يدافعون عن الاتجاه المهيمن لعلم الاجتماع التاريخى المقارن، أصبحوا يوافقون على أن التمركز حول النزعـــة الأوروبية مشكلة شوهت أحيانًا الطريقة التى نُظر من خلالها إلـــى الحداثـــة. لكنهم يرونه بوصفه تشويهًا محتملا من جانب مؤلفى أو جماعات من مـــؤلفى الخصوصية؛ وليس ضمنيًا فى منهجية علم الاجتماع التاريخى المقارن نفسه. وقد ناقشت – أيضا– أنه إذا كان "**التمركز حول النزعة الأوروبية**" غير ملائم كافتراض منهجي؛ فإنه لا يمكن إنكاره "**كحقيقة**". إنه يفتـــرض أن الأصـــول الأوروبية للحداثة لا يمكن إنكارها.

وقد اعترضت– فى الجزء الثانى من هذا الكتاب– مـــن ثـــم علـــى أن "**حقائق**" الحداثة توضح إمكانية الاعتراض عليها وأنها؛ إضافه لذلك، نـــوع

مختلف لاتجاه تاريخى - موجه للترابطات - يزود بفهم مختلف للحداثة وتنوع إسهاماتها. ويتضمن هذا كلا من إسهامات "**الآخرين**" غير الأوروبيين وإسهام الاستعمار الأوروبى (ارتبط الابتكار الأول بقوة بأوروبا، وتصنيفيا، قد تُجُوهِل لصالح الابتكارات "**الأوروبية**" الأخرى). وقد أشرت بدقة إلى إجبار التأريخ "**للتواريخ المترابطة**" لإنكار "**الحقائق**" عن الحداثة الأوروبية فى اعتراضها على التمركز حول النزعة الأوروبية فى المنهج. وفى الواقع يكون من الغريب إعادة التشكل لمنهج لم يعيد أيضًا تشكيل ما رؤى سابقًا.

وبينما عبرت عن تفوق "**التواريخ المترابطة**" على الأنواع الأخرى للتاريخ فى تقديم مجال أوسع للظواهر والخبرات للمشهد؛ فإننى لا أدعى ملائمته لتلك المصطلحات. وأشير- خلال هذا الكتاب- إلى سياسة إنتاج المعرفة وأيضًا إلى الحافز للتأريخ بوصفه ينشأ عن مصالح حاضرة. ويجعلنى هذا اقترب من جانب واحد لاتجاه فيبرى Weberian لعلم الاجتماع، الذى انتقدته بشكل آخر، أعني: أن التاريخ وعلم الاجتماع يعتمدان على أبنية القيمة وثيقة الصلة بالخضوع للتغير. وقد أشرت- من ناحية ثانية- إلى أنه وراء نطاق معيار المنظور الفيبرى Weberian ينبغى علينا أن نفترض أن ثمة رؤية لهذا التغير كتحول للمسائل التاريخية التى نعتبرها هامة، وأيضًا للمفاهيم التى نقترب بها. ويشير برهان هذا الكتاب إلى موقفنا العالمى الحالى أننا فى لحظة تغير فى أبنية القيمة وثيقة الصلة. وقد دُشِّن التغير عن طريق حركات اجتماعية مختلفة، وبصفة خاصة، التحرر من الاستعمار، ونزعة ما بعد الاستعمار. وقد دشن الأخير إمكانية فهم الحداثة من منظورات أخرى غير أوروبية.

ومن ثم تكون "التواريخ المترابطة"، عن اتجاه يعيد التفكير فى ظروفنا الحالية ومسارات التغير المرتبطة بها من منظورات متعددة، بدلا من تلك الأوروبية المهيمنة. وربما هذا، جزئيًا، دُشّنَ عن طريق إحساس عميق بالعولمة وتأثيرها فى الغرب؛ لكن بالنسبة لغير الغرب؛ فإن العولمة حقيقة يتحملونها لقرون. حينما ظهر التأثير السلبى فى المقام الأول فى الاتجاه الآخر – على سبيل المثال من خلال عمليات التخلف ووهم التصنيع، كما ناقشت فى فصول سابقة – هذا لم يُدرك فى سياق العولمة. و فى عديد من الحالات لا يفهم على الإطلاق داخل التصورات المهيمنة للحداثة والتفكير الماكروسوسيولوجى (انظر Holmwood 2007a). وإذا كانت الترابطات بالعولمة قد نشأت فقط من مجرد منظور للغرب؛ فإن ذلك لا يرجع إلى كونها جديدة، ولا أنها يمكن أن تكون منظورًا فريدًا ملائمًا لفهمها.

وقد ناقش بيك Beck (2006)، مؤخرًا، أن الاتجاه الكونى ضرورى للانشغال النقدى بالعولمة ولتجاوز قيود الاتجاهات العلمية النموذجية المتمركزة حول الدولة فى علم الاجتماع وعلم السياسة. كما يجب أن يكون واضحًا مما ناقشته حتى الآن، إننى أعتبر هذا الشكل للكونية ضيقا بالمثل كالاتجاهات المتمركزة حول الدولة التى انتقدت بدقة فى الأسلوب الذى أقرت به ملاءمة مفاهيمها للماضي، ومناقشة أنها تطبقها للحاضر، والمستقبل، تلك هى المسألة. بينما ناقشت أيضًا أن المفاهيم السوسيولوجية متمركزة حول الدولة القومية أى متمركزة حول خصوصية الدولة القومية الأوروبية – هذا لا يصبح إشكاليًا الآن فقط "كحداثة أولي" منحت طريقًا لعالم العولمة المعاصر. وتكون مناقشة بيك Beck للاتجاه الكونى جزءًا من خط طويل للنظرية الاجتماعية و الذى يعتبر المنظورات الغربية حقيقة للعمليات

العالمية. وكان علم الاجتماع الكونى منفتحا للأصوات المختلفة، كما افترضت، التى كانت أحد تلك التصورات الأوروبية "**المحلية**" (انظر Holmwood2007a).

ما ناقشته خلال ذلك: أن فهم الترابطات فى الحاضر سوف يستلزم فهمها فى الماضى وإعادة تشكيل فهمنا للماضي. وتكون مناقشة القوة والمعرفة مناقشة حول أبنية القيمة وثيقة الصلة التى تخبرنا بالتاريخ وكيف، ومتى تتغير هذه الأبنية؛ فالتاريخ نفسه يتغير. ويمكن اعتبار عمليات التحرر ونشأة مجال لنزعة ما بعد الاستعمار كتغير لأبنية القيمة وثيقة الصلة. ولا تكون المسألة أن أى بناء جديد يستطيع تلخيص البناء الذى ترجم التاريخ كله بمصطلحاته حتى التغير التالي. سوف توجد دائمًا مسائل للاختلاف والنزاع ورواسب ذات قيمة من التفسيرات الأقدم تكون ضرورية فى تطويرات أخرى جديدة. وبينما يكون نقد بعض جوانب الوضع ما بعد الاستعمار- على سبيل المثال- وما أتناوله من التأكيد على التواريخ المترابطة، تصور الاستعمار كمكمل لقصة الحداثة وتشكل مؤسساتها - لفهم عالمنا المعاصر - والنقد للتسلسل الهرمى للمعرفة المحددة سلفًا. ويكون التساؤل- من ناحية ثانية- كيف نتصور التاريخ كحوار نشط. وأود مناقشة أن الإجابة عن هذا تكون من خلال تصوره كعملية تعلم. ويكون المعنى الوحيد للموضوعية فى التاريخ الذى يجعل الإحساس واحدًا متسقا مع حوار التعلم، والنشاط الذى يبنى المعرفة من خلال التوجه نحو المشكلات.

وقد ناقش سعيد (1975) أن "**البداية**" خطوة أولية فى الإنتاج المقصود للمعنى؛ حيث يُحَدِّد القصد كنزعة فكرية لعمل شيء ما بأسلوب معين. ويواصل سعيد: بأن الوعى بالبداية، يكون من خلال تصور المهمة بأسلوب

خاص، ويكون ذلك: بأن يـزود "بإبـداع شـامل داخلـه يطـور العمـل" (1975: 12). ولا يكون هذا الافتراض الشمولى كيانًا كليًا، ولا البداية كأصل. ويميز سعيد الفكرة أنها "**إبداع شامل**" بافتراض أن تخوم مجال البحث تحـدد العلاقات والإمكانيات وراء نطاق تلك التخوم. ويفترض: أن هذا يظهر عـن طريق استخدام أمثلة (أو دراسة إمبيريقية) "حيث يبـدأ اللاامتثـال وفـيض الطاقة لتنفيذه فى الميدان" (1975: 15). وكمـا نـاقش جـادامر Gadamer (1979)- أيضًا- أن تصور تخوم لآفاقنا يتيح لنـا إمكانيـة الحركـة وراء نطاقها. ويكون ذلك، بمعنى آخر- بكلمات جادامر: "أن يكون لديـه أفـق لا يعنى أن يكون مقصورًا على ما يكون أقرب؛ لكن هناك قدرة علـى رؤيـة تتجاوزه" (1979: 269). إضافة لذلك، من خلال خلق تمييز بـين الأصـول والبدايات حيث تكون رؤية الأصول بوصفها تأسيسية ولا تسمح بانحرافات، والبدايات مسئولة عن إعادة تشكيل وإعادة انتشار – يـشير سـعيد (1975, 1978) إلى إعادة البناء والإحياء للمعرفة، ليس كونه شيئًا أنجز حتـى ذلـك الحين؛ لكن كونه بحثًا ذاتيًا مستمرًا للمنهج والممارسة.

تكون المشكلة مع التقديرات السوسيولوجية المهيمنة أنهم يرغبون فـى شئ ما خارج الحوار الذى لا يحدد هو نفسه جوهر الحوار. وكان التخلى منذ فترة طويلة عن معيار إيجابى لوصف الاتفاق على الجوهر؛ لكن بدلا مـن ذلك اشتهاء "**الموضوعية**"، أو "**التحليلية**"، للاتفاق على المفاهيم. وقد نُوقش: أن مفاهيمًا معينة ضرورية للوضوح فى علم الاجتماع. ما أوضحته فى هذا الكتاب كيف أن هذه المفاهـيم، التـى يـذهب الـسوسيولوجيون إلـى ضرورتها: إنها فى الحقيقة متصلة بقبول جوهر الخصوصية، إضافة لـذلك أن جوهرها قابل للتفنيد. وقد أشرت إلى أن ذلك الجـوهر متمركـزٌ حـول

النزعة الأوروبية؛ لكن ذلك فى حد ذاته ليس انتقادا للخصوصية. ويمكن من منظور القيمة وثيق الصلة الذى عرضته آنفًا؛ أن يستطيع الشعب فقط الانضمام للحوار من خصوصية منظوراتهم. وما يُعد إشكاليًا هو تمثيل هذه المنظورات بوصفها ضرورية للجميع، ولذلك تكون شرطًا للحوار بدلا مما يُنشغَل به فى الحوار. كما أوضحت أيضًا؛ إضافة لذلك: أن التسجيل التاريخى لهذه المفاهيم التى طبقت يكون دائما أكثر ثراءً وأكثر تنوعا من المسموح به عموما. ويكون أكثر ثراءً وأكثر تنوعا بدقة فى العلاقة بخبرات الآخرين الذين أنكرت خصوصيتهم (بينما طُمِسَت الخصوصية المهيمنة داخل العالمية الزائفة). وبهذا المعنى؛ يكون إعادة التفسير للتاريخ ليس مجرد تفسير مختلف *لنفس* الحقائق؛ لكن يجلب للوجود حقائق *جديدة*؛ وبرفقة الحقائق الجديدة، أصوات جديدة، ومع الأصوات الجديدة، إمكانيات جديدة للتعلم المتبادل ومعتقدات وأفعال جديدة.

الهوامش

مقدمة: نزعة ما بعد الاستعمار، وعلم الاجتماع، وسياسة إنتاج المعرفة

(١) كما ناقشنا فى الفصل الرابع، من المألوف تصور أوروبا كأقباط ووجود تاريخى لليهود، ويتم التجاهل عمومًا للمسلمين داخل حدودها.

(٢) بمعنى أن وجهه نظر ماركس للبروليتاريا تستند على تصوره لقوتهم المحتملة كحل لمشكلات الرأسمالية؛ وليس تعبيرًا عن فهم هؤلاء الذين يعتبرونهم بروليتارين.

الفصل الأول

الحداثة والنزعة الاستعمارية، ونقد نزعة ما بعد الاستعمار

(١) ينبغى هنا أيضا ملاحظة أن الحلول للنزعة الاستعمارية كما قدمها نانديِ، وسعيد من ناحية، وفانون من ناحية أخرى، متعارضة راديكاليًا حتى إذا كان تشخيصها مماثلا للظروف؛ وبينما أيد فانون (1968[961]) الدور الرئيسى للعنف فى النضال من أجل التحرر، يناقش نانديِ (1987) أن هذه المناصرة للعنف ارتبطت فقط بمزيد من الدقة بثقافة الظالم بدلا من أن تخول لأى شخص التغلب عليها.

(٢) فى حالة نيوزيلند/أتوريا، يفترض ديورنج During (1998) أن العلماء أوضحوا أن الغزو الأبيض الذى تمت مقاومته شرعيا، وإنتاجيا، وفى عملية الغزو؛ أسهم المستعمرون والمستعمرَون، فى خلق المجتمع المعاصر. ويمكن رؤية الخلاص من الخضوع الاستعمارى فى التاريخ بوصفه وجهات نظر لجهود المؤرخين النسويين، مثل جوان كيلى Joan Kelly (1986[1984,1976])؛ لترميم النساء للتاريخ.

(٣) اُعتُرِف بنقد بيرك Burke –ولو بشكل هزيل– فى دراسة ستوكس Stokes، *النفعيين الإنجليز والهند*؛ حيث يناقش أن الهند لم تلعب دورا رئيسيا فى تشكيل جودة الحضارة الإنجليزية، وبطرق عديدة، "مثلوا كعنف معوق، وقوة مغناطيسية مكانها فى المحيط تميل إلى تشويه التطور الطبيعى للشخصية البريطانية" (11 :1959)؛ من ناحية ثانية، يدرك ستوكس أيضا، أن الهند –كعنف معوق، فى القرن ١٩– قد عبرت عن مجموعة واسعة من الفرص لنشأة طبقة وسطى رأت مصالحها مرتبطة بإدارة الإمبراطورية (ولو أنها كانت إدارة قدمت آنذاك مبادئ نفعية بررت تقويض

الإمبراطورية لتأكيدها المزعوم على الحرية). يبحث سانكار موثــو Sankar Muthu (2003) –من منظور مختلف– أن آراء مفكرو نهاية القرن ١٨ على ســبيل المثــال دايديروتل، وكينت Diderot and kant، كانا معاديين لكل من أفكار الإمبريالية، ونشأة المشروع السياسى للإمبراطورية – نقدًا كان مفقودا فيما بعد فى عمل أغلب القــرن ١٩ – قرن المفكرين الأوروبيين.

(٤) من أجل تفسير بديل لتأثير زوال الإمبراطورية، انظر هولمود Holmwood (2000b) ولوصف كيفية التغير من نسق "أولوية" الكومنولث للاتحاد الأوروبى الــذى ارتــبط "بأمركة" التناقض الظاهرى لتعديلات الرفاهية الاجتماعية فى المملكة المتحدة والتغير الجوهرى فى التعديلات الدستورية مع خلق جمعيات قومية فى ويلز وأسكتلندا.

(٥) فيما يتعلق بمناقشة المواقف المعقدة التى يصبح الناس من خلالها مــدركين للقوميــة والكونية، وهى مواقف تتضمن النزعة الاستعمارية والإمبيريالية ونتائجهــا، انظــر جون كوكس Joan Cocks (2002).

(٦) من المعتقد أن أحد المكونات الأساسية التى ترسم الوعى التاريخى الأوروبــى عــن الثقافات الأخرى التى كانت تستفيد منها وتؤيد خطها الزمني؛ لذلك لم تكن تعتقــد أن الشعب بدقة "تاريخيا" إذا حافظ على أفكار الزمن الدائري. ولم يكن الاهتمام بالكونية الدائرية لليونانيين القدامى– من ناحية ثانية– لإنكار ادعائهم بالوعى التــاريخى ولا الهوية المتميزة، وقد تشكل هذا الادعاء – فقط– فى الارتباط بالزمن الــدائرى مــع المجتمعات ذات النزعة الاستعمارية (thapar 1996: 43-4).

(٧) عن تطوير الفكرة الحديثة للطفولــة انظــر الدراســة الكلاســيكية لفيليــب أريــز Philippe Ariès ‏(1965[1960])، قرون الطفولة.

(٨) رغم هذه المناقشة، المقدمة المنطقية الخاصة بدراسة جوهــا Guha– "فــشل الأمــة التاريخى لترث ما تملكه" (1982: 7) – يناقض إطار السرد الخطى الذى يعمل هــو ذاته بداخله.

(٩) وقد أسهم التركيز الأكاديمى الذى يبدو أنه ليس مفاجئًا على الفلاحين فى ١٩٨٠ فى الهند فى تكريس التاريخ للعصيان الفلاحى الذى حدث فى أجزاء هامة للمجتمع فــى نهاية عام ١٩٦٠م، وعام ١٩٧٠م.

(١٠) فى الواقع، تدين ترجمة هارتسوك Hartsock لوجهة النظر الإبستمولوجية الماركسية بالكثير للتقديرات "السوسيولوجية" للعلم عقب كين Kuhn (1962) مع تأكيده علــى الاهتمامات السوسيولوجية (والسيكولوجية) فى تشكيل المعرفة.

(١١) فنّد كايوار Kaiwar بالمثل الأفكار عن التاريخ التى تفهم ذاتها بكونها "سيرة شعب" وناقش تصور التواريخ القومية بكونها بوتقات تتضمن مقولات عالمية وسرديات مزيفة وإمكانيات الذاكرة وحدوث النسيان (هامش 2003:51, 2). ناقش تايلور (2000) بالمثل، بمنظور جغرافي، دراسة الروابط وانتقد علوم الاجتماع، والسياسة، والاقتصاد لكون (الأمة) "مركز الدولة".

(١٢) كما يناقش مالكى Malkki (1997)، إحدى الاستعارات القوية داخل تفكيرنا عن الهوية، على سبيل المثال: الجذور، إضافة إلى افتراضاتنا المستقرة حول الارتباطات الأصولية بأماكن خاصة، وأقلمة الاختلاف فى سياقات متعددة، ومختلطة، ومهجنة.

الفصل الثانى
الحداثة الأوروبية والخيال السوسيولوجي

(١) لقد ناقشت- باستثناء ما قررته بوضوح- أن تواريخ الفكر الاجتماعى فى هذا الفصل قدمت القليل أو لم تشير إلى المناوشات الاستعمارية. ويعتبر هايلبرون Heilbron (1995)- على سبيل المثال- قادرا على نسج تصوره لنشأة النظرية الاجتماعية دون إشارة واحدة للأنشطة الإمبريالية للدولة الفرنسية أثناء الفترة المشار اليها، رغم ادعائه جمع التاريخ الاجتماعى والفكرى فى تحليله لميلاد النظرية الاجتماعية.

(٢) ناقشت بيات يان Beate Jahn (1999)- على سبيل المثال- تأثر الفكر السياسى الأوروبى بقوة بالمناوشات مع الإمرنديين. ونتج هذا جزئيًا عن هذه المناوشة، وتقول: إن "استقرار العصر الذهبى فى الماضي، فى العصور القديمة، انتقل تدريجيًا إلى المستقبل، منتهيا بالخلاص فى المسيحية والتى حل محلها النهاية المدنية لتطور الإنسانية" (428 :1999).

(٣) اعتبر تيورجوت Turgot العبيد كنوع أولى من الثروة المماثلة للنقود، المنقولة "عن طريق وسائل عنيفة وموخرًا بأسلوب تجارة وتبادل" (148:[1766]1973). ورغم أن ميك Meek وجه الاهتمام، فى مناقشته الكلاسيكية لنظرية المراحل إلى التساؤل عن "المتوحشين" داخل هذا الإطار، وقد ذكر أن نظام العبيد لا يوجد فى أى مكان (بمعنى آخر، باستثناء داخل نطاق اليونان القديمة).

(٤) يفترض بك – مورس Buck – Morss (2000) اعتماد أكثر من ٢٠% من البرجوازية الفرنسية على نشاط تجارة العبيد فى حين افترض علماء آخرون، مثل: سالا – مولينز Sala Molins (يوجد اقتباس منه فى بوك – مورس)، أن الرقم أقرب إلى الثلث. ويكتب إيريك ولف Eric Wolf، عن تجارة الفراء فى أمريكا الشمالية، ويذكر أنها

بدأت حينما بدأ الصيادون والبحارون الأوروبيون المقايضة على الفراء مع السكان المحليين Algonkins ‏(160 :[1982] 1997). في حين كانوا في البداية مشاركين فعالين في تطور التجارة، ويقول: إنهم عززوا كتجار أوروبيين وضعهم الاقتصادى والسياسي؛ بينما العلاقة المتذبذبة بين الصيادين المحليين الذين انزلقوا في الفخ والأوروبيين أفسحت المجال للاتوازن" وقد عادت تدريجيًا مع الإمرنديين النمذجة لعلاقاتهم الاجتماعية، وعاداتهم الثقافية حول المتطلبات والتوقعات الأوروبية مما أدى أخيرًا لطردهم (1997[1982]194,161).

(٥) يذكر جلاوسير Glausser: أن لوك Locke استثمر أمواله فى الشركة الملكية الإفريقية التى تاجرت بالعبيد عبر الساحل الغربى لإفريقيا وزودت المزارعين فى أمريكا بهم (1990:200-1).

(٦) كما لاحظ هانتنج Hunting ‏(1978)، الحيرة وإساءة الفهم لدى بعض قراء مؤلف مونتسكيو روح القوانين لاستخدامه للسخرية irony، وفكروا أنه مؤيد للعبودية ومعارض لإلغائها. وكتب فليتشر Fletcher ‏(1933) كثيرًا قبل ذلك، ولاحظ أيضا أن سخرية مونتسكيو دفاعا عن العبودية كانت مجرد سوء فهم. وأشار آخرون– من ناحية ثانية– إلى أن غموض استخدامه للغة بالمعارضة للعبودية الاستعمارية كان لاذعا (انظر davis 1971).

(٧) كان مخيبًا للأمل فى كتاب آخر له، ممتاز وتثقيفى عن النظرية الاجتماعية لعصر التنوير الأسكتلندي، وذلك بمناقشته للعبودية دون إشارة لممارستها المعاصرة ولا استجابات المفكرين لها حفاظا عليها من أى تعليق.

(٨) ترسى الدولة والمجتمع المدنى تمييزًا إضافيًا لاختلاف ما قبل الحداثة عن الحداثة، ويكون التصور مع الحداثة فى سياق ادعاءاتها بالعالمية ونمو العلاقات اللاشخصية، سواء بعلاقات تبادل السوق أو الالتزام السياسي؛ بينما ارتبط ما قبل الحداثة– من ناحية أخرى– بعوالم من العلاقات الشخصية وعلاقات العزو. تصور هذا السياق للثغرة بين الحداثة وما قبل الحداثة وضع أيضًا الأسرة، والقرابة عمومًا، خارج المجال العام، مما أذاب الجندر وجعله غير منظور للتحليل الاجتماعى الحديث ومتوازيًا مع العلاقات الاستعمارية. انظر إليشتين Elshtain ‏(1982) فى المقالات القيمة عن الأساليب التقليدية التى عالج بها المنظرون السياسيون مسائل القرابة والأسرة، والاعتراضات المعاصرة لهذا التفكير.

(٩) تعد هذه المسألة فى الوقت الحاضر مجالا للجدل المهتم بالتأثير الحديث للعولمة على العلوم الاجتماعية. وقد نظر تايلور (2000) وبيك Beck (2000)- على سبيل المثال- إلى علوم الاقتصاد، والسياسة، وعلم الاجتماع كعلوم **"تتمركز حول الدولة"**. وتساءل تشيرنليه Chernilo (2006) عن هذه المسئولية **"للمنهجية القومية"**، وناقش بحوث السوسيولوجين الكلاسيكين بتوجهات عالمية. رغم أن تايلور وبيك لم يوجها الاهتمام لمسائل النزعة الاستعمارية، ونزعة ما بعد الاستعمار فى تشكيل مناقشتهم، مما يبدو واضحًا أن السوسيولوجيين وازنوا **"المجتمع"** أو **"الأنساق الاجتماعية"** بـ**"المجتمع القومي"**

(١٠) يفترض هوثورن اعتقاد أغلب المفكرين فى القرنين ١٨ و ١٩ أن "النظام المثالى هو الذى يخلو من التناقض الداخلي" (1976:86). ويذكر مواصلا حديثه- وهكذا- "أصبح من الواضح بقوة لماذا هذا الاشمئزاز من اللاتناغم فى فرنسا وألمانيا؛ لقد كان كل منهما مفككا بأساليبه المختلفة، أحدهما تمزق بأيديولوجياته المتعارضة تماما، والآخر يوجد كمجرد فكرة مع عدم تماسك بنائى على الإطلاق" (1976:86).

(١١) تميزت حداثة الغرب- بالنسبة لفيبر- بنشأة العلمانية، والعقلية النفعية عن طريق الرأسمالية الصناعية، والقانون الرسمي، والإدارة البيرقراطية، ومهنة الزهد الأخلاقى (Brubaker 1984:30). ويظهر هذا متزامنًا مع ازدياد الهيمنة، ونقص الخصوصية، والتحرر من وهم عدم قدرة الافراد على الهروب من "القفص الحديدي" لعالم الحداثة.

(١٢) يمكن بلمسة حداثية، رؤية نظرية **هابرماس** Habermas **حول** الفعل التواصلى من خلال بعض المحللين بوصفها تقدمًا فهمًا نسقيًا للتحديث المجتمعى الذى يكون "قادرًا على تفسير كلا من الإنجاز وأمراض أو باثولوجيات الحداثة" (D'Entreves 1996:1)

(١٣) يظهر فى مقال حديث لبريان تيرنر Bryan Turner (2006) عن "آسيا فى علم الاجتماع الأوروبي" ما يوضح بسهولة قلة الاهتمام بتأثير آسيا داخل علم الاجتماع الأوروبى بالمقارنة بالاهتمام الذى يتبناه السوسيولوجيين الأوروبيين بآسيا.

(١٤) ولكى نقدم نقدًا سوسيولوجيا قويا لهذا الوضع انظر هولمود Holmwood، الذى ناقش أننا "لا نستطيع تصور التطورات والمعضلات الاجتماعية الحالية للحياة العامة فى ضوء مقولات النظريات الاجتماعية الحالية، فمن المحتمل أكثر كمون المشكلة مع النظريات مقارنة "بالواقع" ذاته الذى أصبح فعليًا غير قابل للفهم" (1996:25). ويواصل حديثه "من الصعب مقاومة النتيجة"، ويستمد تصور "كوكبة التشويش" للواقع الاجتماعى للحداثة من الطبيعة **"المشوشة"** للنظرية الاجتماعية

المعاصرة. واذا حدث هذا؛ فإن التحدى لإعادة تشكيل مقولاتها التفسيرية، وليس لتفكيك المعالجة التفسيرية".(1996:25).

(١٥) يناقش ترويلوت trouillot أن رواج "الاختلاف" يمكن أن يتخذ شكلا مضاعفا للتملق فيكون التمجيد "للآخر" أيضًا تمجيدًا للذات أنها "قبلت" الاختلاف وتحديث استدامة الاختلاف إلى حد بعيد بإعادة إنتاج آخرية "الآخر" بوصفها شيئًا ما يُقبل (2003:72,73). "تكون الفرنسية فى كل وقت هى الأصل (فقد منح الفرنسى الأبيض المواطنة الفرنسية منذ أوقات سحيقة) وادعاءات المنح لإفريقى من الشمال، زنجي، أو حتى أصدقاء أوروبيين شرقيين – والتصور المتوقع ضمنيا لذلك الصك -ويؤكد أيضًا حقه أن يكون كلاهما فرنسي – وبذلك تكون العالمية -لا تزال متاحة للتنوع. يثبت هذا الادعاء -أيضًا- أن "الأصدقاء" أصبحوا مجرد – على الأقل للحظة- أمثلة للآخرية ومن ثم بتعريف غير عالمي" (trouillot 2003:75)

الفصل الثالث

من التحديث إلى الحداثات المتعددة: معضلة التمركز حول النزعة الأوروبية

(١) نفترض اتجاه منظرى التحديث، مثل: روستو (1960)، وليرنر (1964) اللذين من المتوقع أن خلفيتهما فى العلوم الاقتصادية؛ تميل إلى رؤية النزعة نحو الحداثة كحاضر فى كل المجتمعات، فى حين تتقولب عن طريق ملامح مؤسسية معينة. ويميل السوسيولوجيون كثيرًا للتأثر بالفهم الفيبرى أن تقليدية الحافز الاقتصادى كانت عائقا للتغلب عليها.

(٢) يعلن بيرنستين Bernstein بوضوح، تعليقا على هذه الدراسة، أننا نادرًا ما نندهش أن ظهور السياسات الأنجلو أمريكية مقاربة لنموذج النسق السياسى للحداثة الذى من المرجح أن يكون نموذجًا يشتق من دراسة السياسات الأنجلو – أمريكية (هامش 10 .(1971: 155,

(٣) اعتقد المنظرون النقديون لمفهوم الحداثة، مثل: بورتس Portes (1973)، أنه إذا حُدِّدت السمات السيكولوجية للحداثة؛ فإنها تمتلك بعض القيم الإيجابية للتقدم الاجتماعى والاقتصادي؛ ولذلك فإنهم بحاجة إلى منحها اهتمامًا جادًا.

(٤) هذا الافتراض موجود لدى ماركس؛ حيث يكتب فى التمهيد لرأس المال، "توضح البلد التى تطورت أكثر، لتلك الأقل تطورًا، صورة مستقبلها" [1867] Marx 1976)) – إضافة إلى منظرى التحديث، مثل: بارسونز (1971) فى فكرته عن الولايات المتحدة بوصفها "مجتمع رائد للحداثة"، ولدى روستو Rostow (1960)، وليرنر (1958) وآخرون.

(٥) يرى بيندكس Bendix، بالنظر للمجتمعات الاستعمارية، ضرورة "الأخذ فى الحسبان نوعين من التقاليد على الأقل... التقاليد الوطنية والتقاليد المزدوجة للمجتمع التى نشأت عن طريق البلد المستعمر" (1967: 323). أى فى سياق "المستعمرات الأوروبية الرائدة خارج الحدود"، وهو من ناحية ثانية، لا يعتقد أن "السكان الوطنيين كانوا... أقوياء بشكل كاف لخلق مشكلة للمجتمع المزدوج" (1967:323). وهكذا فشلوا فى الاهتمام بتأثيرات المستعمَر على المستعمر ورؤية ظهور التغير بوصفه غير موجه (على النقيض، انظر [1982]1997 wolf). بينما يدعو بيندكس Bendix إلى تشكيل الاعتبارات النظرية عن طريق البحث الإمبيريقي- ومن ثم- لا يتم تأييد هذا بالضرورة حتى فى محاولاته الخاصة.

(٦) لم أتعامل مع "**نظرية النسق العالمي**" أو الماركسية مباشرة فى هذا الجزء من الكتاب، أولا بسبب عدم وجود تأثير أساسى للنظرية المذكورة أولا على التشكلات السوسيولوجية المعاصرة للحداثة؛ بينما تتضمن النظرية الأخيرة بالمثل وصفا داخليا للتغير الاجتماعى الذى انتقد بحسابات سوسيولوجية معيارية.

(٧) لا يكون هذا لإنكار التنوع بين مؤسسات جوهرية للدولة، والسوق، والبيروقراطية – وعلى سبيل المثال: يشير هول وسوسكيس Hall and Soskice (2001) إلى تنوع الرأسمالية، وتمييز التنوع الأنجلو – أمريكي، وألماني، ويابانى بين الآخرين – لكن لتحديد أسلوب الاعتقاد فى أن الاختلاف الثقافى ينتج تنوعًا داخل المركب النظامي. الغرض من هذا الفصل نقد انفصال المركب النظامى والبرنامج الثقافى وأسلوب هذا الانفصال، من ثم لمناقشة الأصل الأوروبى للإطار النظامى والتطوير المنفصل عن التقاليد الثقافية التى أصبح ذلك الإطار مطويًا داخلها.

(٨) ينسب أرناسون Arnason (2000) لنظرية التحديث الاعتقاد أن الشيوعية ليست حداثة حقيقية، ويناقش بنفسه حداثتها المتميزة بوصفها واحدة من الحداثات المتعددة .

(٩) يرى ديلانتى Delanty (2006: 267) – الاتجاه المضاد للتمركز حول النزعة الأوروبية – يمتلك أصوله فى أوروبا. بينما- كما رأينا فى الفصل السابق- استطاع الأوروبيون المعارضون للحداثة الارتباط بنسبية القيم التى يدّعى ديلانتى أنها جوهرية للاتجاه المضاد للتمركز حول النزعة الأوروبية، وهناك شيئان نحتاج ذكرهما: الأول- ارتباط العداء للنزعة المتمركزة حول الأوروبية مع اعتناق تقاليد إشكالية ومجرد انقلاب على الوضع الحديث. الثاني- لا يبدو أنه وضع يؤيده ديلانتى نفسه؛ لأنه يبدو شكلا كونيا عالميا يبدو بلا جدال تمركز حول النزعة الأوروبية. فى الحقيقة، ترجمته للكونية فى الحقيقة تشمل الكونية الأوروبية المعيارية والعداء

للخصوصية. ويكتب ديلانتي- على سبيل المثال- عن الكونية العالمية: أن الحداثة "عالمية بالضرورة فى وجهة النظر؛ بينما ظهرت فى البداية فى أوروبا الغربية، إنها ليست غربية أمريكية أو أوروبية؛ لكنها تعبير عن الكونية" (274 :2006). منذ افترضت أن هذه العالمية لها خصوصية أوروبية من الصعب رؤية ما استطاع الأوروبيون المعارضون للتمركز حول النزعة الأوروبية تحقيقه للاتساق مع الكونية. فى الحقيقة ينظر ديلانتى لنظرية نزعة ما بعد الاستعمار بوصفها مشوشة أو مرتبكة confused (267 :2006)، ومن الصعب مقاومة الاستنتاج أن لديه ذلك التشويش أو الارتباك ويشتقه من معارضته التسليم بوجود شيء ما يمكن تعلمه من منظور هؤلاء من خارج التيار السائد للنظرية الاجتماعية المتمركزة حول النزعة الأوروبية.

(١٠) كما لاحظ هاروتينيان Harootunian، فى سياق مختلف؛ لكنه قابل للتطبيق هنا رغم ذلك، "فرنسا، وإيطاليا، وإنجلترا هى أقطار؛ حيث يذهب الناس للدراسة والبحث، أما اليابان، وآسيا، وإفريقيا فهى ميادين تطلبت ملاحظة مباشرة First-hand، وتسجيل، وفى بعض الأمثلة، التدخل" (136 :1999). نعود مع هذا إلى المشكلة التى ألقينا الضوء عليها فى المقدمة والفصل الأول؛ حيث رؤية أوروبا كموقع للابتكار النظرى ويزود باقى العالم ببيانات إمبيريقية لهذه النظريات. رغم عقدين على الأقل من نزعة ما بعد الاستعمار والثقافة الأخرى، ومازال المؤلفون يشعرون بالقدرة على كتابة نظرياتهم بتجاهل لأغلبية العالم ولديهم غطرسة لإثبات أن العالمية ليست قابلة للتطبيق. واذا ما كانت نظريات التحديث الأنعكاسى reflexive modernization وخصوصيتها، للقول على الأقل: إن مناقشة الوضع المهيمن الأحادى والادعاءات لفهمه نفسه (والأخري) خلال تاريخ الفكر الاجتماعي، وكان الوضع المهيمن عمومًا هو الموقف الذى لا يستطيع رؤية غير نفسه، وكان فى حاجة للنقد من مكان آخر!

(١١) إحلال فكرة **"اتفاق تآلف الذوات" intersubjective agreement** محل الأفكار عن **"الموضوعية"** تطورت إلى مدى أبعد عن طريق رورتى Rorty الذى حاول أيضًا أن يتحرك إلى ما بعد اتهام التمركز حول السلالة، بتأييد الحديث عن تمثيلات المجتمعات المحلية الأخرى، ومحاولة نسج معتقداتهم معًا "مع المعتقدات التى لدينا بالفعل" (1987:43). بينما يذهب هذا طريقًا ما لتوجيه الاهتمام لعالمية التمركز حول السلالة لكثير من النظرية، الاجتماعية؛ فإنه يظل أيضًا محتجزًا فى أفكار "نحن" و"هم" التى يفندها هذا الكتاب أساسًا. ويظهر إضافة لذلك، أن حل المشكلة يكمن

فى دمج أشكال المعرفة "الأخرى" فى واحدة تملك مشروعات المعرفة بدون تقدير كاف أن اندماج تلك المعرفة يستلزم إعادة التصور للمشروعات الأصلية، وتظهر هذه الاحتياجات داخل سياق تحليل سياسى لإنتاج معرفة لديها بعض المشروعات مهيمنة على أخرى.

(١٢) من أجل مناقشة الطبيعة القاصرة والمثيرة للجدل لتحليل النموذج المثالى فى سياق علم الاجتماع وعلاقته بالنسوية، انظر هولمود Holmwood (2001).

(١٣) يمكن رؤية التراث الكلاسيكى فى علم الاجتماع أنه يمد بالأساس لدراسات مقارنة ارتبطت مع نظرية التحديث. أسس النموذج المثالى تمييزًا بين المجتمعات التقليدية ومجتمعات الحداثة- على سبيل المثال- اكتشاف أصداء داخل أبحاث سوسيولوجيين مثل: دوركايم، وتونيز، وسبنسر من بين آخرين جميعهم يؤسسون ثنائية جوهرية فى التنظيم الاجتماعى الذى ينسب إلى النموذج "التقليدي" للتنظيم الاجتماعى تأكيدًا بارزًا على النزوع إلى الإجماع وأشكال الضبط غير الرسمى و ... بالنسبة لأشكال "الحداثة" اللاشخصية، والاعتماد المتبادل، والتخصص وأشكال الضبط الرسمي" (Moore1963: 522).

(١٤) يستطيع المنظرون إدراك العنف بالتحول للحداثة فى نفس الوقت كما تمثل الحداثة نفسها فى تجريد من ذلك العنف. وهكذا- يشير جون سكوت John Scott إلى الحداثة بوصفها "حماسة فكرية وبركان اجتماعى حطم عالم العصور الوسطى الأوربية" (1995: 1) وتمثيله للنموذج – المثالى للحداثة أساسًا سلمي. ويكون الاستثناء الوحيد ماركس الذى يرى العنف فى نزع الشرعية من المزارع التعاونية بوصفها إشارة "للعنف" المستمر من شرعية الملكية الخاصة فى الرأسمالية؛ لكن اتجاهه للرأسمالية يكون رؤيته بمصطلحات العمليات الداخلية؛ حيث ارتبط ميكانيزم التحول بالمجتمعات الرائدة للحداثة الرأسمالية.

(١٥) تذهب سوزان رودولف Suzanne Rudolph إلى أن تلك النماذج المثالية مقولات فعالة إلى هذا الحد بوصفها "تجذب الانتباه بشكل كاف للواقع لجعله جديرًا بالثقة حتى بينما يدحضون الواقع فى خدمة الهيراركية الضرورية للهيمنة" (2005:6).

(١٦) يكون مثال ثورة هايتى توضيحيًا هنا فى تلك الفقرة التى تلغى العبودية فى البيان الفرنسى لحقوق الإنسان الذى تضمنه فقط عقب تفويض من مستعمرة قس دومينجو الذى ذهب لفرنسا فى عام ١٧٩٤ وشن جدلا على الجمعية التأسيسية، انظر لمزيد من التفاصيل (Dubois 2004, Fischer 2004, and trouillot 1995).

(١٧) أنا لا أعنى ضمنيًا قبول الادعاءات الأوسع التى شكلها جولد ثورب (1991) عن طبيعة الاختلافات بين التاريخ وعلم الاجتماع؛ فالأول ينبغى أن يستند على "معطيات" حقائق، متضمنة فى "آثار"؛ بينما الثانى يمكن أن يشكل حقائقه من خلال إدارة الاستبيانات وما شابهها. ليست الحقائق التاريخية أقل اصطناعية فى عملية البحث مقارنة بالحقائق الاجتماعية؛ إن ذلك سببًا يجعل التساؤل عن تلك العمليات البحثية ذا أهمية حيوية ويجعل أى اتفاق أساسى على المبادئ بعيد الاحتمال.

الفصل الرابع
أساطير الكمال الثقافى الأوروبى – عصر النهضة:

(١) يذهب بيرك Burke (1964) إلى أن رؤية واقعية المؤرخين، مثل: مكيافيلى Machiavelli بوصفها "**واقعية معرفية**" ارتبطت بتغير عصر النهضة ما وراء تسجيل أحداث لدمج الإحساس بالمنظور أيضًا. وفهم هذا كمتميز عن "**واقعية العصور الوسطى**"- ويتابع- التى كانت رؤيتها تمثل تصويرا طبيعيا ومجردا.

(٢) بينما أشار السوسيولوجيون فى القرن التاسع عشر إلى فترة العصور الوسطى؛ لكى يضيفوا فرعًا مقارنا للحداثة وتأسيس تمييز مقارن بين التقليدية والحداثة (انظر Nisbet 1966:15)، تحول السوسيولوجيون اللاحقون لعصر النهضة بوصفه يضيف سياقا ثقافيا لنشأتها اللاحقة (Nisbet 1973، وانظر أيضًا Stephen toulmin 1990, john scott 1995). وأضاف أيضًا جارنر Garner (1990) أن المؤرخ الكلاسيكى لعصر النهضة، جايكوب بوركهارت Jacob Burckhardt، يجب فهمه بوصفه يفسر بدقة موضوعات "**سوسيولوجية**" بقدر ما يكون "**منظرًا للحداثة**".

(٣) يتشكل الادعاء أحيانا؛ بسبب أنهم يهدفون إلى إحياء الحالة المفقودة، من الصعب رؤية البشر فى عصر النهضة بوصفهم أى شىء آخر غير أنهم محافظون- على سبيل المثال- فيما يتعلق بالإصلاح، يشكل إلتون Elton مناقشة أن : "تفاهة رصيد العمر مع بداية العصور الحديثة (الذى فى حد ذاته مصطلح غير محدد بشكل كاف) إذا كان فقط بسبب أن قادتها المفكرين مصممين على النظر للخلف بدلا من الأمام" (1990:21). ومن ناحية ثانية من الأهمية إلقاء الضوء على استعادة حكمة القدامى التى لا يتم الأخذ بها من أجل الغرض منها؛ لكن فى سياق إرادة تحسين الحاضر. وكان الاعتقاد أن "**الاكتشافات**" الحديثة لكوبرنيكوس Copernicus وكولمبوس Columbus وسّعت نطاق العالم المعروف، وبإنجاز هذا؛ كان لديها تفوق على إنجازات القدامى. وأسهم هذا- بدور كبير- لإحساسهم بالاختلاف والتفوق على العالم القديم (انظر Pagden 1993).

(٤) نشأت هذه الأنماط المدنية Secular modes للتعلم، واستخدمت -غالبا- للبرهنة أن عصر النهضة نفسه يمكن رؤيته كحركة مدنية ذات تحدٍ إنسانى لاحتكار الكنيسة المفرط للتعليم الذى رؤى فى الوقت الحاضر كمثال أولى لهذا التغير بعيدًا عن أهمية وسلطة الدين. يغفل هذا- من ناحية ثانية- حقيقة أن الكنيسة، والنصرانية أكثر عمومية، وأنها استمرت فى لعب دور مهم فى كل من الشئون الاجتماعية والسياسية، وأنه لا توجد ضرورة لانحدار العاطفة الدينية فى هذه الفترة (انظر : Ferguson 1953).

(٥) حول تطور الوعى التاريخى فى هذه الفترة وعلاقته بالاتجاهات التأريخية الأوروبية الأخيرة، انظر بيزما Bouwsma (1965).

(٦) ادعاء رايس وجرافتون Rice and Grafton أن "أنتجت الحضارة الغربية الحديثة [فقط] علمًا متطورًا تمامًا... مختلفًا جدًا وأكثر نجاحًا إلى حد بعيد مقارنة بعلوم اليونانيين القدامى، وعرب العصور الوسطى، والهنود، والصينيين" (18 :[1970]1994) يكون مألوفًا داخل التيار السائد للتراث عن الموضوع.

(٧) يوجد افتراض داخل علم العلاقات الدولية أن – رغم من التقاليد المختلفة التى ربما ينتمى لها المنظرون – جميعهم يتفقون على أن "مفاوضات ويستفاليا كانت نقطة تحول حاسمة... [تضفى الصفة الرسمية على] العلاقات بين الدول الحديثة المهيمنة" (Teschke 2003: 2) . حتى بعض العلماء الذين ناقشوا فرضية الخصوصية هذه- من ناحية ثانية- لم يبدوا ارتيابهم "لتطور وديناميات نسق الدول الأوروبية" (teschke 2003:4)؛ لكن إلى حد ما تساءلوا عن التفسيرات المهيمنة عليها.

(٨) تمثل المحاولة لتأسيس سلسلة نسب عامة من خلال تصنيف إضافى للغات مثالا لهذا – يناقش أولندر Olender (1994) –على سبيل المثال– كيف أدى البحث عن اللغة "الأصلية" لآدم وحواء إلى "تطهير" اللغات الأوروبية وفقًا، للأزمنة المختلفة، وخفض التأكيد على التأثيرات الشرقية، والسامية، والتأثيرات الأخرى. لتكوين أى إحساس، بالحدود ينتزع لخلق اتساق وتماسك داخلى حتى إذا كانت هذه الحدود لا ترتبط بدقة بلغات يستخدمونها. ويذهب سعيد إلى أن التأكيد على إظهار الراديكالية والاختلافات المتعذر استئصالها بين اللغات "وضع حدودًا واقعية بين الكائنات البشرية... وأجبر الرؤية على الابتعاد عما هو عام؛ إضافة لتعددية الوقائع الإنسانية" (1978: 233).

(٩) يذهب رابيل Rabil، فى مقدمة مؤلفه "**إنسانية عصر النهضة**": إلى أن "الأساس لأكثر دراسة شاملة عن أصولها لكريستيلر Kristeller الذى أسس بفعالية الافتراض أن الإنسانية جزء من التراث الخطابى المنمق الذى كان جانبًا متصلا بالحضارة الغربية منذ العصور القديمة الكلاسيكية. وتمتلك الإنسانية، إضافة لذلك، جذورًا معينة فى ثقافة العصور الوسطى التى نشأت منها" (1988:13).

(١٠) تكون المسألة المفتاحية هنا- بالنسبة لجونز (1998) johns- خلق ثقة فى الكلمة المطبوعة -كما يشير- إلى أن هذه الثقة ليست *متأصلة* فى النصوص ذاتها، لكنها تولدت فى سياقات اجتماعية معقدة تشكلت عن طريق كل من الطباعة وقراءة الممارسات. وهكذا المسألة بدرجة أقل كما يفترض أيزنستاين Eisenstein(1969)- حول "**ثبات المعرفة**" بالمقارنة- كما يشير جونز- بإقناع كاف للشعب بكمال تلك المعرفة.

(١١) تضيف مايا جاسانوف (2005) Maya jasanoff وصفًا ممتازًا لكيف أن الأسواق بواسطة السلع، والخصوصية بواسطة التراكم تطورت وامتدت من كلا "**الجانبين**" من خلال التوسع الإمبريالى فى القرون اللاحقة.

(١٢) يوثق بارتليت Bartlett كيف أشار فرانك "Frank" إلى الغربيين كمستعمرين أو عن الإرساليات العدائية بعيدًا عن الوطن ويكتب أن "لهذا السبب تمامًا حينما وصل البرتغاليون والإسبانيون بعيدًا عن السواحل الصينية فى القرن السادس عشر، أطلق السكان المحليون عليهم *فولانج كى* Fo-lang- Ki، اسم كُيِّف من *فرنجة* *Faranga* التجار العرب. حتى فى القرن ١٨ حمل القسم الهمجى الغربى اسم أسلافه الغزاة" (1993:105). ويمكن إضافة لذلك افتراض أن "الغريب" الإنجليزى أتى من "**الفرنجي**" الهندى وتعنى اللامنتمى outsider.

الفصل الخامس
أساطير الدولة – الأمة الحديثة – الثورة الفرنسية

(١) لمناقشة الطبيعة الخلافية لتفسيرات الثورة الفرنسية انظر Cavanaugh 1972, Furet 1981 [1978], 1990, sprang 2003.

(٢) كما يناقش فورد Ford(1963)، كان دو توكفيل De Tocqueville استثناءً جديرًا بالذكر لهذا الاتجاه، كما يرى لفهم الثورة بمصطلحات التاريخ لما سبقها، وذلك يكون بمصطلحات النظام القديم. انظر أيضا Furet (1981[1978], 1990).

(٣) كما يناقش بوكوك Pocock، فى سياق الدساتير التى دائمًا تخضع لتغير تاريخي، لا تستطيع السلطة الاستناد لفترة أطول لمبادئ العصور القديمة وهكذا بدأت الحالة تتشكل من أجل رؤية "السيادة" "كسلطة مطلقة لما يلجأ له ويتشكل فى ظروف متقلبة وغير خاضعة لسيطرة القانون" (95 :1985). إضافة لذلك بينما أمكن مناقشة تلك البحوث عن الطبيعة وحدود القوة السياسية؛ فإنها تخللت بقدر ما عن نشأة أفكار القوة السياسية، واشتد هذا الجدل فى القرن السادس عشر مع انشقاق فى النصرانية و"الاكتشاف" "للعالم الجديد".

(٤) تمتلك محاولات الانفصال من ادعاءات السيادة البابوية تاريخًا أطول كالحروب الطويلة بين البابا الكنسى والإمبراطور الرومانى المقدس فى إشارة للعصور الوسطى (انظر Elliott 1975 Holmes, 1968).

(٥) من ناحية ثانية، تُصُوِّر أن الثورة الفرنسية لم تكن المثال الأول للاعتراض على مركزية الملك فى الحياة السياسية – كانت الحرب الأهلية الإنجليزية –على سبيل المثال– مثالا مبكرا داخل أوروبا وقدمت نشأة الجمهوريات فى الهند فى فترة مماثلة أمثلة غير – أوروبية (Thapar 1966)– ولم يكن فى بادئ الأمر افتراض أن القوة السياسية كامنة فى الشعب. وما كان ذو أهمية حول الثورة الفرنسية والحروب النابليونية اللاحقة هو انتشار هذه الأفكار – والمثال لنجاحهم فى الممارسة.

(٦) من أجل مناقشة الأساليب التى بها نفذت لغة الحقوق إلى مستعمرات الكاريبى الفرنسى كان التحول من خلال ثورات "العبيد" فى تلك الجزر – ومع ذلك التحول كان دعم الصدى فى فرنسا إضافة إلى كل مكان فى الإمبراطورية الفرنسية – انظر (2004) Dubois. وجه سيدبرى Sidbury (1997) اهتمامه أيضًا للأساليب التى ألهمت العبيد فى فرجينيا عن طريق أحداث قديس دومينجو فى نضالهم من أجل التحرر، وبهذا، كانوا مفيدين فى الانتشار الإضافى للغة الحقوق عبر الأمريكتين.

(٧) كان تأسيس "الطبقة" فى القرن ١٩ كواحدة من المقولات الرئيسية فى التحليل الاجتماعى ومن ثم كانت رؤية إضافة مقولات لها مثل "الجندر" و "نزعة ما بعد الاستعمار". بقدر ما فشلت فى تصور – من ناحية ثانية– أن "الطبقة" مقولة داخلية متشابكة مع الجدل المُهيمن على الحداثة فى حين كان "الجندر" و "نزعة ما بعد الاستعمار" مواضع للنقد من "خارج" الفهم المعترف به.

(٨) من أجل مناقشة السيادة من منظور يعترف بتعددها وارتباطها بالتحولات داخل الفترة الحديثة والتركيز على تطورات وعمليات فى أجزاء من العالم من المعتاد تجاهلها، انظر Shilliam (2006).

(٩) رغم إشارة تـالمون talmon، إلـى أن القوميـة القاريـة continental nationalism لم تكن ظاهرة جماهيرية، فى الغالب "كانت حركة لعـدد مـن الأقليـات، وتـسبقهم الإنتلجنسيا" (1967:107).

(١٠) يرى فوكو Foucault مشكلة الحكومة تكمن فى الحركة الثنائية "لمركزية الدولة من ناحية والتشتت والانشقاق الدينى من ناحية أخرى" (88 :1991)، الحركة التى -وفقا له- ظهرت خلال الغرب فى القرن ١٨ (103 ,1991:102). وأعلن أن هدفه كـان "لتوضيح كيف كانت ولادة الحوكمة بعيدة عن- من ناحية- النموذج القديم للأبرشية النصرانية- ومن ناحية أخرى- تقنية الدبلوماسية - العسكرية، تمامًـا بالمقيـاس الأوروبى مع معاهدة ويستفاليا" (104 :1991): ولم يحصل الاستعمار علـى تنويـه أيضًا.

(١١) يوجه عديد من المؤرخين والمنظرين (على سبيل المثـال Mann 1993, Lieberman 1999) الاهتمام لنشأة نظم الحكم المستندة للإثنية من الكونية الـسابقة، أو أشـكال الوجود الحضارى بوصفها تشير إلى التوتر الأول بين الطموحات العالمية للكنيسة وتلك الأكثر خصوصية إثنية. إنهم يفشلون بفعل هذا- من ناحية ثانية- فى تصور أنه حتى إذا كانت "**إثنية أصلية**" proto-ethnic أو "**قومية أصـلية**" proto-national يمكن تعريف التوترات أحيانًا فى بداية الفترة الحديثة، كان ما يزال تعريف سـمه هذه المجتمعات التوتر "بين الثقافة الراقية التى خلقت ونشرت عن طريق الصفوات الجديدة والقيم المحلية أو الإقليمية والتضامن الذى يُهيمن فـى العمليـة" (Moore 1997:597). وهكذا، يوجد تساؤل عن الأهمية، والتاريخ، "**للاإثنيات**".

(١٢) يناقش رودريجيز سالغادو Rodriguez – Salgado، أحد نتائج الأيديولوجيا السياسية للقرن التاسع عشر، إننا الآن أقل استعدادًا لفهم أشكال الهوية القومية التى لا تستند على أفكار استثنائية للوطنية، وإضافة لذلك، أننا غير قادرين على دمج فهم ريـادة الشعب الحديث، "بصفة خاصة هؤلاء الذين يعيشون فى ملكيات مركبـة"، بكـونهم لديهم حساسية للارتباط بطبقات متعددة ومعنى يمنح علامة لحياتهم (1998:234).

(١٣) هذا المصطلح مأخوذ مـن دراسـة جوهـانس فابيـان Johannes Fabian (1983) الزمن والآخر ويناقش فيه "الحداثة" فى سياق كونها مشكلة أنثروبولوجية مع الزمن فى سياق فهم "**الذات**" و"**الآخر**" (1983:37).

الفصل السادس
أساطير الرأسمالية الصناعية – الثورة الصناعية

(١) رغم أن هذا لا يكون لافتراض أن الاهتمام "**بتفاصيل**" الثورة الصناعية ضعيف على الإطلاق (انظر – على سبيل المثال – Hoppit 1990). فـي الحقيقـة، أدت الخلافـات – غالبا – حول "**التفاصيل**" إلى مناقشات، ونزاعات، وتحولات للأطر التـي تموضـعت التفاصيل بداخلها.

(٢) ليس هذا لافتراض أن الانتقادات المبكرة للتصنيع غير موجـودة. ويـذهب كـوهين Cohen (1969) إلى أن بونيلد Bonald –على سبيل المثال– يكتب في بدايـة القـرن ١٩، وتنبأ سابقًا بهجوم على النظام الصناعي بانتقاداته المتحجرة للتصنيع؛ فقد تحدث أن فيه "مـرض" للتجارة والصناعة وشجب نشأة الاقتصاد الصناعي لاسـتناده إلـى الاستغلال والبؤس الإنساني.

(٣) مناقشة هذا الإصلاح عن طريق بيرغ وهدسون Berg and Hudson (1992)– علـى سبيل المثال– بالمعارضة لما أطلق عليه دو فرى De vries (1994) "**ثـورة أوائـل الحداثيين**"، يكون ذلك، تيار تدريجي أرثونكسى الذى ذهب بيرغ وهودسون إلى أنه يلعب دورًا أقل في امتداد التحول الاجتماعي والاقتصادى الواضح للمنظـرين عبـر الزمن. قدمت المناقشات الحديثة رؤية عن الثورة الصناعية كفتـرة متميـزة، غيـر متواصلة، انظر أيضًا Hoppit (1990), and Greasley and Oxley (1994).

(٤) يكتب ماركس– على سبيل المثال– في منتصف القرن التاسع عـشر، عـن تـرابط التصنيع بالتحضر بالبروليتاريا، ويواصل تونيز Tonnies (1955[1887])– بالمثـل– التمييز بين المجتمع المحلى Gemeinschaft[**بالألمانية**]؛ حيـث الأسـرة المبكـرة، والشيوعية، والمستندة إلى مجتمع طبيعي، وبين المجتمع Gesellschaft [**بالالمانية**]، نـشأة الفردية، التعاقد، والمجتمع الحديث الميكانيكي؛ حيث كانت المدينة نموذجًا أصليا.

(٥) وفيما يتعلق بالتساؤل عن العبيد وتجارة السكر في غرب الإنديز، لدى سميث مـا يقولـه فيما يلى (وهذا في سياق مناقشة؛ حيث يذهب سميث إلى أن العمالة الحـرة أساسًـا أرخص مقارنة بعمالة الرق): "وكأنه لا يوجد أسس للتفكيـر أن الزنـوج الأحـرار سوف يكونوا في أى وقت– بإجماعهم– يباشرون الكدح لزراعة السكر، ويبـدو أن العمل الإجبارى أو عمل العبيد ليس فحسب الأرخص الذى أمكن اسـتخدامه هكـذا؛ لكنه تقريبًا لا مفر منه لمواصلة العمل" (1863[1776]: 610). انظـر موثـو Muthu (2003) ومن أجل مناقشة بحث دايديروت Diderot – المعاصرة لسميث – الذى بـدأ من موقف المعارضة للأفعال البربرية للأوربيين نحو غير – الأوروبيين.

(٦) لا يسلم هذا الفهم- من ناحية ثانية- بمناقشة أن أغلبية السلع البريطانية لم يكن إنتاجها من أجل الاستهلاك الداخلي؛ لكن للتصدير وذلك القدر من السلع الذى اشترى من المستعمرات كان أيضًا من أجل التصدير ثانية، وكأنها تعارض الاستهلاك المحلى (انظر washbrook 1997, Frank 1998).

(٧) من أجل مناقشة التفسيرات المختلفة المفترضة لتفوق إنجلترا وصعوبات التحقق من "لماذا" كانت إنجلترا الأولى، بصفة خاصة فى العلاقة بالتطورات فى فرنسا، انظر كرافتس Crafts (1977) الذى افترض أن التساؤل هو السؤال الحقيقى عن لماذا كانت إساءة فهم إنجلترا من البداية.

(٨) كما يكتب أو هيرن O'Hearn (1994) فى سياق مناقشة العلاقة بين صناعات القطن الأيرلندية والبريطانية، يكون فشل صناعة القطن الأيرلندية عمومًا منسوبًا إلى جوانب الضعف الداخلية، مثل: نقص روح تنظيم المشروعات والفشل فى التحديث مع تصور ضيق للأسلوب الذى كان به القطن الأيرلندى فى المحيط عن طريق بريطانيا. بجانب هذا، يكون أيضا عزو نجاح بريطانيا لعوامل داخلية، وروح الابتكار، والمركزية الإنجليزية للثورة الصناعية،..إلخ. وتكون الأهمية للإمبراطورية والعلاقات بالهيمنة الاستعمارية نادرًا ما تُتَأمَّل. ليس فقط تأثير الإمبراطورية لا يتأمَّل بهذه الوسائل؛ لكن الإسهام الذى تشكل عن طريق المهاجرين من أيرلندا وفى مكان آخر لم تصوره رسميًا- على سبيل المثال- فى تشكل شبكة النقل التى أخذ بها لتكمل نجاح الثورة الصناعية فى إنجلترا.

(٩) يناقش هيجمان Higman (2000) أن يسبق كل السلع الأخرى، كون إنتاج وتجارة السكر خلقت كل من اقتصاديات المزرعة ومجتمعات العبيد (مع $\frac{٢}{٣}$ من كل الناس جلبوا من إفريقيا قدرهم للعالم الجديد من أجل مستعمرات السكر) إضافة إلى توليد معظم الأرباح لهؤلاء المتضمنين فى هذه الصناعة.

(١٠) رغم وجود التصور- كما يناقش ويليامز Williams (1940)- أن الزنوج لم يكونوا مشهدا بارزًا فى بريطانيا فى أوائل $\frac{٣}{٤}$ القرن ١٩، أو على الأقل ليس فى لندن. يشكل بك- مورس Buck-Morss (2000) بالمثل مناقشة أن العبيد الأفارقة كانوا موجودين فى الجمهورية الهولندية، بريطانيا، وفرنسا.

(١١) تشكل هذا بوضوح إذا غيرنا بعد المنظور من نتائج الحداثة التى رأيناها من باريس نحو اليعقوبيين الزنوج فى قديس دومينجو (Bhabha 1994: 244) .

المراجـــع

Abu-Lughod, Janet L. (1989) *Before European Hegemony: The World System A. D. 1250–1350* (Oxford: Oxford University Press).

Al-Azmeh, Aziz (1992) 'Barbarians in Arab Eyes' *Past and Present* 134, February, pp. 3–18.

Alexander, Jeffrey C. (1995) *Fin de Siècle Social Theory: Relativism, Reduction, and the Problem of Reason* (London: Verso).

Almond, Gabriel A. and James S. Coleman (eds) (1960) *The Politics of Developing Areas* (New Jersey: Princeton University Press).

Alvares, Claude (1991) *Decolonizing History: Technology and Culture in India, China and the West 1492 to the Present Day* (Goa: The Other India Press).

Amin, Samir (1972) 'Underdevelopment and Dependence in Black Africa – Origins and Contemporary Forms' *The Journal of Modern African Studies* 10/4, pp. 503–24.

Amin, Samir (1977) *Imperialism and Unequal Development* translated from the French (Hassocks: Harvester Press).

Amin, Samir (1989) *Eurocentrism* translated by Russell Moore (New York: Monthly Review Press).

Anderson, Benedict (1996) *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism* (London: Verso).

Appadurai, Arjun (1981) 'The Past as a Scarce Resource' *Man* 16/2, pp. 201–19.

Appadurai, Arjun (1988) 'Putting Hierarchy in its Place' *Cultural Anthropology* 3/1, pp. 36–49.

Appiah, Kwame A. (1991) 'Is the Post- in Postmodernism the Post- in Postcolonial?' *Critical Inquiry* 17/2, pp. 336–57.

Apter, David E. (1965) *The Politics of Modernization* (Chicago: University of Chicago Press).

Ariès, Philippe (1965 [1960]) *Centuries of Childhood: A Social History of Family Life* (New York: Random House).

Arnason, Johann P. (2000) 'Communism and Modernity' *Daedalus: Multiple Modernities* 129/1, pp. 61–90.

Arnason, Johann P. (2003) 'Entangled Communisms: Imperial Revolutions in Russia and China' *European Journal of Social Theory* 6/3, pp. 307–25.

Arnold, David (1993) *Colonizing the Body: State, Medicine and Epidemic Disease in Nineteenth-Century India* (New Delhi: Oxford University Press).

Arnold, David (2000) *The New Cambridge History of India: III.5 Science, Technology and Medicine in Colonial India* (Cambridge: Cambridge University Press).

Assassi, Libby (forthcoming) *The Gendering of Global Finance* (Basingstoke: Palgrave Macmillan).

Badham, Richard (1984) 'The Sociology of Industrial and Post-Industrial Societies' *Current Sociology: The Journal of the International Sociological Association* 32/1, pp. 1–141.

Baehr, Peter (2002) 'Identifying the Unprecedented: Hannah Arendt, Totalitarianism, and the Critique of Sociology' *American Sociological Review* 67/December, pp. 804–31.

Baker, Keith M. (1989) 'Closing the French Revolution: Saint-Simon and Comte' in François Furet and Mona Ozouf (eds) *The French Revolution and the Creation of Modern Political Culture, Volume 3: The Transformation of Political Culture 1789–1848* (Oxford: Pergamon Press), pp. 323–39.
Barlow, Tani (1997) *Formations of Colonial Modernity in East Asia* (Durham: Duke University Press).
Bartelson, Jens (1995) *A Genealogy of Sovereignty* (Cambridge: Cambridge University Press).
Bartlett, Robert (1993) *The Making of Europe: Conquest, Colonization, and Cultural Change 950–1350* (London: The Penguin Press).
Bauman, Zygmunt (1987) *Legislators and Interpreters: On Modernity, Post-Modernity and Intellectuals* (Oxford: Polity Press).
Bayly, Christopher A. (1993) 'Knowing the Country: Empire and Information in India' *Modern Asian Studies Special Issue: How Social, Political and Cultural Information is Collected, Defined, Used and Analyzed* 27/1, pp. 2–43.
Beck, Ulrich (2000) *What is Globalization?* (Cambridge: Polity Press).
Beck, Ulrich (2006) *Cosmopolitan Vision* (Cambridge: Polity Press).
Bell, Daniel (1974) *The Coming of Post-Industrial Society: A Venture in Social Forecasting* (London: Heinemann).
Bell, Daniel (1976) *The Cultural Contradictions of Capitalism* (London: Heinemann).
Ben-David, Joseph (1965) 'The Scientific Role: The Conditions of its Establishment in Europe' *Minerva* 4, pp. 15–54.
Bendix, Reinhard (1967) 'Tradition and Modernity Reconsidered' *Comparative Studies in Society and History: An International Quarterly* IX, pp. 292–346.
Berg, Maxine and Pat Hudson (1992) 'Rehabilitating the Industrial Revolution' *The Economic History Review: New Series* 45/1, pp. 24–50.
Bernal, Martin (1987) *Black Athena: The Afroasiatic Roots of Classical Civilization Volume 1 The Fabrication of Ancient Greece 1785–1985* (London: Free Association Books).
Bernstein, Henry (1971) 'Modernization Theory and the Sociological Study of Development' *Journal of Development Studies* 7/2, pp. 141–60.
Berry, Christopher J. (1997) *Social Theory of the Scottish Enlightenment* (Edinburgh: Edinburgh University Press).
Best, Steven and Douglas Kellner (1991) *Postmodern Theory: Critical Interrogations* (London: Macmillan).
Bhabha, Homi K. (1992) 'Postcolonial Criticism' in Stephen Greenblatt and Giles B. Gunn (eds) *Redrawing the Boundaries: The Transformation of English and American Literary Studies* (New York: Modern Language Association of America), pp. 437–57.
Bhabha, Homi K. (1994) *The Location of Culture* (London: Routledge).
Biccum, April R. (2002) 'Interrupting the Discourse of Development: On a Collision Course with Postcolonial Theory' *Culture, Theory and Critique* 43/1, pp. 33–50.
Blackburn, Robin (1997) *The Making of New World Slavery: From the Baroque to the Modern 1492–1800* (London: Verso Books).
Blaut, James M. (1993) *The Colonizer's Model of the World: Geographical Diffusionism and Eurocentric History* (London: The Guildford Press).
Bluestone, Barry and Bennett Harrison (1982) *The Deindustrialization of America: Plant Closings, Community Abandonment, and the Dismantling of Basic Industry* (New York: Basic Books).

Blumenberg, Hans (1983) *The Legitimacy of the Modern Age* translated by R. M. Wallace (London: MIT Press).
Boas, Marie (1962) *The Scientific Renaissance 1450–1630* (London: Collins).
Bonnett, Alastair (2005) 'Occidentalism and Plural Modernities: Or How Fukuzawa and Tagore Invented the West' *Environment and Planning D: Society and Space* 23/4, pp. 505–25.
Bordo, Susan (1986) 'The Cartesian Masculinization of Thought' *Signs* 11/3, pp. 439–56.
Bouwsma, William J. (1965) 'Three Types of Historiography in Post-Renaissance Italy' *History and Theory* 4/3, pp. 303–14.
Bouwsma, William J. (1979) 'The Renaissance and the Drama of Western History' *The American Historical Review* 84/1, pp. 1–15.
Boxer, C. R. (1984) 'When the Twain First Met: European Conceptions and Misconceptions of Japan, Sixteenth-Eighteenth Centuries' *Modern Asian Studies: Special Issue: Edo Culture and Its Modern Legacy* 18/4, pp. 531–40.
Bradner, Leicester (1962 [1953]) 'From Petrarch to Shakespeare' in *The Renaissance: Six Essays* edited for the Metropolitan Museum of Modern Art, New York (New York: Harper Torchbooks), pp. 97–120.
Braudel, Fernand (1977) *Afterthoughts on Material Civilization and Capitalism* translated by Patricia M. Ranum (New York: The Johns Hopkins University Press).
Brenner, Robert (1976) 'Agrarian Class Structure and Economic Development in Pre-Industrial Europe' *Past and Present* 70, February, pp. 30–75.
Brenner, Robert (1977) 'The Origins of Capitalist Development: A Critique of Neo-Smithian Marxism' *New Left Review* 104, pp. 25–92.
Briggs, Asa (1960) *The Age of Improvement 1783–1867* (London: Longmans).
Broers, Michael (1989) 'Italy and the Modern State: The Experience of Napoleonic Rule' in François Furet and Mona Ozouf's (eds) *The French Revolution and the Creation of Modern Political Culture, Volume 3: The Transformation of Political Culture 1789–1848* (Oxford: Pergamon Press).
Broers, Michael (1996) *Europe Under Napoleon 1799–1815* (London: Arnold).
Brooke, Christopher (1969) *The Twelfth Century Renaissance* (London: Thames and Hudson).
Brubaker, Roger (1984) *The Limits of Rationality: An Essay on the Social and Moral Thought of Max Weber* (London: George Allen and Unwin).
Bryant, Joseph M. (1994) 'Evidence and Explanation in History and Sociology: Critical Reflection on Goldthorpe's Critique of Historical Sociology' *The British Journal of Sociology* 45/1, pp. 3–19.
Buck-Morss, Susan (2000) 'Hegel and Haiti' *Critical Inquiry* 26, Summer, pp. 821–65.
Burckhardt, Jacob (1990 [1860]) *The Civilization of the Renaissance in Italy* translated by S. G. C. Middlemore (London: Penguin Books).
Burger, Thomas (1987) *Max Weber's Theory of Concept Formation: History, Laws, and Ideal Types* (Durham: Duke University Press).
Burke, Peter (1964) *The Renaissance* (London: Longman).
Burke, Peter (1990) 'Introduction: Jacob Burckhardt and the Italian Renaissance' in Jacob Burckhardt (1990 [1860]) *The Civilization of the Renaissance in Italy* (London: Penguin Books), pp. 1–16.
Burke, Peter (1992) *History and Social Theory* (Cambridge: Polity Press).
Butterfield, Henry (1957) *The Origins of Modern Science 1300–1800* (London: G. Bell and Sons Ltd.).
Butzer, Karl W. (1992) 'From Columbus to Acosta: Science, Geography, and the New World' *Annals of the Association of American Geographers: The Americas Before and After 1492: Current Geographical Research* 82/3, pp. 543–65.

Bythell, Duncan (1993) 'Women in The Work Force' in Patrick K. O'Brien and Ronald Quinault (eds) *The Industrial Revolution and British Society* (Cambridge: Cambridge University Press).

Calhoun, Craig (1996) 'Whose Classics? Which Readings? Interpretation and Cultural Difference in the Canonization of Sociological Theory' in Stephen P. Turner (ed.) *Social Theory and Sociology: The Classics and Beyond* (Oxford: Blackwell Publishers), pp. 70–97.

Callinicos, Alex (1999) *Social Theory: A Historical Introduction* (Cambridge: Polity Press).

Cannadine, David (1984) 'The Present and the Past in the English Industrial Revolution 1880–1980' *Past and Present* 103, May, pp. 131–72.

Cannadine, David (2001) *Ornamentalism: How the British Saw Their Empire* (Oxford: Oxford University Press).

Carr, E. H. (1945) *Nationalism and After* (London: Macmillan).

Carrier, James G. (1995) 'Introduction' in James G. Carrier (ed.) *Occidentalism: Images of the West* (Oxford: Clarendon Press), pp. 1–32.

Carrithers, D. (1995) 'The Enlightenment Science of Society' in Christopher Fox, Roy Porter and Robert Wokler (eds) *Inventing Human Science: Eighteenth Century Domains* (Berkeley: University of California Press), pp. 232–70.

Cavanaugh, Gerald J. (1972) 'The Present State of French Revolutionary Historiography: Alfred Cobban and Beyond' *French Historical Studies* 7/4, pp. 587–606.

Césaire, Aimé (1972 [1955]) *Discourse on Colonialism* translated by Joan Pinkham (New York: Monthly Review Press).

Chakrabarty, Dipesh (1992) 'Postcoloniality and the Artifice of History Who Speaks for "Indian" Pasts?' *Representations: Special Issue: Imperial Fantasies and Postcolonial Histories* 37, Winter, pp. 1–26.

Chakrabarty, Dipesh (1994) 'The Difference – Deferral of a Colonial Modernity: Public Debates on Domesticity in British Bengal' in David Arnold and David Hardiman (eds) *Subaltern Studies, VIII: Essays in Honour of Ranajit Guha* (New Delhi: Oxford University Press).

Chakrabarty, Dipesh (2000) *Provincializing Europe: Postcolonial Thought and Historical Difference* (Princeton: Princeton University Press).

Chakrabarty, Dipesh (2002) *Habitations of Modernity: Essays in the Wake of Subaltern Studies* (Chicago: University of Chicago Press).

Chatterjee, Partha (1986) *Nationalist Thought and the Colonial World: A Derivative Discourse* (London: Zed Books).

Chatterjee, Partha (1994) 'Claims on the Past: The Genealogy of Modern Historiography in Bengal' in David Arnold and David Hardiman (eds) *Subaltern Studies, VIII: Essays in Honour of Ranajit Guha* (New Delhi: Oxford University Press), pp. 1–49.

Chatterjee, Partha (1996) 'Whose Imagined Community?' in Gopal Balakrishnan (ed.) *Mapping the Nation* (London: Verso), pp. 214–25.

Chernilo, Daniel (2006) 'Sociology's Methodological Nationalism: Myth and Reality' *European Journal of Social Theory* 9/1, pp. 5–22.

Cocks, Joan (2002) *Passion and Paradox: Intellectuals Confront the National Question* (Princeton: Princeton University Press).

Cohen, D. K. (1969) 'The Vicomte de Bonald's Critique of Industrialism *The Journal of Modern History* 41/4, pp. 475–84.

Cohn, Bernard S. (1996) *Colonialism and its Forms of Knowledge: The British in India* (New Jersey: Princeton University Press).

Cohn, Bernard S. and N. B. Dirks (1988) 'Beyond the Fringe: The Nation-State, Colonialism, and The Technologies of Power' *Journal of Historical Sociology* 1/2, pp. 224–8.
Colley, Linda (1992) *Britons: Forging the Nation 1707–1837* (New Haven: Yale University Press).
Colley, Linda (2002) *Captives: Britain, Empire and the World 1600–1850* (New York: Pantheon Books).
Comaroff, Jean and John Comaroff (1993) 'Introduction' in Jean Comaroff and John Comaroff (eds) *Modernity and its Malcontents: Ritual and Power in Postcolonial Africa* (Chicago: University of Chicago Press), pp. xi–xiv.
Comte, Auguste (1903 [1844]) *A Discourse on the Positive Spirit* translated by Edward Spencer Beesly (London: William Reeves).
Cook, Harold J. (1993) 'The Cutting Edge of a Revolution? Medicine and Natural History near the Shores of the North Sea' in J. V. Field and Frank A. J. L. James (eds) *Renaissance and Revolution: Humanists; Scholars, Craftsmen and Natural Philosophers in Early Modern Europe* (Cambridge: Cambridge University Press), pp. 45–61.
Cooper, Frederick and Randall Packard (eds) (1997) *International Development and the Social Sciences: Essays on the History and Politics of Knowledge* (Berkeley: University of California Press).
Coser, Lewis A. (1971) *Masters of Sociological Thought: Ideas in Historical and Social Context* (New York: Harcourt Brace Jovanovich).
Crafts, N. F. R. (1977) 'Industrial Revolution in England and France: Some Thoughts on the Question, "Why was England First"' *The Economic History Review: New Series* 30/3, pp. 429–41.
Cranston, Maurice (1988) 'The Sovereignty of the Nation' in C. Lucas (ed.) *The French Revolution and the Creation of Modern Political Culture, Volume 2: The Political Culture of the French Revolution* (Oxford: Pergamon Press).
Crossley, Ceri (1993) *French Historians and Romanticism: Thierry, Guizot, the Saint-Simonians, Quinet, Michelet* (Routledge: London).
Daedalus (1998) 'Early Modernities' 127(3).
Daedalus (2000) 'Multiple Modernities' 129(1).
Das, Veena (1989) 'Discussion: Subaltern as Perspective' in Ranajit Guha (ed.) *Subaltern Studies VI: Writings on South Asian History and Society* (New Delhi: Oxford University Press), pp. 310–24.
Das Gupta, Ashin (1985) 'Indian Merchants and the Western Indian Ocean: The Early Seventeenth Century' *Modern Asian Studies: Special Issue: Papers Presented at the Conference on Indian Economic and Social History, Cambridge University, April 1984* 19/3, pp. 481–99.
Davis, David Brion (1971) 'New Sidelights on Antislavery Radicalism' *The William and Mary Quarterly* 28/4, pp. 585–94.
Deane, Phyllis and W. A. Cole (1962) *British Economic Growth 1688–1959: Trends and Structure* (Cambridge: Cambridge University Press).
Delanty, Gerard (1999) *Social Theory in a Changing World: Conceptions of Modernity* (Cambridge: Polity Press).
Delanty, Gerard (2004) 'Multiple Modernities and Globalization' *ProtoSociology* 20, pp. 162–182.
Delanty, Gerard (2006) 'Modernity and the Escape from Eurocentrism' in Gerard Delanty (ed.) *Handbook of Contemporary European Social Theory* (London: Routledge), pp. 266–78.

d'Entreves, M. P. (1996) 'Introduction' in M. P. d'Entreves and Seyla Benhabib (eds) *Habermas and the Unfinished Project of Modernity: Critical Essays on The Philosophical Discourse of Modernity* (Cambridge: Polity Press), pp. 1–37.
de Silva, Chandra Richard (1999) 'Indian Ocean but not African Sea: The Erasure of East African Commerce from History' *Journal of Black Studies: Special Issue: Political Strategies of Democracy and Health Issues and Concerns in Global Africa* 29/5, pp. 684–94.
de Vries, Jan (1994) 'The Industrial Revolution and the Industrious Revolution' *The Journal of Economic History: Papers Presented at the Fifty-Third Annual Meeting of the Economic History Association* 54/2, pp. 249–70.
Dirlik, Arif (2002) 'History Without a Centre? Reflections on Eurocentrism' in Eckhardt Fuchs and Benedikt Stuchtey (eds) *Across Cultural Borders: Historiography in Global Perspective* (New York: Rowman & Littlefield Publishers, Inc.).
Dirlik, Arif (2003) 'Global Modernity? Modernity in an Age of Global Capitalism' *European Journal of Social Theory* 6/3, pp. 275–92.
Doyle, William (1980) *Origins of the French Revolution* (Oxford: Oxford University Press).
Droz, Jacques (1967) *Europe Between the Revolutions 1815–1848* (Glasgow: Fontana).
Dubois, Laurent (2004) *A Colony of Citizens: Revolution and Slave Emancipation in the French Caribbean, 1787–1804* (Chapel Hill: The University of North Carolina Press).
During, Simon (1998) 'Postcolonialism and Globalization: A Dialectical Relation After All?' *Postcolonial Studies* 1/1, pp. 31–47.
Durkheim, Emile (1964 [1893]) *The Division of Labour in Society* translated by George Simpson (New York: The Free Press).
Durkheim, Emile (1992 [1937]) *Professional Ethics and Civic Morals* translated by Cornelia Brookfield (London: Routledge).
Eisenstadt, Shmuel N. (1965) 'Transformation of Social, Political, and Cultural Orders in Modernization' *American Sociological Review* 30/5, pp. 659–73.
Eisenstadt, Shmuel N. (ed.) (1968) *Comparative Perspectives on Social Change* (Boston: Little Brown and Company).
Eisenstadt, Shmuel N. (ed.) (1987) *Patterns of Modernity: Volume 1 The West* (London: Pinter).
Eisenstadt, Shmuel N. (1998) 'Comparative Studies and Sociological Theory: Autobiographical Notes' *The American Sociologist* 29/1, pp. 38–58.
Eisenstadt, Shmuel N. (2000) 'Multiple Modernities' *Daedalus: Multiple Modernities* 129/1, pp. 1–29.
Eisenstadt, Shmuel N. (2001) 'The Civilizational Dimension of Modernity: Modernity as a Distinct Civilization' *International Sociology* 16/3, pp. 320–40.
Eisenstadt, Shmuel N. and Wolfgang Schluchter (1998) 'Introduction: Paths to Early Modernities – A Comparative View' *Daedalus: Early Modernities* 127/3, pp. 1–18.
Eisenstein, Elizabeth L. (1968) 'Some Conjectures about the Impact of Printing on Western Society and Thought: A Preliminary Report' *Journal of Modern History* 40/1, March, pp. 1–56.
Eisenstein, Elizabeth L. (1969) 'The Advent of Printing and the Problem of the Renaissance' *Past and Present* 45, November, pp. 19–89.
Eisenstein, Elizabeth L. (1983) *The Printing Revolution in Early Modern Europe* (Cambridge: Cambridge University Press).
El-Bushra, El-Sayed (1992) 'Perspectives on the Contribution of Arabs and Muslims to Geography' *GeoJournal* 26/2, pp. 157–66.

Elias, Norbet (1978) *What is Sociology?* translated by S. Mennell and G. Morrisey (London: Hutchinson).
Elliott, J. H. (1968) *Europe Divided, 1559–1598* (Glasgow: Fontana/Collins).
Elshtain, Jean Bethke (1982) (ed.) *The Family in Political Thought* (Sussex: The Harvester Press).
Eltis, David and Stanley L. Engerman (2000) 'The Importance of Slavery and the Slave Trade to Industrializing Britain' *The Journal of Economic History* 60/1, pp. 123–44.
Elton, Geoffrey R. (1963) *Reformation Europe 1517–1559* (London: Collins).
Elton, Geoffrey R. (1990) 'The Age of the Reformation' in Geoffrey R. Elton (ed.) *The New Cambridge Modern History, Volume II: The Reformation 1520–1559* (Cambridge: Cambridge University Press, pp. 1–22).
Escobar, Arturo (1995) *Encountering Development: The Making and Unmaking of the Third World* (Princeton: Princeton University Press).
Fabian, Johannes (1983) *Time and the Other: How Anthropology Makes its Object* (New York: Columbia University Press).
Fabian, Johannes (1991) 'Dilemmas of Critical Anthropology' in *Time and the Work of Anthropology: Critical Essays, 1971–1991* (Amsterdam: Harwood Academic Publishers).
Fakhry, Majid (1965) 'Al-Farabi and the Reconciliation of Plato and Aristotle' *Journal of the History of Ideas* 26/4, pp. 469–78.
Fanon, Frantz (1967 [1952]) *Black Skin, White Masks* translated by Charles Lam Markmann (New York: Grove Press).
Fanon, Frantz (1968 [1961]) *The Wretched of the Earth* translated by Constance Farrington (New York: Grove Press).
Feldman, Arnold S. and Wilbert E. Moore (1962) 'Industrialization and Industrialism: Convergence and Differentiation' *Transactions of the Fifth World Congress of Sociology Volume II The Sociology of Development*, pp. 151–69.
Ferguson, Adam (1966 [1767]) *An Essay on the History of Civil Society* edited and with an introduction by Duncan Forbes (Edinburgh: Edinburgh University Press).
Ferguson, Wallace K. (1948) *The Renaissance in Historical Thought: Five Centuries of Interpretation* (Massachusetts: The Riverside Press).
Ferguson, Wallace K. (1953) 'The Church in a Changing World: A Contribution to the Interpretation of the Renaissance' *The American Historical Review* 59/1, pp. 1–18.
Fischer, Sibylle (2004) *Modernity Disavowed: Haiti and the Cultures of Slavery in the Age of Revolution* (London: Duke University Press).
Fisher, Michael H. (1993) 'The Office of Akhbar Nawis: The Transition from Mughal to British Forms' *Modern Asian Studies Special Issue: How Social, Political and Cultural Information is Collected, Defined, Used and Analyzed* 27/1, pp. 45–82.
Fletcher, F. T. H. (1933) 'Montesquieu's Influence on Anti-Slavery Opinion in England' *The Journal of Negro History* 18/4, pp. 414–25.
Flinn, M. W. (1966) *The Origins of the Industrial Revolution* (London: Longmans).
Fontana, Biancamaria (1985) 'The Shaping of Modern Liberty: Commerce and Civilization in the Writings of Benjamin Constant' *Annales Benjamin Constant* 5, pp. 2–15.
Ford, Franklin L. (1963) 'The Revolutionary-Napoleonic Era: How Much of a Watershed?' *The American Historical Review* 69/1, pp. 18–29.

Foucault, Michel (1991) 'Governmentality' in Graham Burchell, Colin Gordon and Peter Miller (eds) *The Foucault Effect: Studies in Governmentality* (Chicago: University of Chicago Press), pp. 87–104.
Foucault, Michel (2002 [1969]) *The Archaeology of Knowledge* translated by A. M. Sheridan-Smith (London: Routledge).
Fox, Christopher (1995) 'Introduction: How to Prepare a Noble Savage: The Spectacle of Human Science' in Christopher Fox, Roy Porter and Robert Wokler (eds) *Inventing Human Science: Eighteenth Century Domains* (Berkeley: University of California Press), pp. 1–30.
Frank, Andre Gunder (1975) *On Capitalist Underdevelopment* (Bombay: Oxford University Press).
Frank, Andre Gunder (1992) 'Fourteen Ninety-Two Once Again' *Political Geography* 11/4, pp. 386–93.
Frank, Andre Gunder (1998) *ReOrient: Global Economy in the Asian Age* (Berkeley: University of California Press).
Frothingham Jr, A. L. (1895) 'Notes on Byzantine Art and Culture in Italy and Especially in Rome' *The American Journal of Archaeology and of the History of the Fine Arts* 10/2, pp. 152–208.
Fukuyama, Francis (1992) *The End of History and the Last Man* (London: Hamish Hamilton).
Furet, François (1981 [1978]) *Interpreting the French Revolution* translated by Elborg Forster (Cambridge: Cambridge University Press).
Furet, François (1988 [1986]) *Marx and the French Revolution* translated by D. K. Furet (Chicago: University of Chicago Press).
Furet, François (1990) 'A Commentary' translated by Elborg Forster *French Historical Studies* 16/4, pp. 792–802.
Gadamer, Hans-Georg (1979) *Truth and Method* translated by W. Glen-Doeppel (London: Sheed and Ward).
Gaonkar, Dilip P. (2001a) (ed.) *Alternative Modernities* (Durham: Duke University Press).
Gaonkar, Dilip P. (2001b) 'On Alternative Modernities' in Dilip P. Gaonkar (ed.) *Alternative Modernities* (Durham: Duke University Press), pp. 1–23.
Garner, Roberta (1990) 'Jacob Burckhardt as a Theorist of Modernity: Reading the Civilization of the Renaissance in Italy' *Sociological Theory* 8/1, pp. 48–57.
Gates Jr, Henry Louis (1985) 'Editor's Introduction: Writing "Race" and the Difference it Makes' in *Critical Inquiry* 12/1, pp. 1–20.
Gay, Peter (1969) *The Enlightenment: An Interpretation. Vol. 2: The Science of Freedom* (London: W. W. Norton and Co.).
Geggus, David (1981) 'The British Government and the Saint Domingue Slave Revolt, 1791–1793' *The English Historical Review* 96/379, pp. 285–305.
Gershevitch, Ilya (1964) 'Zoroaster's Own Contribution' *Journal of Near Eastern Studies* 23/1, pp. 12–38.
Giddens, Anthony (1990) *The Consequences of Modernity* (Cambridge: Polity Press).
Gilmore, Myron P. (1952) *The World of Humanism 1453–1517* (New York: Harper and Row Publishers).
Gilmore, Myron P. (1960) 'Burckhardt as a Social Historian' in *Society and History in the Renaissance: A Report of a Conference Held at the Folger Library on April 23 and 24, 1960* (Washington: The Folger Shakespeare Library).
Gilroy, Paul (1993) *The Black Atlantic: Modernity and Double Consciousness* (Cambridge: Harvard University Press).

Glausser, Wayne (1990) 'Three Approaches to Locke and the Slave Trade' *Journal of the History of Ideas* 51/2, pp. 199–216.
Goldstone, Jack A. (1986) 'The Demographic Revolution in England: A Re-Examination' *Population Studies* 40/1, pp. 5–33.
Goldthorpe, John H. (1991) 'The Uses of History in Sociology: Reflections on Some Recent Tendencies' *British Journal of Sociology* 42/2, pp. 211–30.
Goody, Jack (2004) *Capitalism and Modernity: The Great Debate* (Cambridge: Polity Press).
Gombrich, Ernst H. (1995 [1950]) *The Story of Art* (London: Phaidon Press).
Gouldner, Alvin W. (1973) 'Romanticism and Classicism: Deep Structures in Social Science' in *For Sociology: Renewal and Critique in Sociology Today* (London: Allen Lane), pp. 323–66.
Gouwens, Kenneth (1998) 'Perceiving the Past: Renaissance Humanism After the "Cognitive Turn"' *The American Historical Review* 103/1, pp. 55–82.
Grafton, Anthony (1991) *Defender of the Text: The Traditions of Scholarship in an Age of Science, 1450–1800* (Massachusetts: Harvard University Press).
Greasley, David and Les Oxley (1994) 'Rehabilitation Sustained: The Industrial Revolution as a Macroeconomic Epoch' *The Economic History Review: New Series* 47/4, pp. 760–8.
Greasley, David and Les Oxley (1997) 'Endogenous Growth or "Big Bang": Two views of the First Industrial Revolution' *The Journal of Economic History* 57/4, pp. 935–49.
Green, William A. (1995) 'Periodizing World History' *History and Theory: Studies in the Philosophy of History, Theme Issue: World Historians and Their Critics* 34/2, pp. 99–111.
Greenblatt, Stephen (1980) *Renaissance Self-Fashioning: From More to Shakespeare* (Chicago: University of Chicago Press).
Greene, John C. (1981) *Science, Ideology, and World View: Essays in the History of Evolutionary Ideas* (Berkeley: University of California Press).
Grovogui, Siba N'Zatioula (1996) *Sovereigns, Quasi Sovereigns, and Africans: Race and Self-Determination in International Law* (Minneapolis: University of Minnesota Press).
Grovogui, Siba N'Zatioula (2001) 'Come to Africa: A Hermeneutics of Race in International Theory' in *Alternatives* 26/4, pp. 425–48.
Guha, Ranajit (1982) 'On Some Aspects of the Historiography of Colonial India' in Ranajit Guha (ed.) *Subaltern Studies I: Writings on South Asian History and Society* (Delhi: Oxford University Press), pp. 1–8.
Guha, Ranajit (1983) 'The Prose of Counter-Insurgency' in Ranajit Guha (ed.) *Subaltern Studies II: Writings on South Asian History and Society* (Delhi: Oxford University Press), pp. 1–42.
Guizot, François (1997 [1846]) *The History of Civilization in Europe* translated by W. Hazlitt (London: Penguin Books).
Gusfield, Joseph R. (1967) 'Tradition and Modernity: Misplaced Polarities in the Study of Social Change' *The American Journal of Sociology* 72/4, pp. 351–62.
Habermas, Jurgen (1996) 'Modernity: An Unfinished Project' in M. P. d'Entreves and Seyla Benhabib (eds) *Habermas and the Unfinished Project of Modernity: Critical Essays on The Philosophical Discourse of Modernity* (Cambridge: Polity Press), pp. 38–58.

Habib, Irfan (1980) 'The Technology and Economy of Mughal India' *The Indian Economic and Social History Review* XVII, pp. 1–34.
Hale, John R. (1971) *Renaissance Europe 1480–1520* (London: Collins).
Hale, John R. (1994) *The Civilization of Europe in the Renaissance* (New York: Atheneum).
Hall, Peter A. and David Soskice (eds) (2001) *Varieties of Capitalism: The Institutional Foundations of Comparative Advantage* (Oxford: Oxford University Press).
Hall, Stuart (1992) 'The West and the Rest: Discourse and Power' in Stuart Hall and Bram Gieben (eds) *Formations of Modernity* (Cambridge: Polity Press / Open University).
Hansen, Peo (2002) 'European Integration, European Identity and the Colonial Connection' *European Journal of Social Theory* 5/4, pp. 483–98.
Harding, Sandra (1986) *The Science Question in Feminism* (New York: Cornell University Press).
Harding, Sandra (1998) *Is Science Multicultural? Postcolonialisms, Feminisms, and Epistemologies* (Bloomington: Indiana University Press).
Harnetty, Peter (1991) '"Deindustrialization" Revisited: The Handloom Weavers of the Central Provinces of India, c. 1800–1947' *Modern Asian Studies* 25/3, pp. 455–510.
Harootunian, Harry D. (1999) 'Postcoloniality's Unconscious/Area Studies' Desire' *Postcolonial Studies* 2/2, pp. 127–47.
Harootunian, Harry (2000) *Overcome by Modernity: History, Culture, and Community in Interwar Japan* (Princeton: Princeton University Press).
Hartsock, Nancy C. M. (1984) 'The Feminist Standpoint: Developing the Ground for a Specifically Feminist Historical Materialism' in *Money, Sex and Power* (Boston: Northeastern University Press). Reprinted in Sandra Harding (ed.) *Feminism and Methodology: Social Science Issues* (Bloomington: Indiana University Press, 1987), pp. 157–80.
Hartwell, Ronald Max (1965) 'The Causes of the Industrial Revolution: An Essay in Methodology' *The Economic History Review: Essays in Economic History Presented to Professor M. M. Postan* 18/1, pp. 164–82.
Hartwell, Ronald Max (1971) *The Industrial Revolution and Economic Growth* (London: Methuen & Co Ltd.).
Haskins, Charles H. (1957) *The Renaissance of the Twelfth Century* (New York: Meridian).
Hawkesworth, Mary (1989) 'Knowers, Knowing, Known: Feminist Theory and Claims of Truth' *Signs: Journal of Women in Culture and Society* 14/3, pp. 533–57.
Hawthorn, Geoffrey (1976) *Enlightenment and Despair: A History of Sociology* (Cambridge: Cambridge University Press).
Hay, Denys (1957) *Europe: The Emergence of an Idea* (Edinburgh: Edinburgh University Press).
Headley, John M. (2000) 'Geography and Empire in the Late Renaissance: Botero's Assignment, Western Universalism, and the Civilizing Process' *Renaissance Quarterly* 53/4, pp. 1119–55.
Heilbron, Johan (1995) *The Rise of Social Theory* (Cambridge: Polity Press).
Heilbroner, Robert L. (1973) 'The Paradox of Progress: Decline and Decay in *The Wealth of Nations*' *Journal of the History of Ideas* 34/2, pp. 243–62.

Herder, Johann Gottfried von (1969) *J. G. Herder on Social and Political Culture* translated and edited by F. M. Barnard (Cambridge: Cambridge University Press).

Higman, B. W. (2000) 'The Sugar Revolution' *The Economic History Review: New Series* 53/2, pp. 213–36.

Hindess, Barry (1987) 'Rationality and the Characterization of Modern Society' in Sam Whimster and Scott Lash (eds) *Max Weber, Rationality and Modernity* (London: Allen and Unwin), pp. 137–53.

Hirschman, Albert O. (1977) *The Passions and the Interests: Political Arguments for Capitalism before Its Triumph* (New Jersey: Princeton University Press).

Hobsbawm, Eric J. (1977) *The Age of Revolution: Europe 1789–1848* (London: Abacus).

Hobsbawm, Eric J. (1994) *Nations and Nationalism Since 1780: Programme, Myth and Reality* (Cambridge: Cambridge University Press).

Holmes, George (1975) *Europe: Hierarchy and Revolt, 1320–1450* (Glasgow: Fontana/Collins).

Holmwood, John (1995) 'Feminism and Epistemology: What Kind of Successor Science?' *Sociology* 29/3, pp. 411–28.

Holmwood, John (1996) *Founding Sociology? Talcott Parsons and the Idea of General Theory* (Harlow: Longman Group Ltd.).

Holmwood, John (2000a) 'Sociology and its Audience(s): Changing Perceptions of Sociological Argument' in John Eldridge *et al.* (eds) *For Sociology: Legacies and Prospects* (Durham: Sociology Press), pp. 33–55.

Holmwood, John (2000b) 'Europe and the "Americanization" of British Social Policy' *European Societies* 2/4, pp. 453–82.

Holmwood, John (2001) 'Gender and Critical Realism: A Critique of Sayer' *Sociology* 35/4, pp. 947–65.

Holmwood, John (2007a) ' "Only Connect": The Challenge of Globalization for the Social Sciences' *Twenty-First Century Society: Journal of the Academy of the Social Sciences* 2/1, pp. 79–93.

Holmwood, John (2007b) 'Pragmatism and the Prospects of Sociological Theory' (forthcoming).

Holmwood, John and Alexander Stewart (1991) *Explanation and Social Theory* (London: Macmillan).

Holmwood, John and Maureen O'Malley (2003) 'Evolutionary and Functionalist Historical Sociology' in Gerard Delanty and Engin F. Isin (eds) *Handbook of Historical Sociology* (London: Sage Publications), pp. 39–57.

Hoppit, Julian (1990) 'Counting the Industrial Revolution' *The Economic History Review: New Series* 43/2, pp. 173–93.

Hourani, George F. (1976) 'Islamic and Non-Islamic Origins of Mu'tazilite Ethical Rationalism' *International Journal of Middle East Studies* 7/1, pp. 59–87.

Hume, David (1875 [1752]) *Essays, Moral, Political, and Literary* edited by T. H. Green and T. H. Grose (London: Longmans, Green & Co.).

Hunting, Claudine (1978) 'The *Philosophes* and Black Slavery: 1748–1765' *Journal of the History of Ideas* 39/3, pp. 405–18.

Iggers, Georg G. (1982) 'The Idea of Progress in Historiography and Social Thought Since the Enlightenment' in G. A. Almond, M. Chodorow and R. H. Pearce (eds) *Progress and its Discontents* (Berkeley: University of California Press), pp. 41–66.

Iggers, Georg G. (1997) *Historiography in the Twentieth Century: From Scientific Objectivity to the Postmodern Challenge* (Connecticut: Wesleyan University Press).

Inikori, Joseph E. (1987) 'Slavery and the Development of Industrial Capitalism in England' *Journal of Interdisciplinary History: Caribbean Slavery and British Capitalism* 17/4, pp. 771–93.

Inkeles, Alex (1969) 'Making Men Modern: On the Causes and Consequences of Individual Change in Six Developing Countries' *American Journal of Sociology* 75/2, pp. 208–25.

Jacques, T. Carlos (1997) 'From Savages and Barbarians to Primitives: Africa, Social Typologies, and History in Eighteenth-Century French Philosophy' *History and Theory* 36/2, pp. 190–215.

Jahn, Beate (1999) 'IR and the State of Nature: The Cultural Origins of a Ruling Ideology' *Review of International Studies* 25/3, pp. 411–34.

James, C. L. R. (1989 [1938]) *The Black Jacobins: Toussaint L'Ouverture and the San Domingo Revolution* second edition, revised (New York: Vintage Books).

James, William (1904) 'The Pragmatic Method' *Journal of Philosophy, Psychology and Scientific Methods* 1, pp. 673–87.

Jardine, Lisa (1996a) 'Penfriends and Patria: Erasmian Pedagogy and the Republic of Letters' *Erasmus of Rotterdam Society Yearbook* 16, pp. 1–18.

Jardine, Lisa (1996b) *Worldly Goods: A New History of the Renaissance* (London: Papermac).

Jardine, Lisa and Jerry Brotton (2000) *Global Interests: Renaissance Art between East and West* (London: Reaktion Books).

Jardine, Nicholas (2000 [1991]) *The Scenes of Inquiry: On the Reality of Questions in the Sciences* (Oxford: Clarendon Press).

Jasanoff, Maya (2005) *Edge of Empire: Conquest and Collecting in the East, 1750–1850* (London: Fourth Estate).

Jenkins, Keith (2003) *Refiguring History: New Thoughts on An Old Discipline* (London: Routledge).

Johns, Adrian (1998) *The Nature of the Book: Print and Knowledge in the Making* (Chicago: University of Chicago Press).

Joll, James (1980) 'Europe – An Historian's View' *History of European Ideas* 1/1, pp. 7–19.

Joseph, George G., Vasu Reddy and Mary Searle-Chatterjee (1990) 'Eurocentrism in the Social Sciences' *Race and Class* 31/4, pp. 1–26.

Joyce, Patrick (2002) 'Maps, Blood and the City: The Governance of the Social in Nineteenth-Century Britain' in Patrick Joyce (ed.) *The Social in Question: New Bearings in History and the Social Sciences* (London: Routledge), pp. 97–114.

Kaiwar, Vasant (2003) 'The Aryan Model of History and the Oriental Renaissance: The Politics of Identity in an Age of Revolutions, Colonialism, and Nationalism' in Vasant Kaiwar and Sucheta Mazumdar (eds) *Antinomies of Modernity: Essays on Race, Orient, Nation* (Durham: Duke University Press), pp. 13–61.

Kalberg, Stephen (1994) *Max Weber's Comparative-Historical Sociology* (Cambridge: Polity Press).

Kaplan, Martha (1995) 'Panoptican in Poona: An Essay on Foucault and Colonialism' *Cultural Anthropology* 10/1, pp. 85–98.

Kedourie, Elie (1994 [1960]) *Nationalism* fourth edition (Oxford: Blackwell).
Keita, Maghan (1994) 'Deconstructing the Classical Age: Africa and the Unity of the Mediterranean World' *The Journal of Negro History* 79/2, pp. 147–66.
Keita, Maghan (2002) 'Africa and the Construction of a Grand Narrative in World History' in Eckhardt Fuchs and Benedikt Stuchtey (eds) *Across Cultural Borders: Historiography in Global Perspective* (New York: Rowman & Littlefield Publishers, Inc.), pp. 289–93.
Kelley, Donald R. (1988) 'Humanism and History' in Albert Rabil (ed.) *Renaissance Humanism, Foundation, Forms and Legacy, Volume 3: Humanism and the Disciplines* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press), pp. 236–70.
Kelley, Donald R. (1991) *Renaissance Humanism* (Boston: Twayne Publishers).
Kelly, Joan (1986 [1984]) *Women, History and Theory: The Essays of Joan Kelly* (Chicago: University of Chicago Press).
Kerr, Clark and John T. Dunlop, Frederick H. Harbison, Charles A. Myers (1960) *Industrialism and Industrial Man: the Problems of Labour and Management in Economic Growth* (Cambridge: Harvard University Press).
Kiernan, Victor G. (1980) 'Europe in the Colonial Mirror' *History of European Ideas* 1/1, pp. 39–61.
Koyré, Alexandre (1958) *From the Closed World to the Infinite Universe* (New York: Harper and Brothers Publishers).
Kraemer, Joel L. (1984) 'Humanism in the Renaissance of Islam: A Preliminary Study' *Journal of the American Oriental Society: Studies in Islam and the Ancient Near East Dedicated to Franz Rosenthal* 104/1, pp. 135–64.
Kristeller, Paul Oskar (1962) 'Studies on Renaissance Humanism During the Last Twenty Years' *Studies in the Renaissance* 29, pp. 7–30.
Kristeller, Paul Oskar (1974) *Medieval Aspects of Renaissance Learning* edited and translated by Edward P. Mahoney (Durham: Duke University Press).
Kuhn, Thomas S. (1962) *The Structure of Scientific Revolutions* (Chicago: Chicago University Press).
Kumar, Deepak (1995) *Science and the Raj 1857–1905* (New Delhi: Oxford University Press).
Kumar, Deepak (2003) 'Developing a History of Science and Technology in South Asia' *Economic and Political Weekly* June 7.
Kumar, Krishan (1978) *Prophecy and Progress: The Sociology of Industrial and Post-Industrial Society* (Middlesex: Penguin Books).
Landes, David S. (1969) *The Unbound Prometheus: Technological Change and Industrial Development in Western Europe from 1750 to the Present* (Cambridge: Cambridge University Press).
Landes, David S. (1999) *The Wealth and Poverty of Nations: Why Some Are So Rich and Some So Poor* (London: Abacus).
Latour, Bruno (1993) *We Have Never Been Modern* translated by Caroline Porter (Hertfordshire: Harvester Wheatsheaf).
Laures, Johannes (1952) 'Notes on the Death of Ninshitsu, Xavier's Bonze Friend' *Monumenta Nipponica* 8/1–2, pp. 407–11.
Law, Robin and Kristin Mann (1999) 'West Africa in the Atlantic Community: The Case of the Slave Coast' *The William and Mary Quarterly: Third Series: African and American Atlantic Worlds* 56/2, pp. 307–34.
Lee, Raymond L. M. (2006) 'Reinventing Modernity: Reflexive Modernization vs Liquid Modernity vs Multiple Modernities' *European Journal of Social Theory* 9/3, pp. 355–69.

Lehmann, Hartmut and Guenther Roth (eds) (1993) *Weber's Protestant Ethic: Origins, Evidence, Context* (Cambridge: Cambridge University Press).
Lemert, Charles (1995) *Sociology After the Crisis* (Oxford: Westview Press).
Lerner, Daniel (1958) *The Passing of Traditional Society: Modernizing the Middle East* (New York: The Free Press).
Levy Jr, Marion J. (1965) 'Patterns (Structures) of Modernization and Political Development' *The Annals of the American Academy of Political and Social Science* March, pp. 29–40.
Lewis, Archibald R. (1990) 'The Islamic World and the Latin West, 1350–1500' *Speculum* 65/4, pp. 833–44.
Lieberman, Victor (ed.) (1999 [1997]) *Beyond Binary Histories: Re-Imagining Eurasia to C. 1830* (Michigan: University of Michigan Press).
Locke, John (1764 [1689]) *Two Treatises of Government* edited by Thomas Hollis (London: A. Millar et al.).
Lukács, Georg (1999 [1968]) *History and Class Consciousness: Studies in Marxist Dialectics* translated by Rodney Livingstone (London: The Merlin Press Ltd.).
Lukes, Steven (1973) *Emile Durkheim: His Life and Work, A Historical and Critical Study* (Middlesex: Penguin Books).
Makdisi, George (1989) 'Scholasticism and Humanism in Classical Islam and the Christian West' *Journal of the American Oriental Society* 109/2, pp. 175–82.
Malkki, Liisa H. (1997) 'National Geographic: The Rooting of Peoples and the Territorialization of National Identity among Scholars and Refugees' in Akhil Gupta and James Ferguson (eds) *Culture, Power, Place: Explorations in Critical Anthropology* (Durham: Duke University Press), pp. 52–74.
Mann, Michael (1986) *The Sources of Social Power, Volume I: A History of Power from the Beginning to A.D. 1760* (Cambridge: Cambridge University Press).
Mann, Michael (1993) *The Sources of Social Power, Volume II: The Rise of Classes and Nation-States, 1760–1914* (Cambridge: Cambridge University Press).
Mann, Michael (1994) 'In Praise of Macro-Sociology: A Reply to Goldthorpe' *The British Journal of Sociology* 45/1, pp. 37–54.
Marshall, Gordon (1982) *In Search of the Spirit of Capitalism: An Essay on Max Weber's Protestant Ethic Thesis* (New York: Columbia University Press).
Marx, Karl (1976 [1867]) *Capital: A Critique of Political Economy Volume One* introduced by Ernest Mandel, translated by Ben Fowkes (Middlesex: Penguin Books).
Mazrui, Ali A. (1968) 'From Social Darwinism to Current Theories of Modernization: A Tradition of Analysis' *World Politics* 21/1, pp. 69–83.
McLennan, Gregor (2000) 'Sociology's Eurocentrism and the "Rise of the West" Revisited' *European Journal of Social Theory* 3/3, pp. 275–91.
McLennan, Gregor (2003) 'Sociology, Eurocentrism and Postcolonial Theory' *European Journal of Social Theory* 6/1, pp. 69–86.
McLennan, Gregor (2006) *Sociological Cultural Studies: Reflexivity and Positivity in the Human Sciences* (Basingstoke: Palgrave Macmillan).
Meek, Ronald (1976) *Social Science and the Ignoble Savage* (Cambridge: Cambridge University Press).
Mehta, Uday Singh (1999) *Liberalism and Empire: A Study in Nineteenth-Century British Liberal Thought* (Chicago: University of Chicago Press).
Memmi, Albert (1965 [1957]) *The Colonizer and the Colonized* (Boston: Beacon).
Michelet, Jules (1967 [1847]) *History of the French Revolution* edited by G. Wright (Chicago: University of Chicago Press).

Mignolo, Walter D. (1995) *The Darker Side of the Renaissance: Literacy, Territoriality, and Colonization* (Michigan: University of Michigan Press).
Mill, John Stuart (1865 [1861]) *Considerations on Representative Government* (London: Longman Green).
Mintz, Sidney W. (1986) *Sweetness and Power: The Place of Sugar in Modern History* (London: Penguin Books).
Mitchell, Timothy (1991) *Colonizing Egypt* (Berkeley: University of California Press).
Mitchell, Timothy (2000) 'The Stage of Modernity' in Timothy Mitchell (ed.) *Questions of Modernity* (Minneapolis: University of Minnesota Press), pp. 1–34.
Mohanty, Chandra Talpade (1991) 'Under Western Eyes: Feminist Scholarship and Colonial Discourses' in C. T. Mohanty, A. Russo and L. Torres (eds) *Third World Women and the Politics of Feminism* (Bloomington: Indiana University Press), pp. 51–80.
Montaigne, Michel de (1993 [1575]) *The Complete Essays* translated by M. A. Screech (London: Penguin Books).
Montesquieu, Baron de (1965 [1748]) *The Spirit of the Laws Volumes I & II* translated by Thomas Nugent (New York: Hafner Publishing Company).
Moore, Robert I. (1997) 'The Birth of Europe as a Eurasian Phenomenon' *Modern Asian Studies* 31/3, pp. 583–601.
Moore, Wilbert E. (1963) 'Introduction: Social Change and Comparative Studies' *International Social Science Journal* 14/4, pp. 519–27.
Morris, Meaghan (1990) 'Metamorphoses at Sydney Tower' *New Formations* 10, Summer, pp. 5–18.
Morris, Morris D. (1963) 'Towards a Reinterpretation of Nineteenth-Century Indian Economic History' *The Journal of Economic History* 23/4, pp. 606–18.
Moya, Paula M. L. (2000) 'Introduction: Reclaiming Identity' in Paula M. L. Moya and Michael R. Hames-Garcia (eds) *Reclaiming Identity: Realist Theory and the Predicament of Postmodernism* (Berkeley: University of California Press), pp. 1–28.
Muir, Edward (1979) 'Images of Power: Art and Pageantry in Renaissance Venice' *The American Historical Review* 84/1, pp. 16–52.
Muller, Jerry Z. (2002) *The Mind and the Market: Capitalism in Modern European Thought* (New York: Alfred A. Knopf).
Muthu, Sankar (2003) *Enlightenment Against Empire* (Princeton: Princeton University Press).
Nandy, Ashis (1983) *The Intimate Enemy: Loss and Recovery of Self under Colonialism* (New Delhi: Oxford University Press).
Nandy, Ashis (1987) *Traditions, Tyranny and Utopias: Essays in the Politics of Awareness* (New Delhi: Oxford University Press).
Nandy, Ashis (1994) *The Illegitimacy of Nationalism: Rabindranath Tagore and the Politics of Self* (New Delhi: Oxford University Press).
Nandy, Ashis (1995) 'History's Forgotten Doubles' *History and Theory: Studies in the Philosophy of History, Theme Issue: World Historians and Their Critics* 34/2, pp. 44–66.
Narayan, Uma (1998) 'Essence of Culture and a Sense of History: A Feminist Critique of Cultural Essentialism' *Hypatia* 13/2, pp. 86–106.
Nauert Jr, Charles G. (1995) *Humanism and the Culture of Renaissance Europe* (Cambridge: Cambridge University Press).

Nelson, Lynn Hankinson (1993) 'Epistemological Communities' in Linda Alcoff and Elizabeth Potter (eds) *Feminist Epistemologies* (London: Routledge).
Nettl, J. P. (1967) *Political Mobilization: A Sociological Analysis of Methods and Concepts* (London: Faber).
Nielsen, J. K. (1991) 'The Political Orientation of Talcott Parsons: The Second World War and Its Aftermath' in R. Robertson and Bryan Turner (eds) *Talcott Parsons: Theorist of Modernity* (London: Sage), pp. 217–33.
Nisbet, Robert A. (1966) *The Sociological Tradition* (New York: Basic Books Inc.).
Nisbet, Robert A. (1973) 'The Myth of the Renaissance' *Comparative Studies in Society and History* 15/4, pp. 473–92.
O'Brien, Patrick K. (1977) 'Agriculture and the Industrial Revolution' *The Economic History Review: New Series* 30/1, pp. 166–81.
O'Hearn, Denis (1994) 'Innovation and the World-System Hierarchy: British Subjugation of the Irish Cotton Industry, 1780–1830' *The American Journal of Sociology* 100/3, pp. 587–621.
Olender, Maurice (1994) 'Europe, or How to Escape Babel' *History and Theory: Studies in the Philosophy of History, Theme Issue: Proof and Persuasion in History* 33/4, pp. 5–25.
Outhwaite, William (1983) *Concept Formation in Social Science* (London: Routledge and Kegan Paul).
Outhwaite, William (1987) *New Philosophies of Social Science: Realism, Hermeneutics and Critical Theory* (London: Macmillan Press).
Outhwaite, William (2001) 'What is European Culture?' in Gyorgy Szell and Wiking Ehlert (eds) *New Democracies and Old Societies in Europe* (Frankfurt am Main: Peter Lang).
Pacheco, Diego (1974) 'Xavier and Tanegashima' *Monumenta Nipponica* 29/4, pp. 477–80.
Pagden, Anthony (1993) *European Encounters with the New World: From Renaissance to Romanticism* (New Haven: Yale University Press).
Pagden, Anthony (2002) 'Introduction' in Anthony Pagden (ed.) *The Idea of Europe From Antiquity to the European Union* (Cambridge: Cambridge University Press), pp. 1–32.
Pannikar, K. M. (1959) *Asia and Western Dominance: A Survey of the Vasco Da Gama Epoch of Asian History 1498–1945* (London: George Allen and Unwin Ltd.).
Panofsky, Erwin (1960) *Renaissance and Renascences in Western Art* (Copenhagen: Russak and Company Ltd.).
Panofsky, Erwin (1991) *Perspective as Symbolic Form* translated by Christopher S. Wood (New York: Zone Books).
Parry, J. H. (1963) *The Age of Reconnaissance: Discovery, Exploration, and Settlement, 1450–1650* (London: Weidenfeld and Nicolson Ltd.).
Parsons, Talcott (1937) *The Structure of Social Action: A Study in Social Theory with Special Reference to a Group of Recent European Writers* (New York: The Free Press of Glencoe).
Parsons, Talcott (1964) 'Evolutionary Universals in Society' *American Sociological Review* 29/3, pp. 339–57.
Parsons, Talcott (1966) *Societies: Evolutionary and Comparative Perspectives* (New Jersey: Prentice-Hall Inc.).
Parsons, Talcott (1971) *The System of Modern Societies* (New Jersey: Prentice-Hall Inc.).

Perlin, Frank (1983) 'Proto-Industrialization and Pre-Colonial South Asia' *Past and Present* 98, pp. 30–95.
Perlin, Frank (1994) *Unbroken Landscape: Commodity, Category, Sign and Identity; Their Production as Myth and Knowledge from 1500* (Hampshire: Variorum).
Persaud, Randolph B. and Rob B. J. Walker (2001) 'Apertura: Race in International Relations' *Alternatives* 26/4, pp. 373–76.
Petras, James and Henry Veltmeyer (2001) *Globalization Unmasked: Imperialism in the 21st Century* (New Delhi: Madhyam Books).
Pocock, John G. A. (1977) 'Gibbon's Decline and Fall and the World View of the Late Enlightenment' *Eighteenth-Century Studies* 10/3, pp. 287–303.
Pocock, John G. A. (1985) *Virtue, Commerce and History Essays on Political Thought and History, Chiefly in the Eighteenth Century* (Cambridge: Cambridge University Press).
Polanyi, Karl (2001 [1944]) *The Great Transformation: The Political and Economic Origins of Our Time* (Boston: Beacon Press).
Polanyi, Karl, C. M. Arensberg and H. W. Pearson (eds) (1957) *Trade and Market in the Early Empires: Economies in History and Theory* (New York: Glencoe Free Press).
Pollard, Sidney (1973) 'Industrialization and the European Economy' *The Economic History Review: New Series* 26/4, pp. 636–48.
Pollock, Sheldon, Homi K. Bhabha, Carol A. Breckenbridge and Dipesh Chakrabarty (2000) 'Cosmopolitanisms' *Public Culture* 12/3, pp. 577–89.
Pomeranz, Kenneth (2000) *The Great Divergence: China, Europe, and the Making of the Modern World Economy* (Princeton: Princeton University Press).
Portes, Alejandro (1973) 'Modernity and Development: A Critique' *Studies in Comparative International Development* 8/3, pp. 247–79.
Prakash, Gyan (1994) 'Subaltern Studies as Postcolonial Criticism' *The American Historical Review* 99/5, pp. 1475–90.
Prakash, Gyan (1997) 'Postcolonial Criticism and Indian Historiography' in Anne McClintock, Aamir Mufti and Ella Shohat (eds) *Dangerous Liaisons: Gender, Nation, and Postcolonial Perspectives* (London: University of Minnesota Press), pp. 491–500.
Prakash, Gyan (1999) *Another Reason: Science and the Imagination of Modern India* (New Jersey: Princeton University Press).
Prakash, Gyan (2002) 'The Colonial Genealogy of Society: Community and Political Modernity in India' in Patrick Joyce (ed.) *The Social in Question: New Bearings in History and the Social Sciences* (London: Routledge), pp. 81–96.
Rabil, Albert (ed.) (1988) *Renaissance Humanism, Foundation, Forms and Legacy, Volume 3: Humanism and the Disciplines* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press).
Ralph, Philip Lee (1973) *The Renaissance in Perspective* (London: G. Bell and Sons, Ltd.).
Raychaudhuri, Tapan (2002 [1988]) *Europe Reconsidered: Perceptions of the West in Nineteenth-Century Bengal* second edition (New Delhi: Oxford University Press).
Rice, Eugene F. and Anthony Grafton (1994 [1970]) *The Foundations of Early Modern Europe 1460–1559* second edition (London: W. W. Norton and Company).
Richardson, David (1987) 'The Slave Trade, Sugar, and British Economic Growth, 1748–1776' *Journal of Interdisciplinary History: Caribbean Slavery and British Capitalism* 17/4, pp. 739–69.

Robertson, William (1818 [1777]) *The History of America Volume II* (Edinburgh: Peter Hill and Co.).
Rodríguez-Salgado, M. J. (1998) 'Christians, Civilized and Spanish: Multiple Identities in Sixteenth Century Spain' reprinted from *The Transactions of the Royal Historical Society 6th Series*, 8, pp. 233–51.
Rodríguez-Salgado, M. J. (2005) 'Europe of the Mind' (Part I), Radio 3 Sunday Feature, February 2005, repeated August 2005.
Rorty, Richard (1987) 'Science as Solidarity' in John S. Nelson, Allan Megill, and Donald N. McCloskey (eds) *The Rhetoric of the Human Sciences* (Madison: The University of Wisconsin Press), pp. 38–52.
Rostow, Walt W. (1960) *The Stages of Economic Growth: A Non-Communist Manifesto* (Cambridge: Cambridge University Press).
Roth, Guenther (1987) 'Rationalization in Max Weber's Developmental History' in Sam Whimster and Scott Lash (eds) *Max Weber, Rationality and Modernity* (London: Allen and Unwin), pp. 75–91.
Rousseau, Jean-Jacques (2004 [1762]) *The Social Contract, Or Principles of Political Right* translated by G. D. H. Cole (Montana: Kessinger Publishing).
Rudolph, Suzanne Hoeber (2005) 'The Imperialism of Categories: Situating Knowledge in a Globalizing World' *Perspectives on Politics* 3/1, pp. 5–14.
Runciman, W. Garry (1997) *A Treatise on Social Theory, Volume III: Applied Social Theory* (Cambridge: Cambridge University Press).
Rüsen, Jörn (1985) 'Jacob Burckhardt: Political Standpoint and Historical Insight on the Border of Post-Modernism' *History and Theory* 24/3, pp. 235–46.
Sabra, A. I. (1984) 'The Andalusian Revolt Against Ptolemaic Astronomy: Averroes and al-Bitruji' in E. Mendelsohn (ed.) *Transformation and Tradition in the Sciences: Essays in Honor of I. Bernard Cohen* (Cambridge: Cambridge University Press), pp. 133–54.
Said, Edward W. (1975) *Beginnings: Intention and Method* (New York: Basic Books Inc. Publishers).
Said, Edward W. (1978) *Orientalism: Western Conceptions of the Orient* (London: Routledge and Kegan Paul Ltd.).
Said, Edward W. (1986) 'Intellectuals in the Post-Colonial World' *Salmagundi* 70–71, Spring/Summer, pp. 44–64.
Said, Edward W. (1993) *Culture and Imperialism* (London: Chatto and Windus).
Said, Edward W. (1995 [1978]) *Orientalism: Western Conceptions of the Orient* with a new afterword (London: Penguin).
Sanford, Eva Mathews (1951) 'The Twelfth Century – Renaissance or Proto-Renaissance?' *Speculum* 26/4, pp. 635–42.
Scammell, G. V. (2000) 'After Da Gama: Europe and Asia since 1498' *Modern Asian Studies* 34/3, pp. 513–43.
Scott, John (1995) *Sociological Theory: Contemporary Debates* (Cheltenham: Edward Elgar).
Seidman, Steven (1997) *Difference Troubles: Queering Social Theory and Sexual Politics* (Cambridge: Cambridge University Press).
Seidman, Steven (1998) *Contested Knowledge: Social Theory in the Postmodern Era* (Oxford: Blackwell Publishers).
Sidbury, James (1997) 'Saint Domingue in Virginia: Ideology, Local Meanings, and Resistance to Slavery, 1790–1800' *The Journal of Southern History* 63/3, pp. 531–52.

Shilliam, Robbie (2006) 'What about Marcus Garvey? Race and the Transformation of Sovereignty Debate' *Review of International Studies* 32/3, pp. 379–400.
Silver, Allan (1990) 'Friendship in Commercial Society: Eighteenth-Century Social Theory and Modern Sociology' *American Journal of Sociology* 95/6, pp. 1474–1504.
Simmons, Colin (1985) '"De-Industrialization," Industrialization and the Indian Economy, c. 1850–1947' *Modern Asian Studies: Special Issue: Papers Presented at the Conference on Indian Economic and Social History, Cambridge University April 1984* 19/3, pp. 593–622.
Smart, Barry (1992) *Modern Conditions, Postmodern Controversies* (London: Routledge).
Smith, Adam (1863 [1776]) *An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations* with an introduction by J. R. M'Culloch (Edinburgh: Adam and Charles Black).
Smith, Adam (1982 [1759]) *The Theory of Moral Sentiments* edited by D. D. Raphael and A. L. Macfie (Indianapolis: Liberty Fund).
Smith, Anthony D. (1983 [1971]) *Theories of Nationalism* second edition (London: Duckworth).
Smith, Anthony D. (1986) *The Ethnic Origins of Nations* (Oxford: Blackwell).
Smith, Anthony D. (1996) 'Nationalism and the Historians' in Gopal Balakrishnan (ed.) *Mapping the Nation* (London: Verso), pp. 175–97.
Solow, Barbara L. (1987) 'Capitalism and Slavery in the Exceedingly Long Run' *Journal of Interdisciplinary History: Caribbean Slavery and British Capitalism* 17/4, pp. 711–37.
Spivak, Gayatri Chakravorty (1985a) 'The Rani of Sirmur: An Essay in Reading the Archives' *History and Theory – Studies in the Philosophy of History* XXIV, pp. 247–72.
Spivak, Gayatri Chakravorty (1985b) 'Subaltern Studies: Deconstructing Historiography' in Donna Landry and Gerald MacLean (eds) (1996) *Selected Works of Gayatri Chakravorty Spivak* (New York: Routledge), pp. 203–36.
Spivak, Gayatri Chakravorty (1988) 'Can the Subaltern Speak?' in Cary Nelson and Lawrence Grossberg (eds) *Marxism and the Interpretation of Culture* (Chicago: University of Illinois Press), pp. 271–316.
Spivak, Gayatri Chakravorty (1990) 'Post-structuralism, Marginality, Postcoloniality and Value' in Peter Collier and Helga Geyer-Ryan (eds) *Literary Theory Today* (Cambridge: Polity Press), pp. 219–44.
Sprang, Rebecca L. (2003) 'Paradigms and Paranoia: How Modern is the French Revolution?' *The American Historical Review* 108/1, pp. 119–48.
Stokes, Eric (1959) *The English Utilitarians and India* (Oxford: Oxford University Press).
Stoler, Ann Laura (1989) 'Rethinking Colonial Categories: European Communities and the Boundaries of Rule' *Comparative Studies in Society and History* 31/1, pp. 134–61.
Stråth, Bo (2002) 'A European Identity: To the Historical Limits of a Concept' *European Journal of Social Theory* 5/4, pp. 387–401.
Subrahmanyam, Sanjay (1988) 'Persians, Pilgrims and Portuguese: The Travails of Masulipatnam shipping in the Western Indian Ocean, 1590–1665' *Modern Asian Studies: Special Issue: Asian Studies in Honour of Professor Charles Boxer* 22/3, pp. 503–30.

Subrahmanyam, Sanjay (1990) 'Rural Industry and Commercial Agriculture in Late Seventeenth-Century South-Eastern India' *Past and Present* 126, pp. 76–114.
Subrahmanyam, Sanjay (1997) 'Connected Histories: Notes towards a Reconfiguration of Early Modern Eurasia' *Modern Asian Studies* 31/3, pp. 735–62.
Subrahmanyam, Sanjay (2005a) *Explorations in Connected Histories: Mughals and Franks* (Oxford: Oxford University Press).
Subrahmanyam, Sanjay (2005b) *Explorations in Connected Histories: From the Tagus to the Ganges* (Oxford: Oxford University Press).
Sullivan, Richard E. (1989) 'The Carolingian Age: Reflections on its Place in the History of the Middle Ages' *Speculum* 64/2, pp. 267–306.
Swingewood, Alan (1970) 'Origins of Sociology: The Case of the Scottish Enlightenment' *The British Journal of Sociology* 21, pp. 164–80.
Sylvester, Christine (1999) 'Development Studies and Postcolonial Studies: Disparate Tales of the "Third World"' *Third World Quarterly* 20/4, pp. 703–21.
Symonds, John Addington (1897) *Renaissance in Italy, Volume 1: The Age of the Despots* (London: Murray).
Talmon, J. L. (1967) *Romanticism and Revolt Europe 1815–1848* (New York: W. W. Norton and Company).
Taylor, Charles (1999) 'Nationalism and Modernity' in Ronald Beiner (ed.) *Theorizing Nationalism* (Albany: State University of New York Press), pp. 219–45.
Taylor, Charles (2001) 'Two Theories of Modernity' in Dilip P. Gaonkar (ed.) *Alternative Modernities* (Durham: Duke University Press), pp. 172–96.
Taylor, Peter J. (2000) 'Embedded Statism and the Social Sciences 2: Geographies and Meta-Geographies in Globalization' *Environment and Planning A* 32, pp. 1105–14.
Teschke, Benno (2003) *The Myth of 1648: Class, Geopolitics and the Making of Modern International Relations* (London: Verso).
Thapar, Romila (1966) *A History of India: Volume One* (Middlesex: Penguin Books Ltd.).
Thapar, Romila (1992) *Interpreting Early India* (New Delhi: Oxford University Press).
Thapar, Romila (1996) *Time as a Metaphor of History: Early India* (New Delhi: Oxford University Press).
Therborn, Goran (1995) *European Modernity and Beyond: The Trajectory of European Societies, 1945–2000* (London: Sage Publications).
Therborn, Goran (2003) 'Entangled Modernities' *European Journal of Social Theory* 6/3, pp. 293–305.
Tiryakian, Edward A. (1991) 'Modernization: Exhumetur in Pace (Rethinking Macrosociology in the 1990s)' *International Sociology* 6/2, pp. 165–80.
Tönnies, Ferdinand (1955 [1887]) Community and Association (Gemeinschaft und Gesellschaft) translated and supplemented by Charles P. Loomis (London: Routledge and Kegan Paul Ltd.).
Toulmin, Stephen E. (1990) *Cosmopolis: The Hidden Agenda of Modernity* (New York: Free Press).
Touraine, Alain (1971) *The Post-Industrial Society: Tomorrow's Social History – Classes, Conflicts and Culture in the Programmed Society* (London: Wildwood House).
Trinkaus, Charles (1970) *In Our Image and Likeness: Humanity and Divinity in Italian Humanist Thought Volume II* (London: Constable).
Trompf, G. W. (1973) 'The Concept of the Carolingian Renaissance' *Journal of the History of Ideas* 34/1, pp. 3–26.

Trouillot, Michel-Rolph (1991) 'Anthropology and the Savage Slot: The Poetics and Politics of Otherness' in Richard G. Fox (ed.) *Recapturing Anthropology: Working in the Present* (New Mexico: School of American Research Press), pp. 16–44.

Trouillot, Michel-Rolph (1995) *Silencing the Past: Power and the Production of History* (Boston: Beacon Press).

Trouillot, Michel-Rolph (2003) *Global Transformations: Anthropology and the Modern World* (New York: Palgrave Macmillan).

Turgot (1973 [1766]) 'Reflections on the Formation and the Distribution of Wealth' in Ronald Meek (ed.) *Turgot on Progress, Sociology and Economics* translated and edited by Ronald Meek (Cambridge: Cambridge University Press), pp. 119–82.

Turner, Bryan S. (1992) 'Preface to the Second Edition' in *Emile Durkheim Professional Ethics and Civic Morals* translated by Cornelia Brookfield (London: Routledge), pp. xiii–xlii.

Turner, Bryan S. (2006) 'Epilogue: Asia in European Sociology' in Gerard Delanty (ed.) *Handbook of Contemporary European Social Theory* (London: Routledge), pp. 266–78.

Van der Veer, Peter (1998) 'The Global History of "Modernity"' *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 41/3, pp. 285–94.

Venn, Couze (2000) *Occidentalism: Modernity and Subjectivity* (London: Sage Publications).

Vermeule, Cornelius (1964) *European Art and the Classical Past* (Massachusetts: Harvard University Press).

Visvanathan, S. (1988) 'On the Annals of the Laboratory State' in Ashis Nandy (ed.) *Science, Hegemony and Violence A Requiem for Modernity* (New Delhi: Oxford University Press), pp. 257–88.

Viswanathan, Gauri (1989) *Masks of Conquest: Literary Study and British Rule in India* (New York: Columbia University Press).

Wagner, Peter (1994) *A Sociology of Modernity: Liberty and Discipline* (London: Routledge).

Wagner, Peter (2001a) *A History and Theory of the Social Sciences – Not All That is Solid Melts into Air* (London: Sage).

Wagner, Peter (2001b) *Theorizing Modernity: Inescapability and Attainability in Social Theory* (London: Sage).

Wallerstein, Immanuel (1974) *The Modern World-System I: Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy in the Sixteenth Century* (New York: Academic Press).

Wallerstein, Immanuel (1979) *The Capitalist World-Economy: Essays* (Cambridge: Cambridge University Press).

Wallerstein, Immanuel (1980) *The Modern World-System II: Mercantilism and the Consolidation of the European World-Economy, 1600–1750* (New York: Academic Press).

Wallerstein, Immanuel (1997) 'Eurocentrism and Its Avatars: The Dilemmas of Social Science' *New Left Review* 226, Nov–Dec, pp. 93–107.

Wang, Ning (1997) 'Orientalism versus Occidentalism?' *New Literary History* 28/1, pp. 57–67.

Washbrook, David A. (1988) 'Progress and Problems: South Asian Economic and Social History c.1720–1860' *Modern Asian Studies* 22/1, pp. 57–96.

Washbrook, David A. (1990) 'South Asia, the World System, and World Capitalism' *The Journal of Asian Studies* 49/3, pp. 479–508.

Washbrook, David A. (1997) 'From Comparative Sociology to Global History: Britain and India in the Pre-history of Modernity' *Journal of Economic and Social History of the Orient* 40/4, pp. 410–43.

Weber, Eugene (1976) *Peasants into Frenchmen: The Modernization of Rural France 1870–1914* (California: Stanford University Press).

Weber, Max (1949) *The Methodology of the Social Sciences* translated and edited by Edward A. Shils and Henry A. Finch (New York: The Free Press).

Whimster, Sam and Scott Lash (eds) (1987) *Max Weber, Rationality and Modernity* (London: Allen and Unwin).

White, Hayden (1978) *Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism* (Baltimore: The Johns Hopkins University Press).

White, Hayden (1980) *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth-Century Europe* (Baltimore: The Johns Hopkins University Press).

Williams, Eric (1940) 'The Golden Age of the Slave System in Britain' *The Journal of Negro History* 25/1, pp. 60–106.

Williams, Eric (1994 [1944]) *Capitalism and Slavery* (London: The University of North Carolina Press).

Wittrock, Bjorn (1998) 'Early Modernities: Varieties and Transitions' *Daedalus: Early Modernities* 127/3, pp. 19–40.

Wittrock, Bjorn (2000) 'Modernity: One, None, or Many? European Origins and Modernity as a Global Condition' *Daedalus: Multiple Modernities* 129/1, pp. 31–60.

Wokler, Robert (1987) 'Saint-Simon and the Passage from Political to Social Science' in Anthony Pagden (ed.) *The Languages of Political Theory in Early Modern* (Cambridge: Cambridge University Press), pp. 325–38.

Wokler, Robert (2002) 'Repatriating Modernity's Alleged Debts to the Enlightenment: French Revolutionary Social Science and the Genesis of the Nation State' in Patrick Joyce (ed.) *The Social in Question: New Bearings in History and the Social Sciences* (London: Routledge), pp. 61–80.

Wolf, Eric R. (1997 [1982]) *Europe and the People Without History* (Berkeley: University of California Press).

Wood, Ellen Meiksins (2002) *The Origin of Capitalism: A Longer View* (London: Verso).

Woolf, Stuart (1979) *A History of Italy 1700–1860: The Social Constraints of Political Change* (London: Methuen and Co. Ltd.).

Woolf, Stuart (1991) *Napoleon's Integration of Europe* (London: Routledge).

Woolf, Stuart (1992) 'The Construction of a European World-View in the Revolutionary-Napoleonic Years' *Past and Present: The Cultural and Political Construction of Europe* 137, pp. 72–101.

Yapp, M. E. (1992) 'Europe in the Turkish Mirror' *Past and Present: The Cultural and Political Construction of Europe* 137, November, pp. 134–55.

Yu, Pauline (2006) 'Comparative Literature in Question' *Daedalus* 135/2, pp. 38–53.

المؤلفة فى سطور:

جيرمندر ك. بامبرا

أستاذ علم الاجتماع ومدير مركز النظرية الإجتماعية، وشغلت منصب أستاذ زائر فى الولايات المتحدة الأمريكية فى الفكر الاجتماعى النقدى، حصلت على جائزة تذكارية BSA فيليب إبرامز عام ٢٠٠٨م.

اهتماماتها البحثية فى مجال علم الاجتماع التاريخى، ودراسات نزعة ما بعد الاستعمار.

من أعمالها المختارة :

(١) الكوزموبوليتانية وحالة نزعة ما بعد الاستعمار.

(٢) علم الاجتماع التاريخى، والحداثة، ونقد نزعة ما بعد الاستعمار.

(٣) أثينا أفريقيا: أجندات جديدة.

(٤) الاعتراض على التعليم كحق اجتماعى.

(٥) إمكانيات وجود علم اجتماع العولمة.

المترجمتان فى سطور:

١- إبتسام سيد علام

أستاذ مساعد بقسم الاجتماع – آداب القاهرة.

حصلت على الماجستير عام ١٩٨٩م فى موضوع "بناء القوة فى الأحياء الحضرية المتخلفة: تحليل تاريخى ودراسة إمبيريقية لحى الجمالية"، بتقدير امتياز. وحصلت على الدكتوراه عام ١٩٩٦م فى موضوع " ظاهرة التسول فى مدينة القاهرة: دراسة أنثروبولوجية لبعض جماعات المتسولين"، بتقدير مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بالطبع والتبادل.

لها عديد من المؤلفات والأبحاث المنشورة من أهمها:-

(١) البيئة والمرض والعلاج فى قاع المدينة: رؤية سوسيوأنثروبولوجية، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، ٢٠٠٧م.

(٢) ثقافة الشباب فى المجتمع المصرى بين السلبية والتمرد فى المجلة العربية لعلم الاجتماع، مجلة علمية نصف سنوية – محكمة، العدد الثالث، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، يناير ٢٠٠٩م.

- كما شاركت بالتحكيم لبحث فى مجلة عالم الفكر الصادرة من المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٦م.
- وتحكيم مجموعة بحوث لمركز بحوث الشرطة بأكاديمية الشرطة فى موضوع "دعم العلاقة بين الشرطة والشعب" ٢٠١٢م.
- وشاركت فى مناقشة العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه.
- وحصلت على شهادة تقدير من رئيس جامعة القاهرة فى حفل التكريم السادس للنشر الأجنبى ٢٠١٠/٥/٥.

٢- حنان محمد حافظ

- مدرس بقسم الاجتماع- كلية الآداب - جامعة القاهرة .
- حصلت على درجة الدكتوراه عام ٢٠٠٩ برسالة حول نظام الإدارة المحلية والتنظيم السياسى القبلي. كما حصلت على ليسانس الآداب بنظام التعليم المفتوح جامعة القاهرة - شعبة الترجمة الإنجليزية عام ٢٠١٢.
- أجرت العديد من الأبحاث منها: " المواطنة والبدو فى مصر: قبائل أولاد على نموذجًا"، و"حقوق الإنسان والتنمية البشرية فى مصر"، و"جماعة الإخوان المسلمين وقضية الديمقراطية الداخلية".
- حازت على عدة جوائز منها: أفضل رسالة دكتوراه على مستوى كلية الآداب للعام الجامعى ٢٠٠٨- ٢٠٠٩، والجائزة البحثية فى المؤتمر العلمى الأول لشباب الباحثين بمعهد التخطيط القومي عام ٢٠١١، وجائزة أفضل بحث فى مجال العلوم الاجتماعية والإنسانيات فى مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ٢٠١٣.

المراجع فى سطور:

أ.د.أحمد زايد

- أستاذ علم الاجتماع السياسى – جامعة القاهرة، أكمل دراساته العليا بجامعة القاهرة وجامعة إيست إنجليا بإنجلترا. يقع مجال اهتمامه فى دراسات علم الاجتماع السياسى والثقافى، وانشغل بدراسة الحداثة وتناقضاتها فى المجتمع المصرى.
- له مؤلفات عديدة من أهمها: " خطاب الحياة اليومية فى المجتمع المصرى"، و"تناقضات الحداثة فى مصر"، و"صور من الخطاب الدينى المعاصر"، و"البناء السياسى فى الريف المصرى"، و"علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية"، وأعمال أخرى متعددة نشرت فى الدوريات العربية والأجنبية.

التصحيح اللُّغَوىِ : طـــارق حمدي

الإشــراف الفنى : حســـن كـــامل